الفنون الأدبية عند العرب ١٠

أدب الرحلات



أحمد أبو سعد

منشورات دار الشرق الجديد - بيروت

الفنون الأدبية عند العرب

١٠

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

أدب الرحلات

أحمد أبو سعد

أدب الرحلات

وتطوره في الأدب العربي

دراسة ومختارات

منشورات دار الشرق الجديد - بيروت

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

الطبعة الاولى

كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦١

مقدمة

أدب الرحلات وتطوره عند العرب كتاب قصدنا من تأليفه إلى التعريف بالرحّالة العرب ، وبما أنتجوه من آثار تعتبر في نظر الكثيرين ذات قيمتين : قيمة أدبية وقيمة علمية .

فأما القيمة العلمية فهي تكمن في احتواء معظم هذه الرحلات على كثير من المعارف والمدوّنات التي تمتّ إلى الجغرافية والتاريخ بأوثق الصلات ، ففيها عدا عن ذكر ما قاساه كاتبوها من ألوان المتاعب والأهوال ، صور وتقارير وافية عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعمرانية للعرب ومن جاورهم من شعوب آسية وافريقية وشطر من أمم اوروبة : كذكر المعالم الأثرية ، ودرس العلاقات الاقتصادية ، ووصف الممالك والبلدان ، والأصقاع والأقطار ، والمسالك والطرق وغير ذلك مما لا يزال يعتبر حتى اليوم مرجعاً أساسياً في دراسة وصف بعض البلدان الجغرافي والعمراني والاجتماعي والاقتصادي .

وأما القيمة الأدبية فهي تتجلى في كون كثير مما أورده هؤلاء الرحالون في مذكراتهم يمكن أن يأخذ سبيله إلى عالم الأدب والخيال كأنموذج من أرق النماذج على الوصف الفني الحي المتميز بشيء لم نزل نفتقده في أدبنا ، وهو الانصراف عن اللهو والعبث اللفظي والطلاء السطحي ، والايثار للتعبير السهل المستقيم الناضح بغنى التجربة وصدق اللهجة الشخصية ، مما لا نجده متوافراً عند البلغاء والأدباء المحترفين ، ونجده بقوة عند العلماء وفقهاء الدين والمؤرخين وهؤلاء الكتاب الرحالين .

لهذا كانت للرحلات في نظرنا هذه الأهمية البالغة التي جعلتنا نقبل عليها بشغف وحرص زائدين نتتبع ظواهر نشأتها ، ونعرض تاريخها عند العرب منذ الجاهلية حتى اليوم ، معرفين بأكثر الذين اشتهروا بها ، وناقلين الكثير من نصوصهم بصورة تجعل القارئ مطمئناً إلى أنه قد ألم بالموضوع من جميع أطرافه . ولنا أمل أن يكون كتابنا هذا حافزاً للذين يقتنونه إلى العودة بأنفسهم إلى كتب الرحلات يقرأونها لعلهم يكتشفون فيها ما لم نكتشفه ، والحقيقة من وراء القصد .

بيروت ١٩٦١ — احمد ابو سعد

الرّحلات في التّاريخ

ميل الانسان إلى الاستطلاع ، ورغبته في السيطرة على العالم الخارجي دفعاه منذ أقدم الأزمنة إلى التنقل والرحلات ، فاندفع من إقليمه إلى الأقاليم المجاورة يكتشف آفاقها، ويرتاد مجاهلها ، وكانت له في كل عهد من العهود سفرات ومغامرات دلّت عليها الرسوم البارزة والنقوش. وها إن التاريخ يحدثنا أن المصريين كانت لهم منذ حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد رحلات متعددة في عهد الأسرة السادسة بالبر والبحر إلى بلاد بُنت (ساحل الصومال) وأن الملكة «حتشبسوت» جهّزت حملة إلى هذه البلاد عام ١٤٩٥ ق . م . سيّرت فيها خمس سفن كبيرة في البحر الأحمر ، وإن النقوش البارزة في «الدير البحري» بمصر العليا تخبرنا كيف سيّرت هذه السفن ، وكيف استقبلت بُنتْ المصريين ، وكيف عادوا .

وبعد المصريين جاء الشعب الفينيقي ، وكان هو الذي أصبح

قائماً على أمر الملاحة في البحار ، فقام هذا الشعب برحلاتـه البحرية الخارقة التي استحوذ فيها على مرافئ بحر الروم ، وشواطئ اوروبة الغربية ، وخاض عباب المحيط الأطلسي واكتشف بعض سواحل افريقية الغربية ووصل إلى امبركة نفسها كما يستدل من أحدث الاكتشافات ، وقد سجلت رحلاته هذه في مصنفين اثنين هما : رحلة حنون القرطاجي حول القارة الافريقية ، ورحلة عملقون إلى سواحل اوروبة الغربية ، وخصوصاً جزائر بريطانية العظمى التي كان يذهب اليها الفينيقيون لجلب معدن القصدير ، غير أنه لم يصلنا من هذين الكتابين إلاّ نتف مبعثرة في كتب اليونـان والرومان .

خلف الفينيقيين الاغريق فقاموا برحلاتهم في أقطار الأرض المعروفة ، وأنشأوا مستعمرات لهم في سواحل آسية الصغرى وايطالية. وقد تركوا لنا معلومات ومعارف جغرافية واسعة تطلعنا على وصف الاقاليم والبلدان التي زاروها ، وتقول إن الارض كروية ، ووراء البحر والمحيط عوالم أخرى مسكونة . وقد اشتهر منهم بالرحلات هوميروس الذي أغري بركوب البحر ، وطالت فيه رحلته ، ولما عاد إلى بلاده نظم الالياذة والاوذيسة ، وخصّ النشيد الثاني من إلياذته بوصف البلدان والجبال والوهاد والبحار والأنهار . كما اشتهر كذلك هيرودوت الذي بنى علمه على المشاهدة والعيان فقام برحلة طويلة إلى مصر وبابل وبلاد الفرس والفينيقيين والطايان وسواحل البحر الأسود ، مكتشفاً خلالها طرقاً كانت قبله مجهولة ، ومدوّناً معلوماته هذه في تاريخه الكبير . وغير هذين العلَمين اشتهر أيضاً

سيلاكس البحّار الذي ألّف رحلته في القرن الرابع قبل الميلاد ، واصفاً لنا سواحل افريقية والمغرب وسواحل مراكش على المحيط الاطلنطي .واشتهر ارتيميدورس الرهاوي (القرن الأول قبل الميلاد) الذي زار إيطاليةوأقام قنصلاً بروما وزار إسبانية وسواحل الأطاسي الاوروبية ثم شمال افريقية ومصر . وألّف « رحلة مطولة » جعلها شبه موسوعة جغرافية حشر إليها ما سبقه به غيره من العلماء، وما اكتسبه هو من خلال ترحاله وتطوافه . واشتهر كذلك اثنان آخران هما : يودوكسوس وهبّالوس اللذان كانا يقومان برحلات ساحلية إلى الهند . ويظن مؤلف بريبلوس أن يودكسوس هو أول يوناني قام برحلة ساحلية من هذا القبيل ، ثم جاء هبّالوس فيما بعد ، وهو الذي اكتشف كيفية الافادة من الرياح الموسمية في رحلة الذهاب إلى الهند . ولن ننسى هنا أن نشير إلى فتوحات الاسكندر التي رافقه فيها علماء وجغرافيون رحّالة سجلوا مشاهداتهم حتى غدت هذه السجلات جغرافية لبلاد آسية .

ثم خلف اليونان الرومان وأصبحوا سادة الدنيا بعدهم ،فغذوا السير في الآفاق يضربون في أرجاء الامبراطورية الواسعة حتى وصلوا إلى جزائر كناري، وطافوا بدولتهم في افريقية وفي آسية ، وبلغوا الهند والشرق الأقصى . وقد وصلتنا من أنباء هذه السفرات والرحلات جملة من الروايات التي قصّها مؤرخوهم في كتبهم ، وأشهر هذه الكتب « التعليقات » ليوليوس قيصر ، و « جرمانية » لتاسيت ، و « العشريات » لطيطش ليوش .

وجاء من بعد الرومان العرب المسلمون الذين بسطوا فتوحاتهم

في مشارق الأرض ومغاربها ، وكوّنوا لهم علائق تجارية مع الصين وبعض البقاع الروسية وبعض مجاهل افريقية ، ولم تمنعهم صعوبة المواصلات وسوء الاستعدادات من الرحلات إلى أقصى الأرض فأمّوا الموانئ الصينية يتعلمون فيها استعمال البوصلة ، واخترقوا بحر الظلمات ، وحاولوا الكشف مرتين عن أرض جديدة عبر المحيط الاطلنطي [1] (امبركة) وقد ضمت رحلاتهم وثائق عظيمة الشأن في تاريخ الانسانية ، ساهمت في التعريف بالشرق الأقصى وافريقية فضلاً عن آفاق دولتهم ، وساعدت الرحالة الغربيين فكانت دليلاً لهم في هذه المجاهل التي كانت أقدام العرب أسبق اليها من أقدام السائحين الغربيين بعشرة قرون .

هذا وقد ظلّ العرب هم الحائزين قصب السبق في ميدان الرحلات والاكتشافات حتى القرن الخامس عشر الميلادي حين انطلقت في أوروبة حركات الاستكشاف الحديثة فاكتشف هنري المعروف بالملاّح اقساماً مجهولة من الشاطئ الافريقي (١٤٤١) ، ووصل بارتولوميو دياز (١٤٨٦) إلى « رأس الأعاصير » في الطرف الجنوبي من القارة الافريقية ، ثم اقتحم فاسكودا غاما بحر الهند (١٤٩٧) بهداية أحد الملاّحة العرب ، وبلغ كولومبوس امبركة (١٤٩٢) واستطاع ماجلان أن يطوف لأول مرة حول الكرة الأرضية (١٥١٩) فيثبت بالدليل العملي أن الأرض كروية .

وكان من نتائج هذه الكشوف أن أذكيت روح المغامرة في

---

١ – ورد ذكر المحاولة الأولى في كتاب الادريسي « نزهة المشتاق » وورد ذكر الثانية في « صبح الأعشى للقلقشندي » وسيأتي الحديث عنهما .

أوروبة كلها ، فاقتحم الغربيون غمار المحيطات ، واكتشفوا اوسترالية وجزر المحيط الهادي ، ولم يبق موضع على الأرض لم يرحلوا اليه ، أو يرسلوا البعوث لكشف اسراره . وها هم يفكرون اليوم في رحلات إلى القمر والمريخ بواسطة ما اخترعوه من قذائف وسفن فضائية وصواريخ .

هذا هو تاريخ الرحلات ، وحسبنا هنا أن نعرض لتفصيل تاريخها عند العرب وفنونها وأشهر من قام بها .

تاريخ الرّحلات
عند العرب

الرّحلاتُ في العَصْر الجاهلي

رحلات العرب في العصر الجاهلي رحلات في سبيل التجارة ، ومن أجل طلب العلم ، كان يقوم بها نفر ممن كانوا يسكنون أطراف الجزيرة وحواضرها ، وبخاصةً في اليمن . ففي اليمن كان العرب يتّجرون ، منذ أقدم الأزمنة ، مع مدن الساحل البعيد (اريتيريا والصومال) ومع بريجازا [1] ، ويبعثون بسفنهم إليها. وكانوا يقصدون إلى ساحل مالابار ، طوال عدة قرون ، للحصول على الخشب الذي كانت تبنى منه سفنهم ، كما كانوا يركبون البحر على طول سواحل افريقية الشرقية حتّى رهابتا[2] قرب زنجبار ، يمدون هذه البلاد بالذهب والنحاس والأحجار الكريمة، فضلاً عن السلع الأخرى التي كانت تستعمل في صناعة العطور والمراهم وبخور المعابد . وإن كل شيء يقع تحت اسم النقل من آسية واوروبة في

---

١ – بريجازا : ميناء هندي يدعى اليوم (بروتش) .

٢ – رهابتا : هي الآن كويليمين على الفرع الشمالي من دلتا الزمبيزي .

خلال القرن الثالث قبل مولد المسيح ، يقول المؤرخ اليوناني: أجاثارخيديس ، إن السبئيين وأهل جرّها [1] هم الذين كانوا مسؤولين عنه ، وهم الذين جعلوا سورية البطلمية غنية بالذهب، وأتاحوا للتجّار الفينيقيين تجارة رابحة وآلافاً من الأشياء الأخرى. هذا في اليمن .

وأما في الحجاز ومكة وسائر مدن الشمال فقد ساح المكّيون في الولايات البيزنطية الشرقية ، بل زاروا عاصمتهاليقتبسوا من الثقافة اليونانية والرومانية ويقفوا فيها على الحركة الدينية التي كان يبلغهم صداها . وكان لتجار مكة رحلتان في الصيف والشتاء إحداهما إلى سورية وفلسطين ، والأخرى إلى جنوبي جزيرة العرب ، كما كان للمتعرضين منهم لعطاء السادة والملوك ، وللمترحّلين في سبيل العلم والهداية رِحَلٌ وأسفار تزوّدوا فيها بالجديد الطريف من ألوان الحضارة المتباينة ، واستقوا ما أفادهم علماً ، وأكسبهم يقيناً وطمأنينة . نذكر منهم على سبيل المثال : النابغة الذبياني والأعشى وعلقمة الفحل ، والمرقّش الأكبر الذين وفدوا على ملوك الحيرة وغسّان ، ونذكر منهم زيد بن عمرو بن نفيل الذي شك في الاوثان ، ورحل يطلب دين ابراهيم حتى بلغ الموصل والجزيرة ثم جال في الشام ، ونذكر كذلك الحارث بن كلدة الثقفي الذي تعلّم

---

١ — جرها أو الجرعا وكانت قائمة بالقرب من ميناء العقير الحالي . يقول سترابون : « وقد أصبح السبئيون وأهل جرها أغنى القبائل جميعاً لاشتغالهم بالتجارة وكانوا يمتلكون كميات ضخمة من الأدوات المصنوعة من الذهب، ويعيشون في مساكن فخمة أبوابها ونوافذها وجدرانها مطعمة بالعاج والذهب والأحجار الكريمة » .

الطب وضرب العود بفارس واليمن .

هذه هي الرحلات العربية في العصر الجاهلي وهي رحلات ، لم يترك فيها العرب آثاراً مكتوبة تستحق الدرس في ميدان الرحلة كفن أدبي لذلك نضرب عنها الصفح ونكتفي بهذه الالمامة التي نوطّئ بها لدراسة الرحلات في الاسلام .

الرّحلات في الإسلام

كان الاسلام نقطة تحوّل في تاريخ العرب المديد ، استطاعوا فيه بحكم فتوحاتهم ولعوامل تتصل بالتجارة وبطلب العلم وبالحج أن يجوبوا شتى أقطار المسكونة ، وينساحوا في البلاد متعرّفين إلى أكثر المناطق التي لم يكن لهم بها صلة من قبل . فمنذ السنة ٦١٠ للميلاد ، قامت في البلاد العربية دعوة دينية بشّر بها فتى من قريش ، استطاع ان يجتذب العرب إليه ، وأن يجمع شملهم ، ويضمهم في نطاق دولة لها وحدتها ومميزاتها ، فمضوا يفتحون تحت رايته المدن والاقطار حتى تم لهم النصر ، وأصبحت الجزيرة ، بمختلف مراكزها ، تدين بالتوحيد .

ولما قُبض النبي عام ٦٣٢ خلفه من بعده الخلفاء الذين وجهوا جيوشهم إلى الشام ، وفارس ، والعراق ، فافتتحوها وافتتحوا أرمينية والقوقاز ، وتوغلوا في بلاد الروم . ثم استولوا على تركستان ، وهاجموا

أرض الهند ، مواصلين زحفهم حتى ضفاف سيحون وجيحون [1] ووادي مهران بالسند . وفي الغرب احتلوا افريقية الشمالية إثر فتح مصر ونوبيا وبرقة ، وهاجموا جبل طارق فاجتازوه ، ودخلوا ملاقة وغرناطة وطايطلة ، وامعنوا في الأرض الاسبانية حتى جبال البيرينه ، ثم اجتازوا هذه الجبال ، وأخذوا قسماً من جنوب الغال ، وعبروا وادي الرون مواصلين زحفهم إلى مقاطعة الصون ، ولولا خسارتهم في معركة (بواتيه) لكانوا توغلوا في اوروبة كلها ، ولكانت لهم السيادة على العالم كله .

هذه الفتوحات أتاحت للمسلمين وسائل السفر في امبراطوريتهم المترامية الأطراف ، وهيأت لهم أسبابه ، ومكنتهم من أن ينشروا لغتهم ومبادئ دينهم ومدنيتهم في كل ناحية ، فلم يبق التجوال ضرباً من التغرب لأن العربي كان يجد أينما حل قوماً يفهمون لغته ، ويعتبرونه ضيفاً يحتفون به .. وكان للحج أثر واضح في تشجيع الرحلات إذ أن تأدية هذه الفريضة أوجبت على المسلمين أن يسافروا من أقاصي الأرض إلى مكة لزيارة كعبتها ، والتعرف إلى مهد النبوة . وكثيراً ما كان القيام بهذه الفريضة نقطة انطلاق للرحالة الحاج يندفع على إثرها إلى الضرب في البلاد وتفقد عادات أهلها واستقصاء أحوالهم وأمزجتهم .

يضاف إلى هذين العاملين (الحج والفتوح) عاملا التجارة والسفر وقيام نظام البريد وجباية الخراج . فالتجارة عند العرب منذ العصر الجاهلي كانت عاملاً له أهميته في ازدياد حركة الاتصال

---

١ — نهر الاكسوس والياكسارات حالياً .

بينهم وبين البلدان المعروفة لهم آنئذ . ولما ظهر الاسلام تعاظمت التجارة إلى حد تجاوز حدود فتحهم ، فرأينا التجار المسلمين ينهضون إلى أطراف الأرض ، ينقلون البضائع ، ويشترون السلع ، وقد بلغوا في ذلك إلى أقصى بحار الصين ، وسواحل البلطيق ، وصحارى افريقية الداخلية ، وبلاد الأندلس والمحيطين الأطلسي والهندي . وخلّفوا في هذه الممالك نقوداً وآثاراً يكتشفها الباحثون يوماً بعد يوم وعليها أثر من هؤلاء التجار[1] . أما التوسع السياسي وانتشار رقعة الدولة في مساحات شاسعة من أنحاء العالم القديم فقد أدّيا إلى زيادة أهمية المعلومات عن أطراف العالم الاسلامي ، وجعلا العرب في أمسّ الحاجة إلى أن يعيّنوا الحدود ، ويعرّفوا المسالك ومواقع المدن لحفظ حقوق بيت المال وتنظيم طرق البريد ، وساعدا بذلك على الرحلة والسفر ، فرأينا العرب يضربون بسهم وافر في هذا السبيل ، ويسافر الكثيرون منهم لدراسة البلاد وطرقها وتعيين مسافاتها .

فإذا أضفنا إلى هذه العوامل كلها شوق العربي إلى المجهول ،

١–امتد ملك العرب في داخل افريقية شمالا وغرباً وشرقاً حتى بلادالكونغو والزولو . ولم تزل آثارهم هناك إلى الآن . وقد عثر بعض الأثريين الانكليز في سنة ١٩٠٣ شمالي الترنسفال بالقرب من بلاد«الكفرة » على قبر عربي قديم عليه كتابة بالحروف الحميرية تنبىء أن اسم الميت « سلام » وأنه توفي سنة ٩٥ هجرية (٧١٤ م) . وينتظر العلماء كشف آثار أخرى عربية هامة في تلك الأصقاع النائية . وكشف الالمان منذ بضع سنوات بالقرب من « دانغا » تحت أنقاض مدينة « فوماكو » القديمة فيداخل افريقية الشرقية كتاباتعربية قديمةفنقلوهاإلى متحفهم في برلين . وفي خرائب ممبسة ومليندةوقلا عهما آثار كثيرة،وكتابات عربية لا تزال محفوظة إلى الآن .

واندفاعه إلى الرحلة في طلب العلم الذي فشا أمره في القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، استطعنا أن نلم بالعوامل الأساسية التي حفزت العرب إلى الاهتمام بالرحلة وتسطيرهم أخبارها في كتب دوّنوا فيها مشاهداتهم ، ورووا ما حدث لهم في مختلف النواحي والأقطار . وقد أخذت طلائع هذه الكتب في الظهور منذ القرن التاسع للميلاد واستمرت في تضخم وازدياد طوال القرون الخمسة التالية ، حيث احتلت على أيدي فئة من الرحالين درجة أدبية رفيعة وتبوأت مكانة سامية بين غيرها من كنوز التراث العربي .

الرّحلاتُ في القرنِ التّاسع للميلاد

الثالث للهجرة

بدأ القرن التاسع للميلاد ، وبدأت معه مرحلة تجمّع فيها من أخبار الرحّالين وحكاياتهم كثير ، لعلّ أقدمها تلك الحكايا والاخبار التي رواها ابن خُرْدَاذْبَة عن سلاّم الترجمان[1] ومحمد بن موسى المنجّم[2] ، وابو زيد السيرافي عن سليمان التاجر وابن وهب ، وما رواه اليعقوبي وخبّر به عن رحلاته .

رحلة سلام الترجمان

هي رحلة استطلاعية رسمية ، قيل إنّ الخليفة العباسيّ الواثق بالله (٨٤٢ – ٨٤٧ م) أنفذ فيها سلاّماً الترجمان إلى حصون جبال القوقاز . وسبب الرحلة أن الخليفة رأى في منامه كأنّ السدّ الذي بناه ذو القرنين بينهم وبين يأجوج ومأجوج قد انفتح ، فطلب رجلاً يخرجه إلى الموضع فيستخبر خبره ، فقيل له : ما

١ – المسالك والممالك ص ١٦٣ – ١٧٠ .

٢ – المرجع نفسه ص ١٠٦ – ١٠٧ .

ها هنا أحد يصلح إلاّ سلاّم الترجمان ، وكان يتكلم ثلاثين لساناً ، فدعا به الواثق، وقال : أريد أن تخرج إلى السدّ حتى تعاينه ، وتجيئني بخبره . وضمّ اليه خمسين رجلاً ، ووصله بالمال وبرزْق سنة ؛ وأمر أن يهيأ للرجال اللبابيد ، وتغشى بالأديم ، (الجلد) واستعمل لهم اللّستبانات بالفراء ، والركب الخشب ، وأعطاهم مئتي بغل لحمل الزاد والعلف .

قال سلاّم الترجمان : « فشخصنا من سُرَّ من رأى بكتاب من الواثق بالله إلى اسحاق بن اسماعيل ، صاحب ارمينية ، وهو بتَفْليس في إنفاذنا ، وكتب لنا اسحاق إلى صاحب السرير ، وكتب لنا صاحب السرير إلى ملك اللاّن ، وكتب لنا ملك اللاّن إلى فيلان شاه ، وكتب لنا فيلان شاه إلى طَرْخان ملك الخزر ، فأقمنا عند ملك الخزر يوماً وليلة حتى وجّه معنا خمسة أدلاّء ، فسرنا من عنده ستة وعشرين يوماً ، ثم صرنا إلى أرض سوداء منتنة الرائحة ، وكنا قد تزوّدنا قبل دخولها خلاًّ نشمّه من الرائحة المنكرة ، فسرنا فيها عشرة أيام ، ثم انتهينا إلى مدن خراب ، فسرنا فيها عشرين يوماً فسألنا عن حال تلك المدن فخُبرنا أنها المدن التي كان يأجوج ومأجوج يتطرّقونها فخرّبوها ، ثم صرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذي في شعبة منه السدّ ، وفي تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية ، مسلمون يقرأون القرآن ، لهم كتاتيب ومساجد ، فسألونا من أين أقبلنا ، فأخبرناهم أنّا رسل أمير المؤمنين ، فأقبلوا يتعجبون ويقولون : أمير المؤمنين ! فنقول : نعم . فقالوا : أشيخ هو أم شاب ؟ فقلنا : شاب : فعجبوا

أيضاً ، فقالوا : اين يكون ؟ فقلنا : بالعراق في مدينة يقال لها سُرّ من رأى . فقالوا : ما سمعنا بهذا قط . ثم صرنا إلى مدينة يقال لها أيكة وهي التي كان ينزلها ذو القرنين بعسكره بينها وبين السّدّ مسيرة ثلاثة أيام . وبينها وبين السدّ حصون وقرى حتى تصير إلى السد في اليوم الثالث ،وهو جبل مستدير ذكروا أن يأجوج ومأجوج فيه ، وهما صنفان ذكروا أن يأجوج أطول من مأجوج ، ويكون طول أحدهم ما بين ذراع إلى ذراع ونصف وأقل وأكثر ، ثم صرنا إلى جبل عال عليه حصن ، والسدّ الذي بناه ذو القرنين هو فجّ (وادي) بين جبلين عرضه مئتا ذراع ، وهو الطريق الذي يخرجون منه ، فيتفرقون في الأرض ... »

يسترسل هنا سلاّم في وصف السد : اساسه ، وعضادتيه ، وسمكه ، والباب الحديد ، ومصراعيه ، وقفله ، ويبلغ طول هذا القفل سبع أذرع في غلظ باع في الاستدارة ، وهو لا يحتضنه رجلان ، وارتفاعه من الأرض خمس وعشرون ذراعاً ، وفوقه غَلَق ، وعلى الغلق مفتاح طوله ذراع ونصف ، واستدارته أربعة أشبار . ثم يرجع إلى الباب فيذكر أن معه حصنين « ورئيس تلك الحصون يركب في كل يوم اثنين وخميس ومعه ثلاثة رجال ، على عنق كل رجل مِرْزبّة (عصا من حديد) يضربون بها القفل مرات كثيرة ،ليسمع من كان خلفه من الساكنين أن للباب حفظة وليتيقّن الرئيس وأعوانه الفرسان من أن أولئك السكان لم يحدثوا في الباب حدثاً » .

وبعد أن يعاين سلاّم السد يخرج من خفّيه سكّيناً ، ويحكّ

بها موضع شقّ فيه ، فيخرج منه مقدار نصف درهم حديد ، ويشده في منديل ليريه الواثق ، ثم يسأل من هناك : « هل رأيتم من يأجوج ومأجوج أحداً ؟ » فيذكرون : « انهم رأوا مرة عدداً فوق الجبل ، فهبّت ريح سوداء فألقتهم إلى جانبهم ، وكان مقدار الرجل في رأي العين شبراً ونصف الشبر » ويختم أخيراً سلاّم حديثه عن الرحلة بقوله :

« فلما انصرفنا أخذ الأدلاّء بنا إلى ناحية خراسان وكان الملك يسمي اللب ثم خرجنا من ذلك الموضع وصرنا إلى موضع يقال له طبانُوَين وهو صاحب الخراج فأقمنا عندهم أياماً وسرنا من ذلك الموضع حتى وردنا سمرقند في ثمانية أشهر ، ووردنا على أسبيشاب وعبرنا نهر بلخ ثم صرنا إلى شرُسَنة وإلى بخارى وإلى تِرمِذ ثم وصلنا إلى نيسابور ومات من الرجال الذين كانوا معنا ومن مرض منهم في الذهاب اثنان وعشرون رجلاً من مات منهم دفن في ثيابه ، ومن مرض خلّفناه مريضاً في بعض القرى ومات في المرجع اربعة عشر رجلاً فوردنا نيسابور ونحن أربعةعشر رجلاً وكاناصحاب الحصون زوّدونا ما كفانا ، ثم صرنا إلى عبدالله بن طاهر فوصلني بثمانية آلاف درهم ووصل كل رجل معي بخمسمئة درهم وأجرى للفارس خمسة دراهم وللراجل ثلاثة دراهم في كل يوم حتى بلغنا الريّ ولم يسلم من البغال التي كانت معنا إلاّ ثلاثة وعشرون بغلا . ووردنا سُرّمن رأى فدخلت على الواثق فأخبرته بالقصة وأريتــه الحديد الذي كنت حككته من الباب فحمد الله وأمر بصدقـة يُتصدق بها وأعطى الرجال كل رجل ألف دينار ، وكان وصولنا

إلى السد في ستة عشر شهراً ورجعنا في اثني عشر شهراً وأيام [1] »

رحلة ابن موسى المنجم

هي رحلة استطلاعية رسمية وجّه فيها الخليفة العباسي الواثق بالله [2] ، محمد بن موسى المنجم إلى بلاد الروم لينظر إلى أصحاب الرقيم [3] ، وكتب إلى عظيم الروم في توجيه من يوقفه عليهم . فحدث ابن موسى ابن خرداذبة [4] : « ان ملك الروم وجّه معه من صار به إلى قرّة ، ثم سار اربع مراحل وإذا جُبيل قطر أسفله أقل من ألف ذراع وله سرب من وجه الأرض ينفذ إلى الموضع الذي فيه أصحاب الرقيم . قال : « فبدأنا بصعود الجبل إلى ذروته فإذا بئر محفورة لها سعة تبيّنّا الماء في قعرها ثم نزلنا إلى باب السرب فمشينا فيه مقدار ثلاثمئة خطوة فصرنا إلى الموضع الذي أشرفنا عليه فاذا رواق في الجبل على أساطين منقورة وفيه عدّة أبيات منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة عليه باب حجر منقور فيه الموتى ورجل موكّل بحفظهم ومعه خصْيان رُوقة وإذا هو يحيد عن أن نراهم أو نفتشهم ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة يريد التمويه ليدوم كسبه بهم فقلت له : دعني انظر اليهم وأنت بريء . فصعدت بشمعة غليظة مع غلامي

---

١ – يعلق ابن خرداذبه على ذلك بقوله : « فحدثني سلام الترجمان بجملة هذا الخبر ثم أملاه علي من كتاب كان كتبه الواثق بالله » .

٢ – وفي رواية أخرى المعتصم .

٣ – أهل الكهف .

٤ – ابن خرداذبه – المسالك والممالك ص ١٠٦ – ١٠٧ .

فنظرت اليهم في مسوح تتمزّك في اليد وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمُرّ والكافور ليحفظها ، وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم غير أني أمررت يدي على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوّة نباته وأحضر الموكّل بهم طعاماً وسألنا الغداء عنده فلما ذقنا طعامه أنكرنا أنفسنا فتهوّعنا ، وإنما أراد أن يقتلنا أو يغصّنا فيصح له ما كان يدّعيه عند ملك الروم من أنهم أصحاب الرقيم فقلنا له : إنما ظننّا أنك تريدنا موتى يشبهون الأحياء وليس هؤلاء كذلك . »

٥

رحلة سليمان السيرافي

هي رحلة تجارية بحرية منسوبة إلى تاجر من سيراف[1] يدعى سليمان ، كان يشتغل بنقل البضائع من الهند والصين إلى البلاد العربية . وقد اشتملت رحلته على مجموعة من المعارف والأخبار التي حصل عليها أثناء رحلته عبر البحر الشرقي الكبير أي المحيط الهندي . وفيها تحدث عن ملاحة العرب البحرية من سيراف إلى كانتون [2] ، وعن عادات أهل الهند والصين [3] .

١–بلدة على ساحل الخليج الفارسي كانت تعتبر أهم الموانئ البحرية يومذاك (٨٥١) وقد خربتها الزلازل عام ٩٧٧ م .

٢–توانج–تشو وفي الكتب العربية خانفو أكبر المراكز التجارية الصينية في أيام حكم اسرة تانج . وكانت تعيش فيها جالية كبيرة جداً من التجار المسلمين وغير المسلمين .

٣–عثر على الرحلة في باريس سنة ١٧١٨ مروية في كتاب لمؤلف عراقي عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يدعى أبا زيد وهو من مواطني سليمان=

من سيراف الى كانتون

يقول التاجر سليمان : إن الرحلة إلى الصين كانت تبدأ مـن سيراف ، حيث تحمل الأمتعة اليها من البصرة وعمان وغيرهما ، وتعبّى في السفن الصينية « فاذا عبّي المتاع بسيراف استعذبوا منها الماء ، وخطفوا أعني أقلعوا إلى موضع يقال له مسقط ، وهو آخر عمل عمان ، والمسافة من سيراف اليه نحو مئتي فرسخ ، وفي شرقي هذا البحر في ما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف بني الصفّاق ، وجزيرة ابن كاوان ، وفي هذا البحر جبال عمان ، وفيها الموضع الذي يسمّى الدّرْدور ، وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية ، وفيها الجبلان اللذان يقال لهما كُسَيْر وعُوَير ، وليس يظهر منهما فوق الماء إلاّ اليسير »

« فاذا جاوزنا الجبال صرنا إلى موضع يقال له صُحار[1] عمان ، فنستعذب الماء من مسقط من بئر بها ، وهناك فيه غنم من بلاد عمان ، فتخطف المراكب منها إلى بلاد الهند ، وتقصد إلى كُولَم مَلَيّ (كويلاون Quilon) ، والمسافة من مسقط إلى كُولم مَلَيّ شهر على اعتدال الريح ، وفي كولم ملي قوة مسلحة لحماية الميناء والبلاد التي تحت حكمها ، ومنها تؤدي السفن ما يفرض

=وقد جمع بعض المعارف وبوبها وضم فصولها إلى مذكرات التاجر سليمان بعد أن مضى على كتابتها ستون عاماً تقريباً . وقد نشرت الرحلة وذيلها في باريس ١٨٤٥ باسم « سلسلة التواريخ » .

١ – مدينة و مرفـأ على ساحل عمان از دهرت تجارتها مع اليمن و الصين في العصر العباسي .

عليها ، فيؤخذ من السفن الصينية ألف درهم ، ومن غيرها من السفن الأصغر ما بين عشرة دنانير إلى دينار ... وبها يستعذبون الماء من آبار .

ثم تخطف المراكب—أي تقلع — إلى بحر هِرْكَنْد [1] ، وبين كولم ملي وبين هركند نحو من شهر ، فاذا جاوزوا بحر هركند صاروا إلى موضع يقال له لَنْجَ بالوس ، لا يفهمون لغة العرب ولا ما يعرفه التجّار من اللغات ، وهم قوم بيض كواسج ، لا يلبسون الثياب ، وذكروا أنهم لم يروا منهم النساء ، وذلك أن رجالهم يخرجون اليهم من الجزيرة في زواريق منقورة من خشبة واحدة ، ومعهم النارجيل وقصب السكر والموز وشراب النارجيل ، وهو شراب أبيض ، فاذا شرب ساعة يؤخذ من النارجيل فهو حلو مثل العسل ، فاذا ترك ساعة صار شراباً ، وإذا بقي أياماً صار خلاً ، فيبيعون ذلك بالحديد ، وربما وقع اليهم العنبر اليسير فيبيعونه بقطع الحديد ، وإنما يتبايعون بالاشارة يداً بيد، إذ كانوا لا يفهمون اللغة ، وهم حذّاق في السباحة ، فربما استلبوا من التجار الحديد ولا يعطونهم شيئاً .

« ثم تخطف المراكب إلى موضع يقال له كَلاَه بَار [2] ، المملكة والساحل يقال له بار ، وهي مملكة الزّابَج [3] ، متيامنة عن بلاد

١ — هو جزء المحيط بين جزيرة سرنديب وخليج بنغالة .

٢ — هو ميناء لعله كان في ولاية كيدا بالملايو الآن واشتهر عند العرب بتصدير معدن الرصاص القلعي أي القصدير الذي تشتهر به اليوم الملايو .

٣ — عنى العرب بالزابج « سومطرة » وبعضهم يقول إنها « جاوه » .

الهند ، يحكمها والزّابج ملك ، ولباسهم الفوط ، يلبس السّريّ والدّنيّ منهم الفوطة الواحد ، ويستعذبون هناك الماء من آبار عذبة ، وهم يؤثرون ماء الآبار على مياه العيون والمطر ، والمسافة ما بين هركند وكلاه بار شهر .

« ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له تِيُومَة (تيومان) ، وبها ماء عذب لمن أراده ، والمسافة اليها عشرة أيام .

« ثم تخطف المراكب إلى موضع يقال له كُنْدُرَنْج [1] ، المسافة اليه عشرة أيام ، وفيه ماء عذب لمن أراده ، وكذلك جزائر الهند إذا احتفرت فيها الآبار وُجد بها الماء العذب .

« ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له صَنْف [2] مسيرة عشرة أيام ، وبها ماء عذب ومنه يؤتى بالعود الصنفي ، وبها ملك ، وهم قوم سمر يلبس كل واحد منهم فوطتين . فاذا استعذبوا منها خطفوا إلى موضع يقال له صُنْدُرْ فُولات وهي جزيرة في البحر ، والمسافة اليها عشرة أيام ، وفيها ماء عذب ، ثم تخطف المراكب إلى بحر يقال له صَنْخَيْ [3] ، ثم إلى أبواب الصين ، وهي جبال في البحر بين كل جبلين فرجة تمّر فيها المراكب ، فاذا سلّم الله من صُندرفولات خطفت المراكب إلى الصين في شهر ، إلا أن الجبال التي تمر بها مسيرة سبعة أيام ، فاذا جازت السفينة الأبواب

١ – يرى بعضهم أن كندرنج هي رأس سانت جاك الآن وبحرها هو خليج سيام .

٢ – موضع يقع على شواطئ الهند الصينية وهو مملكة تشامبا .

٣ – هو بحر الصين سابع البحار التي كان يعبرها المسافر في ما بين البصرة أو سيراف وبين خانفو ميناء الصين الأكبر .

ودخلت الخَوْر ، صارت في ماء عذب إلى الموضع الذي ترسي اليه من بلاد الصين وهو يسمى مدينة خانْفُو ، وسائر الصين فيها الماء العذب من أنهار عذبة وأودية على شواطئها مسالح وأسواق ، وفيها مدّ وجَزْر مرتين في اليوم والليلة، إلا ّ أن المد يكون في ما يلي البصرة إلى جزيرة بني كاوان إذا توسّط القمر السماء ، ويكون الجزر عند طلوع القمر وعند مغيبه، أما في ما بين الصين وجزيرة بني كاوان فالمد يكون إذا طلع القمر ، فاذا توسط السماء جزر الماء ، فاذا غاب كان المد ، فاذا كان في مقابلة وسط الماء جزر . »

وعلى هذا النحو يصف التاجر سليمان طريق الملاحة من سيراف إلى كانتون وصفاً يذكر لنا فيه الموانئ ذات الأهمية الاقتصادية في المحيط الهندي وسواحله ، ويعيّن المسافات ، ومبلغ الرسوم التي كانت تؤديها السفن القاصدة إلى الصين في كولم ملي ، ويشير في موضع آخر إلى المصاعب التي كانت تعترض الملاحة ، ويصف طريق الرقابة على السلع المستوردة فيقول : « وإذا دخل البحريون من البحر قبض الصينيون متاعهم ،وصيّروه في البيوت (مخازن الجمارك) وضمنوا الدرك إلى ستة أشهر إلى أن يدخل آخر البحريين . ثم يؤخذ من كل عشرة ثلاثة ، ويسلم الباقي إلى التجار . وما احتاج اليه السلطان أخذه بأغلى الثمن وعجّله ولم يظلم فيه » .

ويذكر أنه كانت ثمة قيود أخرى قبل رحلة العودة من الصين . فقد كان هناك مفتش للتجارة البحرية صيني ، وكان على التجار

تسجيل أسمائهم في مكتبه ، وكان يفحص بيانات شحنهم ويجمع منهم ضرائب التصدير ورسوم الشحن ، ويحرم عليهم تصدير طائفة معينة من السلع النادرة الغالية !

أما وصف التاجر سليمان للبحار السبعة التي كان العرب يعبرونها في ما بين البصرة أو سيراف وبين الميناء الصيني الأكبر فالى القارئ نبذة مما جاء في أوصافها :

أوصاف البحار

« والبحر الثالث بحر هِرْكَنْد ، وبينه وبين بحر لارْوي [1] جزائر كثيرة يقال إنها ألف وتسعمئة جزيرة ، وهي فرق ما بين هذين البحرين .. وهذه الجزائر تملكها امرأة ، ويقع فيها عنبر عظيم القدر ... وهو ينبت في قعر البحر نباتاً ، فاذا اشتدّ هيجان البحر قذفه من قعره [2] ... والجزائر عامرة بنخل النّارجيل ، وبُعد ما بين الجزيرة والجزيرة فرسخان وثلاثة وأربعة ، وكلها عامرة بالناس والنارجيل ، ومالُهم الوَدَع ، والملكة تدّخر الودع في خزائنها ... والودع يأتيهم على وجه الماء فيتعلق فيها الودع وهم يدعونه « الكَبْتَج » وآخر هذه الجزائر سرنديب (سيلان) في

١ – بحر يقع غربي شبه جزيرة الهند أمام شواطئ المالبيار والسند .

٢ – عجز العرب في القرون الوسطى عن معرفة سر تكوين العنبر تماماً وإن كانوا قد أجادوا وصفه وعرفوا بعض صلته بالبال الاسبرماسيّ . والحقيقة أن العنبر إفراز مرضي متحجر من قبيل حصى المرارة في الانسان أو الحيوان . وهو يتكون في أمعاء البال (نوع من الدواب البحرية) الذي يعيش في البحار الحارة على الأغلب ، و أكثر ما يوجد العنبر طافياً على سطح الماء أو ملقى على سواحل البحر.

بحر هركند ، وهي رأس هذه الجزائر كلها وهم يدعونهـــا الدّيبَجات [1] ، وبسرنديب منها مغاص اللؤلؤ ، وفي أرضها جبل يدعى الرّهون وعليه هبط آدم عليه السلام ، وقدمه في صفا رأس هذا الجبل قدم واحدة ... وحول هذا الجبل معدن الجوهر الياقوت الأحمر والأصفر والأسمانجوني ،وفي هذه الجزيرة ملكان، وهي جزيرة عظيمة ، فيهـا العود والذهب والجوهر ، وفي بحرهـا اللؤلؤ و « الشّنْك » وهو البوق الذي ينفخ فيه ممّا يدّخرونه .

«وفي هذا البحر إذا رُكبَ إلى سرنديب جزائر ليست بالكثيرة غير أنها واسعة لا تُضْبط ، منها جزيرة يقال لها الرّامني (سومطرة) فيها عدّة ملوك ، وسعتها يقال ثمانمئة أو تسعمئة فرسخ، وفيها معادن الذهب ، ومعادن تدعى « فَنْصور » يكون الكافور الجيد منها ، وفيها فيلة كثيرة ، وبها البَقْم والخيزران ، وقوم يأكلون الناس ، وهي تشرع على بحرين : هركند وشلاهِطْ .

« وتلي هذه الجزائر جزيرة يقال لها « النيان» [2] لهم ذهب كثير وأكلهم النّارجيل وبه يتأدّمون ويدّهنون، وإذا أراد واحد منهم، أن يتزوج ، لم يُزوّجْ إلاّ بقحف رأس رجل من أعدائهم ، فاذا قتل اثنين زوّج اثنين ، وكذلك إن قتل خمسين زُوّج خمسين امرأة بخمسين قحفاً ، وسبب ذلك أن أعداءهم كثير ، فمن أقدم على القتل أكثر كانت رغبتهم فيه أوفر .

« وبعد هذا جزائر تدعى لَنْجبالوس ، وفيها خلق كثير عراة

---

١ – تعرف هذه الجزائر اليوم بأرخبيل المحلديب .

٢ – تسمى في الخرائط الأوروبية الحديثة نياس، وهذا الاسم محرف من نيان.

الرجال منهم والنساء، غير أن على عورة المرأة ورقاً من ورق الشجر ، فاذا مرت بهم المراكب جاءوا اليها بالقوارب الصغار والكبار ، وبايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد ولا يحتاجون إلى كسوة لأنه لا حر عندهم ولا برد. ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال له أنْدَمان [١] ، وأهلهما يأكلون الناس أحياء، وهم سود مفلفلو الشعور مناكير الوجوه والأعين ، طوال الأرجل ، قدم أحدهم مثل الذراع ، عراة ليس لهم قوارب ، ولو كانت لهم لأكلوا من مرّ بهم . وربما أبطأت المراكب في البحر ، وتأخّر بهم السير بسبب الريح فينفد ما في المركب من ماء فيقربون إلى هؤلاء فيستقون الماء ، وربما أصابوا منهم ولكن أكثرهم يفلتون .

« وبعد هذه الجزيرة جبال ليست على الطريق يقال انها معادن فضية وليست بمسكونة ، وليس كل مركب يريدها يصيبها ، وإنما عليها جبل منها يقال له الخُشْنامي مرّ به مركب فرأوا الجبل فقصدوا له ، فلما أصبحوا وأوقدوا ناراً فانسكبت الفضة علموا أنه معدن فاحتملوا ما أرادوا . فلما ركبوا اشتد عليهم البحر فرموا بجميع ما أخذوا منه ، ثم تجهز الناس بعد ذلك إلى هذا الجبل فلم يعرفوه . ومثل هذا في البحر كثير لا يحصى من جزائر ممنوعة لا يعرفها البحريون ومنها ما لا يقدرون عليه .

---

١ – يؤكد الكولونيل يول بأن سكان الأندمان كانوا يقتلون ويأكلون البحارة الضالين قبل احتلال الانكليز للجزيرة سنة ١٨٥٨ وما زالوا – على الأقل إلى عهد يول أي في أواخر القرن الماضي – يسيرون عرايا إلا النساء فيغطين سوآتهن بأوراق الشجر .

« وربما رؤي في هذا البحر سحاب أبيض[1] يُظل المراكب ، ينشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر فيغلي له البحر مثل الزوبعة ، فاذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته ، ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطراً فيه قذى البحر ، فلا أدري أيستقي السحاب من البحر أم كيف هذا .

« وكل بحر من هذه البحار تهيج فيه ريح تثيره وتهيّجه حتى يغلي كغليان القدور فيقذف ما فيه إلى الجزائر التي فيه ، ويكسر المراكب ، ويقذف السمك الميت الكبار ، وربما قذف الصخور والجبال كما يقذف القوس السهم .

« وأما بحر هِرْكَنْد فله ريح غير هذه ما بين المغرب إلى بنات نعش ، فيغلي لها البحر كغليان القدور ويقذف العنبر الكثير وكلما كان البحر أغزر وأبعد قعراً كان العنبر أجود ، وهذا البحر أعني هركند ، إذا عظمت أمواجه تراه مثل النار يتّقد ،

١ – في هذا الموضع إشارة إلى « النافورة البحرية » التي يعتبر التاجر سليمان أقدم وأصدق من وصفها . وهذه النافورة هي كناية عن إعصار حلزوني ينشأ فوق البحر عن تفاعل ريحين متضادتين تدوران حول نطاق جوي منخفض الضغط منخفض الحرارة . ويتكاثف بخار الماء في هذا النطاق فيبدو في صورة عمود يصل بين البحر والسحاب .. وعن هذا النص نقل المسعودي وغيره من المؤلفين الجغرافيين . هذا وقد خلق الخيال العربي من هذه الظاهرة أي نافورة الماء اسطورة التنين «الدابة العظيمة في البحر تؤذي دوابه فيبعث الله عليها سحاباً من قدرته ويخرجها من البحر . وهي صفة حية لها رأس إنسان وتقذف بالنار من خلف ومن قدام .. لا يمر ذنبها على شيء من الابنية العظام إلا سحقته وهدمته ولا من الأشجار إلا هدتها . وربما تنفست فأحرقت الأشجار والنباتات .. قال فيلقيها السحاب في الجزائر التي بها يأجوج ومأجوج فتكون لهم غذاء » .

وفي هذا البحر سمك يدعى اللّخْم ، وهو سبع يبتلع النّاس .

سمك البال

« سمك مثل الشراع ربما رفع رأسه فتراه كالشيء العظيم ، وربما نفخ الماء من فيه فيكون كالمنارة العظيمة . فاذا سكن البحر اجتمع السمك فحواه بذنبه ، ثم فتح فاه فيرى السمك في جوفه يفيض كأنه يفيض في بئر . والمراكب التي تكون في البحر تخافه ، فهم يضربون بالليل بنواقيس مثل نواقيس النصارى مخافة أن يتكىء على المركب فيغرقه . »

هذا وليست تقتصر رحلة التاجر سليمان على أوصاف المسالك والطرق وعجائب البحار ، بل هي تشتمل كذلك على طائفة من المعارف تحدث فيها التاجر سليمان عن بلاد الهند والصين وأحوال أهلها وطباعهم وحياتهم الاجتماعية ومعاملاتهم وإدارة حكوماتهم ودياناتهم حديث العارف الخبير ، وفي ما يلي نبذ مختارة مما كتبه التاجر سليمان في هذا الموضوع :

أهل الهند والصين

« أهل الصين أهل ملاهٍ ، وأهل الهند يعيبون الملاهي ، ولا يتخذونها ، ولا يشربون الشراب ، ولا يأكلون الخل لأنه من الشراب ، وليس ذلك ديناً ولكنه أنفة ، ويقولون أي ملك يشرب الشراب فليس بملك ، وذلك أن حولهم ملوكاً يقاتلونهم فيقولون كيف يدبّر أمر ملكه من هو سكران ؟ »

« وأهل الهند والصين إذا أرادوا التزويج تهانئوا بينهم ، ثم تهادوا ، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول ، وهديتهم من المال على قدر الامكان ... وجزاءالسّرَق في جميع بلاد الصين والهند في القليل منه والكثير القتل . وحيطان أهل الصين الخشب ، وبناء أهل الهند حجارة وجصّ وآجرّ وطين ، وربما كان ذلك بالصين أيضاً . وليس الصين ولا الهند بأصحاب فُرش ، ويتزوج الرجل من الصين والهند ما شاء من النساء ، وطعام الهند الأرز ، وطعام الصين الحنطة والارز ، وأهل الهند لا يأكلون الحنطة . وأهل الصين يعبدون الاصنام ويصلّون لها ، ويتضرّعون اليها ، ولهم كتب دين ، والهند يطيلون لحاهم ، ربما رأيت لحية أحدهم ثلاثة أذرع ، ولا يأخذون شواربهم ، وأكثر أهل الصين لا لحى لهم خلقةً لأكثرهم . وأهل الصين والهند يزعمون أن البدَدة (الأصنام) تكلّمهم وإنما يكلمهم عبّادهم . والصين والهند يقتلون ما يريدون أكله ولا يذبحونه ، فيضربون هامته حتّى يموت . وللهند خيل قليل وهي للصين أكثر ، وليس للصين فِيَلة ، ولا يتركونها في بلادهم تشاؤماً بها .

« وبلاد الصين أصحّ وأقل أمراضاً وأطيب هواءً لا يكاد يُرى بها أعمى ولا أعور ولا من به عاهة. وأنهار البلدين جميعاً عظام، فيها ما هو أعظم من أنهارنا ، والأمطار بالبلدين جميعاً كثيرة . وأهل الصين أجمل من أهل الهند وأشبه بالعرب في اللباس والدواب وهم في هيئتهم ومواكبهم يشبهون العرب ، يلبسون الأقبية والمناطق

وأهل الهند يلبسون فوطتين ويتحلّون بأسورة مـن الذهب أو الجوهر ... »

عوائدهم في مملكة بَلْهرا

ومن عوائدهم في مملكة بَلْهَرا وغيره من ملوك الهند من يحرق نفسه بالنار . وذلك لقولهم بالتناسخ وتمكنه في قلوبهم وزوال الشك فيه عنهم . وفي ملوكهم من إذا قعد للملك طُبِخ له أرُزّ ثم وُضع بين يديه على ورق الموز. وينتدب من أصحابه الثلاثمئة والأربعمئة باختيارهم لأنفسهم لا بإكراه من الملك لهم . فيعطيهم الملك من ذلك الأرُزّ بعد أن يأكل منه . ويتقرّب رجلٌ رجلٌ منهم فيأخذ منه شيئاً يسيراً فيأكله . فيلزم كلَّ من أكل من هذا الأرز إذا مات الملك أو قُتل أن يحرقوا أنفسهم بالنار عن آخرهم في اليوم الذي يموت فيه . ولا يتأخرون عنه حتى لا يبقى منهم عين ولا أثر. وإذا عزم الرجل على إحراق نفسه صار إلى باب الملك فاستأذن . ثم دار في الأسواق وقد أجّجت له النار في حطب جَزْل كثير . عليها رجالٌ يقومون بإيقادها حتى تصير كالعقيق حرارة والتهاباً . ثم يعدو وبين يديه الصنّوج دائراً في الأسواق وقد احتوشه أهله وذوو قرابته . وبعضهم يضع على رأسه إكليلاً من الريحان يملأه جمراً ويصبّ عليه السَّنْدروس وهو مع النار كالنّفط . ويمشي وهامته تحترق وروائح لحم رأسه تفوح وهو لا يتغيّر في مشيته، ولا يظهر منه جَزَعٌ حتى يأتيَ النار فيثب فيها فيصير رماداً. فذكَرَ بعضُ من حضر أنَّ رجلاً منهم أراد دخول النار فلما أشرف

عليها أخذ الخنجر فوضعه على رأس فؤاده فشقّه بيده . ثم ادخل يده اليسرى فقبض على كبده فجذب منها ما تهيّأ له وهو يتكلم. ثم قطع بالخنجر منها قطعة فدفعها إلى أخيه استهانةً بالموت....

ومن عوائدهم القمار بالدّيَكة والنَّرد ، والديكة عندهم عظيمة الاجسام وافرة الصّياصي . يستعملون لها من الخناجر الصغار المرهفة ما يشدّ على صياصيها ثم تُرسل .وقمارهم في الذهب والفضة والأرَضين والنبات وغير ذلك وإن شغفهم باللعب يدفعهم في أحيان كثيرة للمراهنة على أصابعهم فيضعون إلى جانبهم فأساً مشحوذة النصل ، ويضعون على النار إناء مملوءاً بزيت الجوز أو زيت السمسم . فاذا فاز أحدهما أمسك بيد رفيقه وبتر أصابعها بالفأس فيغمس الخاسر يده فوراً بالزيت الحار لتلتئم جراحها . وكثيراً ما يعاودان لعبهما ولا يفترقان إلا وقد خسرا أصابعهما جميعاً . »

موت ملوك بلاد سرنديب

إذا مات الملك ببلاد سرَنديب صُيّر على عجلة قريباً من الأرض ، وعُلّق في مؤخّرها مستلقياً على ظهره يجرّ شعرُ رأسه التراب عن الأرض . وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه وتنادي : أيها الناس هذا مَلِككم بالأمس قد مَلَككم وكان أمرُه نافذاً فيكم وقد صار إلى ما ترون من ترك الدنيا ، وأخَذ روحه ملاك الموت فلا تغترّوا بالحياة بعده. وكلامٌ نحو هذا ثلاثة أيام . ثم يُهيّأ له الصّندل والكافور والزّعفران فيحرق به ثم يرمى

برماده في الريح . والهند كلّهم يحرقون موتاهم بالنار . وسرنديب آخر الجزائر وهي من بلاد الهند. وربما أحرق الملك فتدخل نساؤه النار فيحترقن معه .

حذاقة أهل الصين

أهل الصين من أحذق خلق الله كفاً بنقش وصناعة وكل عمل لا يتقدّمهم فيه أحد من سائر الأمم . والرجل منهم يصنع بيده ما يقدّر أنّ غيره يعجز عنه فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع . فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة . فان لم يخرج أحدٌ فيه عيباً جازاه وأدخله في جملة صنّاعه ، وإن أخرج فيه عيب اطّرحه ولم يجازه. وإنّ رجلاً منهم صوّر سنبلة عليها عصفور في ثوب حرير لا يشكّ الناظر اليها أنها سنبلة وأن عصفوراً عليها . فبقيت مدة ثم اجتاز بها رجل أحدب فعابها . فأدخل إلى ملك ذلك البلد وحضر صانعها فسُئل الأحدب عن العيب فقال : المتعارف عند الناس جميعاً أنه لا يقع عصفور على سنبلة إلاّ أمالها ، وإن هذا المصوّر صوّر السنبلة قائمة لا ميل لها ، وأثبت العصفور فوقها منتصباً فأخطأ . فصُدّق ولم يُثب الملك صانعها بشيء . »

ملبوس ملوك الهند

« إن ملوك الهند تلبس في آذانهم الأقراط من الجوهر النفيس المركّب في الذهب . وتضع في أعناقهم القلائد النفيسة المشتملة

على فاخر الجوهر الأحمر والأخضر واللؤلؤ ممّا يعظم قيمته . وهي اليوم كنوزهم وذخائرهم وتلبسه قوادهم ووجوههم . والرئيس منهم يركب على عنق رجل منهم وفي يده شيء يُعرف بالجَتْرة وهي مظلة من ريش الطواويس يأخذها بيده فيتقي بها الشمس وأصحابه محدقون به » .

ذكر موتى أهل الصين .

« إذا مات رجل من أهل الصين لم يُدفن إلاّ في اليوم الذي مات في مثله من قابل . يجعلونه في تابوت ويخلّونه في منازلهم ، ويجعلون عليه النّورة . وأمّا الملوك فيجعلونهم في الصبر والكافور سنين . ومن لم يبك ضُرب بالخشب كذلك النساء والرجال . »

المتظلّمون في بلاد الصين

في كل مدينة من مدن الصين شيء يدعى الدّرا ، وهو جرس على رأس ملك تلك المدينة مربوط بخيط مارٍّ على ظهر الطريق للعامّة كافةً . وبين الملك وبينه نحوٌ من فرسخ . فاذا حُرّك الخيط الممدود أدنى حركة تحرك الجرس . فمن كانت له ظلامة حرّك هذا الخيط فيتحرك الجرس منه على رأس الملك فيؤذن له في الدخول حتى يُنهي حاله بنفسه ، ويشرح ظُلامته . وجميع البلاد فيها مثل ذلك . »

خلاصة

من خلال هذه النبذ تتضح لنا أهمية رحلة التاجر سليمان ، ومبلغ

فائدتها لنا في الوقوف على أقدم المعارف والأوصاف الصادقة للطرق التجارية ولبعض العادات والنظم التي كانت سائدة يومذاك في بلاد الهند والصين . فهذه الرحلة تعتبر بحق أول ما كتب في العربية في وصف السواحل الهندية الصينية والطريق الملاحي اليها. وهي مستند من أهم المستندات لفهم المعارف البحرية في القرون الوسطى . عن طريقها دخلت أقاليم الهند والصين في معارف الجغرافية العربية . وبها تأثر الكثيرون من مؤلفي العرب في الجغرافية والتاريخ وعنها نقلوا ، ومن بيانها وبيان ما ألف من أمثالها نشأت تدريجياً تلك الحكايات المضافة إلى السندباد البحري في قصص ألف ليلةوليلة .

تميز صاحبها بأنه بحار تاجر عبر البحر الهندي أكثر من مرة وقدم تقريره « مبنياً على أساس الخبرة الشخصية مع التزام الموضوع وعدم الخروج عنه إلى أحاديث تاريخية وسواها كما اعتدنا أن نراه عند الجغرافيين العرب [1] » وهو أول مؤلف غير صيني يومئ إلى الشاي وذلك حين يذكر أن ملك الصين يحتفظ لنفسه بالدخل الناتج من محاجر الملح ومن نوع العشب يشربه الصينيون في الماء الساخن ويباع منه الشيء الكثير في جميع مدنهم ويسمونه « ساخ » .

وقد روى كذلك في مذكراته أن بصم أصابع اليد عوضاً عن الامضاء كان أمراً مألوفاً في الصين ، مما يجعل لمذكراته هذه قيمة ليست تقتصر على المشتغلين بتاريخ الحضارة العربية فقط وإنما تشمل جميع المشتغلين بتاريخ الحضارة الصينية كذلك .

---

١ — حسين فوزي — حديث السندباد القديم .

رحلة ابن وهب القرشي

هي رحلة إلى الصين قام بها رجل من قريش يعرف بابن وهب من وُلْد هبّار بن الأسود ، كان من ذوي الثروة والجاه . وقد روى المسعودي وأبو زيد السيرافي : أنه خرج من البصرة عندما خرّبها الزّنج ، فوقع إلى سيراف ، وسافر منها يريد بلاد الصين ، ثم نزعت به همته إلى قصد ملك الصين الأكبر ، وهو الملقّب بالبغبور (ابن السماء) فسار إلى حاضرته خُمدان ، وهي على مقدار شهرين من خانفو (كانتون) وسعى إلى مقابلته ، حتى عرف البغبور بأنه من أهل بيت نبوّة العرب ، فاستقبله وسأله عدة أسئلة ، وأراه مجموعة من الرسوم الفنية بينها صور الأنبياء : نوح وموسى وعيسى ومحمد ..

يروي ابن وهب أن الملك هذا كان على شيء من سماحة الطبع ودماثة الخلق . وأنه — على سماحة طبعه ودماثة خلقه — لم يكن ليظهر بين الناس إلاّ مرة واحدة كل عشرة أشهر لئلا يفقد هيبته ويقلّ احترام رعيته له ..

وكان هذا الملك يقطن في خمدان.. وفي هذه العاصمة الجميلة شارع طويل يقسمها قسمين : يقطن الامبراطور والأعيان ورجال الحكومة في الجانب الأيمن المؤلف من القصور الباذخة والحدائق الغناء . ويقطن الجانب الأيسر المتواضع أبناء الطبقات الفقيرة . ويقبل خدم الطبقة الحاكمة في بكرة الصباح إلى الحي الأيسر فيبتاعون منه لوازمهم ويعودون إلى قصورهم قبل أن تشرق

شمس النهار ثم تنقطع الصلة تماماً بين الحيين .

ويقول ابن وهب : إن رجال الحكومة والإدارة والقضاء كانوا يختارون غالباً من الأشخاص الذين جاوزوا سن الأربعين فأفادوا من الحياة خبرة وحنكة وكفاية تؤهلهم للقيام بجلائل الأعمال وبرهنوا على معرفتهم واستقامتهم وحبهم للعدل ، وامتازوا إلى هذا كله بارادة قوية لا ترضى بتضحية الحق الصريح لمصلحة كبار الموظفين والملاكين .

ثم يدهشك ابن وهب حين يروي لك أن التعليم كان إجبارياً في الصين ، وأن الحكومة الصينية كانت تنشئ في الساحات العامة أنصاباً تنقش عليها أسماء الأمراض واسماء الأدوية التي يتسلمها الفقراء مجاناً على حساب الدولة ... وأن الدولة كان عندها نوع من الضمان الاجتماعي تعنى فيه باعالة العاجزين الذين انقطعوا عن العمل لكبر سنهم ... وكان الامبراطور يعمد إلى بيع المواد الغذائية المدخرة في عنابر الحكومة من الشعب بأسعار زهيدة كلما استفحلت الأزمة أو حصلت المجاعة فيعود مستوى المعيشة إلى الهبوط !

رحلة اليعقوبي

اليعقوبي هو أحمد بن وهب بن واضح الاخباري ، الجغرافي الذي ساح في البلدان الاسلامية ، فوصل إلى أرمينية وفارس ومنهما انتقل إلى الهند ، وطاف الجزيرة العربية ، وبلاد الشام فالمغرب إلى الأندلس . ومن ثم عاد بعد كل سياحاته فألف كتابه « البلدان » الذي ضمنه جميع اختباراته .

يعطي اليعقوبي في كتابه وصفاً مفصّلاً لكثير من الأماكن ، ويحاول بين الحين والحين أن يتناول بعض المظاهر الجغرافية الطبيعية ، وأن يلمّ ببعض نواحي الجغرافية البشرية . وأظهر ما يتميز به ولعه بالاحصائيات وبالوصف الطوبوغرافي للمدن ، وفي ما يلي صفحات مختارة مما كتبه اليعقوبي في وصف بلاد المغرب :

ذكر المغرب

من أراد أن يسلك من مصر إلى برقة وأقاصي المغرب نفذ من الفسطاط في الجانب الغربي من النيل حتى يأتي إلى تَرَنْوط ، ثم يسير إلى منزل عُرِف بالمنى وقد أقفر أهله ، ثم إلى الدير الكبير المعروف ببومينا وفيه الكنيسة الموصوفة العجيبة البناء الكثيرة الرخام ثم إلى منزل معروف بذات الحمام وفيه مسجد جامع وهو من عمل كورة الاسكندرية .. ثم يسير إلى خربة القوم ثم الرّمادة وهي أول منازل البربر يسكنها قوم من مزاتة وغيرهم من العجم القُدُم وبها قوم من العرب من جهينة وبني مُدْلِج وأخلاط ... ثم إلى جبّ الرمل وهذه ديار البربر من ماصلة بن لواتة وأخلاط الناس . ثم إلى وادي مخيل وهو منزل كالمدينة به مسجد الجامع وبرك الماء واسواق قائمة وحصن حصين وفيه أخلاط من الناس وأكثرهم البربر من ماصلة وزنارة ومراوة وفطيطة . ومن وادي مخيل إلى مدينة برقة ثلاث مراحل. ومدينة برقة في مرج واسع وتربة حمراء شديدة الحمرة وهي مدينة عليها سور وأبواب حديد وخندق . أمر ببناء السور المتوكل . وشِرْب أهلها ماء الامطار يأتي من

الجبل بأودية إلى برك عظام قد عملتها الخلفاء والأمراء لشرْب أهل المدينة . وحوالي المدينة أرباض لها يسكنها الجند وغير الجند ... وخراج برقة قانون قائم . كان الرشيدقد وجّه مولى له يُعرف ببشّار فوزّع خراج الأرض بأربعة وعشرين ألف دينار على كل ضيعة شيء معلوم سوى الأعشار والصدقات والحوالي ومبلغ الأعشـار والصدقات والحوالي خمسة عشر ألف دينار ربمّازاد وربما نقص والأعشار للمواضع التي لا زيتون بها ولا شجر ولا قرى مقرّاة .. وتسمّى برقة أنْطابُلُس ؛ هذا اسمها القديم افتتحها عمرو بن العاص سنة ثلاث وعشرين صلحاً .. ومن آخر عمل برقة مـن الموضع الذي يقال له توَرْغة إلى اطرابلس ست مراحل..واطرابلس مدينة قديمة جليلة على ساحل البحر عامرة آهلة وأهلها أخلاط من الناس .. ومن أطرابلس إلى أرض نفوسة وهم قوم عجم الألسن إباضية كلهم . لهم رئيس يقال له الياس لا يخرجون عن أمره ، ومنازلهم في جبال اطرابلس في ضياع وقرى ومزارع وعمارات كثيرة . لا يؤدون خراجاً إلى سلطان ، ولا يعطون طاعة إلاّ إلى رئيس لهم بتَاهَرْت وهو رئيس الإباضية يقال له عبدالوهاب بن رستم فارسي . وديار نفوسة متصلة من حد اطرابلس مما يلي القبلة إلى قريب مـن القيروان ، ولهم قبائل كثيرة وبطون شتى . ومن اطرابلس على الجادّة العظمى إلى مدينة يقال لها قَابِس عظيمة على البحر المالح ... ومن قابس إلى مدينة القيروان ، أربع مراحل .. ومدينة القيروان العظمى التي اختطها عُقْبة بن نافع الفهري سنة ستين في خلافـة معاوية وكان عُقْبة الذي افتتح أكثر المغرب ، على أنّ أول من

دخل أرض افريقية وافتتحها عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح في خلافة عثمان بن عفان سنة ستة وثلاثين... وشربهم من ماء المطر. إذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها المؤاجل فمنها شرب السقاة ولهم وادٍ في قبلة المدينة يأتي فيه ماء مالح لأنه في سباخ يستعمله الناس في مـا يحتاجون اليه. ومنازل بني الأغلب على ميلين من المدينة في قصور قد بني عيها عدة حيطان لم تزل منازلهم حتى تحوّل عنها ابراهيم ابن أحمد فنزل بموضع يقال له الرّقّادة على ثمانية أميال من مدينة القيروان وبنى هناك قصراً. وفي مدينة القيروان أخلاط من الناس من قريش ومن سائر بطون العرب من مُضر وربيعة وقحطان. وبها أصناف من العجم من أهل خراسان ومَن كان وردَهم مع عمال بني هاشم من الجند وبها عجم من عجم بلد البربر والروم وأشباه ذلك ... ومن القيروان إلى مدينة تونس وهي على ساحل البحر وبها دار صناعة... وكان على تونس سور من لبن وطين وكان سورها مما يلي البحر بالحجارة فخالف أهلها على زيادة الله بـن الأغلب فحاربهم فلما ظهر عليهم هدم سور المدينة بعد أن قتل فيهم خلقاً كثيراً. ومن ساحل تونس يُعبر إلى جزيرة الأندلس من موضـع يقال له تَنَس بينه وبين تاهَرْت مسيرة أربعة أيام، أو صار إلى تاهرت بطرفي جزيرة الأندلس فيقطع اللجّ في يوم وليلة حتى يصير إلى بلد تُدْمير وهو بلد واسع عامر فيه مدينتان يقال لإحداهمـا العسكر والأخرى لُورْقة في كل واحدة منبر. ثم يخرج منهـا إلى المدينة التي يسكنها المتغلّب على بني أمية وهي مدينة يقال لهـا

قُرْطُبة فيسير ستة أيام من هذا الموضع في قرى متصلة وعمارات ومروج وأودية وأنهار وعيون ومزارع . وقبل أن يصير إلى مدينة قرطبة من تُدْمير يصير إلى مدينة يقال لها البيرة نزلها من كان قدم البلد من جند دمشق من مُضر ، وجُلّهم قيس وأبناء قبائل العرب ، بينها وبين قرطبة مسيرة يومين .. وغربي المدينة التي يقال لها الجزيرة مدينة اسمها اشبيلية على نهر عظيم وهو نهر قرطبة ، دخلها المجوس الذين يقال لهم الروس سنة ٢٢٩ فسبوا ونهبوا وحرقوا وقتلوا .. وغربي اشبيلية مدينة يقال لها لَبْلة نزلها العرب أول ما دُخل البلد مع طارق مولى موسى بن نصير اللخمي ..ومما يلي الشرق من هذه المدينة مدينة ماردة على نهر عظيم وبينها وبين قرطبة أربعة أيام ، وهي تحاذي أرض الشرك ، وجنس منهم يقال له الجلالقة .. ثم يخرج الرجل من قرطبة مشرّقاً إلى مدينة جيّان وبها مَنْ كان من جند قنّسرين والعواصم . وهم أخلاط من العرب من معدّ واليمن . ومن جيّان ذات الشمال إلى مدينة طليطلة وهي مدينة منيعة جليلة ليس في الجزيرة أمنع منها ، وأهلها مخالفون على بني أمية ، وهم أخلاط من العرب والبربر والموالي ولها نهر عظيم يقال له دُوَير . ثم منها مشرّقاً إلى مدينة سَرَقسطة وهي من أعظم ثغر الأندلس على نهر يقال له أبْرُه . ومنها إلى القبلة مدينة يقال لها طرطوشة وهي آخر ثغر الأندلس في الشرق محادّة للأفرنجيين وهي على هذا النهر المنحدر من سرقسطة . ومن طرطوشة لمن أخذ مغرّباً إلى بلد يقال له بَلَنْسية وهو بلد واسع جليل نزله قبائل البربر ولم يعطوا بني أمية الطاعة ولهم نهر عظيم يقال له الشّقْر ومنها إلى بلد تُدْمير البلد الأول فهذه جزيرة الأندلس ومدنها ...

الرّحلات في القرن العاشر للميلاد
الـــرّابع للهجرة

يعتبر هذا القرن من أحفل القرون بأخبار الرحّالة العـــرب وتطوافهم في الأقطار ، ففيه انتهوا — على ما رواه الادريسي — إلى شواطئ أميركة ، وتوغّلوا في بلاد الروس ، وتنقلوا في العـــالم الاسلامي من شرقيّه إلى غربيّه ، وتحدثوا عما لقوا من التجارب والمشاهدات ، خلال رحلاتهم ، في مؤلفات لم يزل بعضها حتى لليوم دليل المؤرخ والجغرافي والباحث ، ومرجعاً من أهم المراجع عن البلدان التي زاروها .

وكانت هذه الرحلات حيناً في سبيل الكشف والمغامرة كرحلة الفتية المغرورين ، وحيناً آخر في سبيل الرزق والمعرفـــة وحب الاستطلاع كرحلة ابن حوقل ، ورحلات المسعودي ، ورحلة بزرك ، ورحلة المقدسي ، وأحياناً أخرى في سبيل الاطـــلاع

بمهمة رسمية كانت السلطة في بغداد تكلفهم بها ، فيسافرون كرسل للخليفة أو كسفراء له فوق العادة بلغة عصرنا . نذكر منهم رسول الخليفة المقتدر إلى بلاد الروس والصقالبة أحمد بن فضلان ، وأبا دلف مسعر بن مهلهل الخزرجي رسول الأمير الساماني نصر بن أحمد إلى الصين ، وابن سليم الأسواني مبعوث الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى ملك النوبة في السودان .

رحلة ابن فضلان

هي رحلة رسمية [١] كان الخليفة المقتدر بالله قد أنفذ فيها من يُسفر بينه وبين الملك ألمش بن بلطوار ملك الصقالبة [٢] الذي أرسل إلى الخليفة يطلب منه أن يبعث اليه « من يفقّهه في الدين ، ويعرّفه شرائع الاسلام ، ويبني له مسجداً ، وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته ، ويسأله بناء حصن يتحصّن فيه من الملوك المخالفين فأجيب إلى ما سأل من ذلك [٣] » وأرسل اليه وفد من قبل الخليفة كان أشبه ببعثة سياسية دينية ، ضمت في ما ضمت أحد الروس ، وآخر من الترك ، وثالثاً من

---

١ – نشرت الرحلة في دمشق منذ سنة تقريباً ، وقد أشرف على نشرها عضو المجمع العلمي العربي الدكتور محمد سامي الدهان الذي نرى من الخير أن ننوه هنا بفضله على نشر الرحلة وعلى طبعها في العربية طبعة مخدومة حافلة بالعناية و التدقيق و التتبع المضني .

٢ – الصقالبة هم من سكان الشمال في اوروبة على أطراف نهر الفولغا ، وعاصمتهم على مقربة من قازان اليوم في خط يوازي مدينة موسكو .

٣ – رسالة ابن فضلان – ص ٦٧–٦٨ .

الصقالبة كان الملك ألمش قد بعث اليه به ليكون في صحبة الوفد وفي إرشاده بالمسالك والدروب . وتهيـأ الوفد للسفر ، وحمل معه الهدايا والأموال وأدوية كان ملك الصقالبة قد كتب يطالبها . وانتدب لرئاسة هذا الوفد عالم من علماء المسلمين هو أحمد بن فضلان الذي اصطحب معه عدداً من الملحقين المعاونين بينهم الفقيه والمعلم والغلام .

وصف الرحلة

رحل الوفد من بغداد في الحادي والعشرين من شهر حزيران (٩٢١م) وظل يصعد شرقاً وشمالاً ماراً باقليم الجبال ، فهمذان، فالري قرب طهران اليوم، وعبر نهر جيحون فبلغ إلى بخارى ، ثم أوغل في البراري والبوادي حتى وصل إلى الفولغا ، عند ملك الصقالبة يوم الاحد في الحادي عشر من أيار سنة ٩٢٢ م ، فاستغرقت رحلته أحد عشر شهراً في الذهاب، لاقى خلالها مصاعب كثيرة وأهوالاً مذهلة ، وصفها ابن فضلان وصفاً جميلاً بارعاً يضعه في الصف الأول من الرحالة الأدباء. وفي ما يلي نبذ من أوصافه يذكر فيها البرد وشدته ، ويصف مراسم استقبال ملك الصقالبة له ، وما رأى من عجائب في بلده ، وينتهي إلى الروسية فيصور عادات أهلها وأخلاقهم وتقاليدهم في الحياة وصف الواقف بنفسه على الأمر والمشاهد له بعينه :

البرد في الجرجانية

« ولقد رأيت لهواء بردها بأن السوق بها والشوارع لتخلو حتى

يطوف الانسان أكثر الشوارع والأسواق ، فلا يجد أحداً ولا يستقبله إنسان . ولقد كنت أخرج من الحمام ، فاذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها إلى النار .

ولقد كنت أنام في بيت جوف بيت ، وفيه قبة لبود تركية وأنا مدثّر بالأكسية والفراء فربما التصق خدي على المخدة.

ولقد رأيت الأرض تنشق فيها أودية عظام لشدة البرد ، وأن الشجرة العظيمة العادية لتنفلق نصفين لذلك . »

عند ملك الصقالبة

فلما كنا من ملك الصقالبة وهو الذي قصدنا له وجّه لاستقبالنا الملوك الأربعة الذين تحت يده وإخوته وأولاده، فاستقبلونا ومعهم الخبز واللحم والجاورس [1] وساروا معنا . فلما صرنا منه على فرسخين تلقانا هو بنفسه ، فلما رآنا نزل فخرّ ساجداً شكراً لله وكان في كمّه دراهم فنثرها علينا ، ونصب لنا قباباً فنزلناها . وأقمنا في القباب حتى جمع الملوك والقواد وأهل بلده ليسمعوا قراءة الكتاب .

فلما اجتمعوا نشرنا المِطْرَدَيْن (أي الرايتين أو اللوائين) اللذين كانا معنا ، وأسرجنا الدابّة بالسّرج الموجّه اليه ، وألبسناه السواد (شعار العباسيين) وعممناه ، وأخرجت كتاب الخليفة .

---

١ – الجاورس : حب معروف يؤكل مثل الدهن وهو يشبه بالارز ويدر البول ويمسك الطبيعة وذلك كما جاء في التاج .

وقلت له : « لا يجوز أن نجلس والكتاب يقرأ » ، فقام على قدميه هو ومن حضر من وجوه أهل مملكته ، وهو رجل بدين بطين جداً .

وبدأت فقرأت صدر الكتاب . فلما بلغت منه : « سلامٌ عليك فاني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو » ، قلت : « ردّ على أمير المؤمنين السلام » فردّ ، وردّوا جميعاً بأسرهم ، ولم يزل الترجمان يترجم لنا حرفاً حرفاً ، فلما استتممنا قراءته كبّروا تكبيرة ارتجّت لها الأرض ، ونثروا عليه الدراهم الكثيرة . ثم أخرجت الهدايا من الطّيب والثياب واللؤلؤ له ولامرأته. فلم أزل أعرض عليه وعليها شيئاً شيئاً حتى فرغنا من ذلك. ثم خلعت على امرأته بحضرة الناس ، وكانت جالسة إلى جنبه ، وهذه سنّتهم وزيّهم ، فلما خلعت عليها نثر النساء عليها الدراهم ، وانصرفنا .

فلما كان بعد ساعة وجّه الينا فدخلنا اليه ، وهو في قبته ، والملوك عن يمينه . وأمرنا أن نجلس عن يساره ، وإذا أولاده جلوس بين يديه ، وهو وحده على سرير مغشّى بالديباج الرومي ، فدعا بالمائدة فقدّمت وعليها اللحم المشوي وحده . فابتدأ هو فأخذ سكيناً وقطع لقمة وأكلها ، وثانية وثالثة ، ثم احتزّ قطعة ودفعها إلى سوسن الرسول . فلما تناولها جاءته مائدة صغيرة فجعلت بين يديه. وكذلك الرسم ، لا يمد أحد يده إلى الأكل حتى يناول الملك لقمة ، فساعة يتناولها قد جاءته مائدة . ثم ناولني فجاءتني مائدة ثم قطع قطعة وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة ، ثم ناول الملك

الثاني فجاءته مائدة ، ثم ناول الملك الرابع فجاءته مائدة ، ثم ناول الأولاد فجاءتهم الموائد .

وأكلنا كل واحد من مائدته لا يشركه فيها أحد ، ولا يتناول من مائدة غيره شيئاً ، فإذا فرغ من الطعام ، حمل كل واحد منهم ما بقي على مائدته إلى منزله .

فلما أكلنا دعا بشراب العسل وهم يسمّونه « السجو » ليومه وليلته فشرب قدحاً ، ثم قام قائماً فقال : « هذا سروري بمولاي أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — » وقام الملوك الأربعة وأولاده لقيامه ، وقمنا نحن أيضاً حتى إذا فعل ذلك ثلاث مرات ، ثم انصرفنا من عنده . »

عجائب وغرائب

« ورأيتهم (أي أمة الصقالبة) يتبرّكون بعُواء الكلاب جداً ويفرحون به ، ويقولون : سنة خصب وبركة وسلامة .. ورأيت الحيات عندهم كثيرة حتى أن الغصن من الشجرة لتلتفّ عليه العشرة منها والأكثر ، ولا يقتلونها ولا تؤذيهم..ورأيت لهم تفاحاً أخضر شديد الخضرة ، وأشدّ حموضة من خلّ الخمر ، تأكله الجواري فيسمنّ عليه . ولم أر في بلدهم أكثر من شجر البندق ، لقد رأيت منه غياضاً تكون الغيضة (مجتمع الشجر) أربعين فرسخاً في مثلها . ورأيت لهم شجراً لا أدري ما هو ، مفرط الطول، وساقه أجرد من الورق ، ورؤوسه كرؤوس النخل له خوص (ورق) إلاّ أنه مجتمع ، يجيئون إلى موضع يعرفونه من ساقه ، فيثقبونه ،

ويجعلون تحته إناء فتجري اليه من ذلك الثقب ماء أطيب من العسل إن أكثر الانسان منه أسكره كما يسكر الخمر . »

وأكثر أكلهم الجاورس ولحم الدابة ، على أن الحنطة والشعير كثير . وكل من زرع شيئاً أخذه لنفسه، ليس للملك فيه حق غير أنهم يؤدون اليه في كل سنة من كل بيت جلد سمّور [1] . وإذا أمر سرية بالغارة على بعض البلدان فغنمت كان له معهم حصة . ولا بدّ لكل من يعترس أو يدعو دعوة من زلة [2] للملك على قدر الوليمة وساخرخ [3] من نبيذ العسل ، وحنطة ردية ، لأن أرضهم سوداء منتنة .

وليس لهم مواضع يجمعون فيها طعامهم ، ولكنهم يحفرون في الأرض آباراً ، ويجعلون الطعام فيها، فليس يمضي عليه إلا أيام يسيرة حتى يتغير ويريح فلا يُنتفع به .

وليس لهم زيت ولا شيرج (دهن السمسم) ولا دهن بتة . وإنما يقيمون مقام هذه الأدهان دهن السمك، فكل شيء يستعملونه فيه يكون زفراً . ويعملون من الشعير حساء يُحسونه الجواري والغلمان . وربما طبخوا الشعير باللحم ، فأكل الموالي اللحم وأطعموا الجواري الشعير إلا أن يكون رأس تيس فيطعم من اللحم .

وكلهم يلبسون القلانس ، فاذا ركب الملك ركب وحده بغير غلام ، ولا أحد يكون معه . فاذا اجتاز في السوق لم يبق أحد إلاّ

١ – حيوان بري يشبه السنور يتخذ من جلده فراء ثمينة .

٢ – الزلة : ما تحمله من مائدة صديقك أو قريبك .

٣ – الساخرخ : مقياس للسوائل .

قام وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت إبطه فاذا جاوزهم ردّوا قلانسهم إلى رؤوسهم . وكذلك كل من يدخل إلى الملك من صغير وكبير حتى أولاده وإخوته ساعة ينظرون اليه قد أخذوا قلانسهم فجعلوها تحت آباطهم ، ثم أوموا اليه برؤوسهم ،وجلسوا ثم قاموا حتى يأمرهم بالجلوس . وكل من يجلس بين يديه فانما يجلس باركاً ولا يُخرج قلنسوته ، ولا يظهرها حتى يخرج من بين يديه فيلبسها عند ذلك .

عند الروسية

ورأيت الروسية وقد وافوا في تجاراتهم ، ونزلوا على نهر إتل فلم أر أتمّ أبداناً منهم كأنهم النخل ، شقر حمر لا يلبسون القراطق [1] ولا الخفاتين [2] ، ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقّيه ، ويخرج إحدى يديه منه . ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسكين لا يفارقه جميع ما ذكرنا .

وسيوفهم صفائح مشطّبة افرنجية ومن حدّ ظفر الواحد منهم إلى عنقه مخضر شجر وصور وغير ذلك .

وكل امرأة منهم فعلى ثديها حقّة مشدودة إما من حديد وإما من فضة ، وإما من نحاس ، وإما من ذهب ، على قدر مال

١ – القراطق : جمع قرطق، وهو قميص أو معطف قصير يصل إلى منتصف الجسم .

٢ – الخفاتين : جمع خفتان استعمله القدماء بما نستعمل اليوم القفطان أي الجاكيت وهو صدرية تحت الثياب .

زوجها ومقداره . وفي كل حقة حلقة فيها سكين مشدودة على الثدي أيضاً . وفي أعناقهن أطواق من ذهب وفضة ، لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم ، صاغ لأمرأته طوقاً ، وإن ملك عشرين ألفاً صاغ لها طوقين ، وكذلك كل عشرة آلاف يزدادها يزداد طوقاً لامرأته ، فربما كان في عنق الواحدة منهن الأطواق الكثيرة .

وأجلّ الحلي عندهم الخرز الأخضر من الخزف الذي يكون على السفن يبالغون فيه ، ويشترون الخرزة بدرهم ، وينظمونه عقوداً لنسائهم . وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بول ، ولا يغتسلون من جنابة ، ولا يغسلون أيديهم من الطعام ، بل هم كالحمير الضالّة ، يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بإتل وهو نهر كبير ويبنون على شطه بيوتاً كباراً من الخشب . »

حرق الموتى عند الروس

« وكان يقال لي انهم يفعلون برؤسائهم أموراً أقلّها الحرق ، فكنت أحب أن أقف على ذلك ، حتى بلغني موت رجل جليل منهم ، فجعلوه في قبره ، وسقفوا عليه عشرة أيام ، حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها ، وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة ويجعلونه فيها ويحرقونها . والغني يجمعون ماله ، ويقسمونه ثلاثة أثلاث ، فثلث لأهله ، وثلث يقطعون له به ثياباً ، وثلث ينبذون به نبيذاً ، يشربونه يوم تقتل جاريته ، وتحرق مع مولاها . »

« وذلك أن الرئيس يسأل أهله وجواريه وغلمانه من يموت معه يوم حرقه ، فتنتدب له جارية أو يتقدم غلام ، وأكثر من يتقدم لهذه التضحية الجواري . فيصنعون لها ثياباً عظيمة ، وتشرب كل يومها ، وتغني فرحة مستبشرة لأنها ستدخل الفردوس . فإذا انتهى القوم من إعداد الحفل ، وجهزوا السفينة والقبة والسرير ، وأعدوا الحطب ، أخرجوا الميت وألبسوه الثياب المذهبة ، وسجّوه في القبة على السفينة ، وشربت الجارية وودعت صواحباتها ، وحان دخولها إلى سيدها استعداداً في الصعود إلى الجنان ، ثم أضجعوها إلى جانب مولاها ، وأمسك اثنان رجليها ، واثنان يديها ، وجعلت العجوز التي تسمّى ملك الموت في عنقها حبلاً مخالفاً ، ودفعته إلى اثنين يجذبانه . وأقبلت ومعها خنجر عريض النصل فأقبلت تدخله بين أضلاعها موضعاً موضعاً ، وتخرجه . والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت . ثم وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ خشباً فأشعل فيه النار وأحرق السفينة بمن فيها ، حتى تصبح رماداً . فيضع القوم مكانها خشبة يكتبون عليها اسم الرجل واسم ملك الروس وينصرفون إلى أمورهم . »

أهمية رحلة ابن فضلان

لرحلة ابن فضلان هذه أهمية بالغة في تاريخ الرحلات ، فهي تعتبر بحق أول ما يعتمد عليه في وصف تلك النواحي المجهولة من تاريخ روسية والبلغار في عهودهما القديمة ، إذ أن المؤلف يحرص فيها أن يرسم صورة واضحة لشعوب تلك المنقطة من آسية

الوسطى ، ويصور عادات أهلها وأخلاقهم وتقاليدهم في الحياة تصويراً دقيقاً لا نراه في مصدر عربي أو غربي غيرها . لذلك عني بها الروس ، وترجموها إلى الروسية ، ونشروا عنها الكثير من الدراسات ، وجعلوها في عداد مصادرهم الثمينة النادرة . ولم ينس فضلها العرب فعنها أخذ الكثيرون من مؤرخين وجغرافيين ، وبها استشهدوا ، ولم تزل حتى اليوم « كنزاً وذخيرة من ذخائرنا العظيمة ، تفيد الجيل العربي وتقفه على ما كان من صلات في ما فعل أجدادنا في نصرة أوروبة الشرقية في قديم الزمان ، وما قام بيننا وبين الروس والبلغار ، منذ ألف عام من عهود ومعاهدات تشبه ما يقع اليوم ، حين انعكست الآية فوقفوا في قمة الحضارة الانسانية ونحن ما نزال في أول الطريق [1] »

رحلات المسعودي

المسعودي أديب مؤرخ وجغرافي رحالة . نشأ في بغداد ، وتطلب المعرفة فرحل في سبيلها يجوب المدن والاقطار ، ويجمع في أسفاره بين البراري والبحار . وكانت رحلته الأولى في سنة احدى وعشرين وتسعمئة ميلادية ذهب فيها إلى فارس وكرمان [2] ، واستقر زمناً في إصطخر (مدينة في ايران) ثم واصل رحلته في السنة التالية إلى الهند فزار المنصورة وملتان ، ثم كنباية فصيمور فسرنديب ، وركب من هناك إلى بحر الصين ، وجوّل في البحر الهندي إلى

١ — الدكتور سامي الدهان — مجلة العربي — العدد ٣ — السنة ١٩٥٩ .

٢ — كرمان : ولاية على ساحل فارس .

مدغشقر ، ثم إلى عمان . وفي سنة ست وعشرين وتسعمئة قام المسعودي برحلته الثانية فذهب إلى ما وراء أذربيجان وجرجان ، ثم ارتد إلى الشام وفلسطين . وفي سنة ٩٤٢ م عاد إلى انطاكية والثغور الشامية ، واتخذ بعدئذ مصر مقراً له فنزل الفسطاط سنة ٩٥٦ م وفيها ألّف ودوّن ما شهد وسمع أثناء رحلاته . وقد سلم لنا مما ألّفه المسعودي كتابان : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، وهو كتاب في الجغرافية والتاريخ ضمنه المسعودي ما كان ذائعاً من العلم في أيامه ، وما خبره بنفسه وما اختزنه من تجارب ومشاهدات في رحلاته . وكتاب آخر سمّاه « التنبيه والاشراف » وجعله أشبه بدليل مختصر لمؤلفاته الباقية .

مختارات من رحلاته

أنهار الصين وجبالها

وللصين أنهار كبار ، مثل دجلة والفرات ، تجري من بلاد الترك ، والتبت ، والصغْد [1] وهم بين بخارى وسمرقند . وهنالك جبال النوشادر ، فاذا كان الصيف رأيت في الليل نيراناً قد ارتفعت من تلك الجبال ، من نحو مئة فرسخ ، وبالنهار يظهر منها الدخان لغلبة شعاع الشمس وضوئها وضوء النهار ، ومن هناك يحمل النوشادر [2] فاذا كان أول الشتاء ، فمن أراد من بلاد خراسان أن

---

١ – الصغد : كورة كبيرة قصبتها سمرقند . وهي قرى متصلة خلال أشجار وبساتين من سمرقند إلى قريب من بخارى .

٢ – النوشادر : لفظة فارسية معربة ، وهي مادة صلبة بيضاء حامضة الطعم –

يسلك إلى بلاد الصين صار إلى ما هنالك .

وهنالك واد بين تلك الجبال طوله أربعون ميلاً أو خمسون ميلاً فيأتي إلى أناس هنالك ، على فم الوادي ، فيرغّبهم في الأجرة النفيسة فيحملون ما معه على اكتافهم ، وبأيديهم العصي يضربون جنبيه ، خوفاً أن يُثلج ويقف فيموت من كرب الوادي ، وهو يُحضر أمامهم حتى يخرجوا إلى ذلك الرأس من الوادي ، وهنالك غابات ومستنقعات للماء فيطرحون أنفسهم في ذلك الماء ، لما قد نالهم من شدة الكرب ، وحرّ النوشادر . ولا يسلك ذلك الطريق شيء من البهائم ، لأن النوشادر يلتهب ناراً في الصيف ، فلا يسلك ذلك الوادي داعٍ ولا مجيب ، فاذا كان الشتاء وكثرت الثلوج والأنواء ، وقع ذلك على الموضع ، فأطفأ حرّ النوشادر ولهيبه فيسلك الناس حينئذ ذلك الوادي ، والبهائم لا صبر لها على ما ذكرناه من حرّه . وكذلك من ورد من بلاد الصين فُعل به من الضرب ما فُعل بالمارّ ، والمسافة بين بلاد خراسان ، على الموضع الذي ذكرناه إلى بلاد الصين ، نحو من اربعين يوماً ، بين عامرٍ وغامرٍ ودَهاسٍ ورمال . وفي غير هذا الطريق مما يسلكه البهائم نحو من أربعة أشهر ، إلاّ أنّ ذلك في خفارات أنواع من الترك . وقد رأيت ببلخ شيخاً جميلاً ، ذا رأي وفهم ، وقد دخل الصين مراراً كثيرة ولم يركب البحر قط . وقد رأيت عدة من الناس ممن سلك من بلاد الصغد على جبال النوشادر إلى أرض التبّت والصين

منها معدنية ، ومنها مصنوعة .وأجودها المعروفة بالبنكاني وهو صاف بللوري.
والنوشادر هو من الأملاح التي يدخلها الامونياك أي تركيب الأزوت بالهدروجين.

ببلاد خراسان . وبلاد الهند متصلة ببلاد خراسان والسند مما يلي المنصورة والمولتان . والقوافل متصلة من السند إلى خراسان ، وكذلك إلى الهند ، إلى أن تتصل هذه الديار ببلاد زابلستان .

بلاد التبّت

لبلاد التبّت خواصّ عجيبة في هوائهاوسهلها ومائها وجبلها ، ولا يزال الانسان أبداً بها ضاحكاً ، فرحاً مسروراً ، لا تعرض له الأحزان ، ولا الغموم ، ولا الأفكار . ولا تحصى عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وهوائها وأنهارها . وهي بلاد تقوى فيها طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره ، ولا يكاد يُرى في هذا البلد شيخ حزين ، ولا عجوز ، بل الطرب في الشيوخ والكهول والشباب والاحداث عامّ . وفي أهلها رقة طبع وبشاشة وأريحية تبعث على كثرة استعمال الملاهي ، وأنواع إيقاع الرقص ، حتى أن الميت إذا مات ، لا يكاد يداخل أهله عليه كثير من الحزن ، مما يلحق غيرهم من سائر الناس عند فقد محبوب أو فوت مطلوب . ولهم تحنّن كثير من بعضهم على بعض ، والتتيّم فيهم عام ، وكذلك يظهر في بلادهم ، وهذه البلاد تسمّى بمن ثبت فيها ، ورُتّب من رجال حمير ، فقيل : « تُبّتٌ لثبوتهم ، وقيل لمعانٍ غير ذلك والأشهر ما وصفنا ... » . وبلاد التبّت متاخمة لبلاد الصين وأرضها من إحدى الجهات ، ولأرض الهند وخراسان ولمفاوز الترك . ولهم مدن وعمائر كثيرة ، ذوات منعة وقوة ، وقد كانوا في قديم

الزمان يسمون ملوكهم تبّعاً لاتباع اسم تبّع ملك اليمن ، ثم إن الدهر ضرب ضرباته فتغيرت لغاتهم عن الحميرية ، وحالت إلى لغة تلك البلاد ممن جاورهم من الأمم فسموا ملوكهم بخاقان . وفي بلادهم الأرض التي بها ظباء المسك التبتي ، الذي يفضل على الصيني بجهتين : إحداهما أن ظباء التبت ترعى سنبل الطيب وأنواع الأفاويه ، وظباء الصين ترعى الحشيش دون ما ذكرنا من أنواع حشائش الطيب التي ترعاها التبّتية ،والجهة الاخرى أنّ أهل التبّت لا يتعرضون إلى إخراج المسك من نوافجه [١] ، ويتركونه على ما هو به ، وأهل الصين يخرجونه من النوافج ويلحقه الغش بالدم وغيره من أنواع الغش ، وإن عَدِمَ من أهل الصين الغشّ في مسكهم ، وأودع براني الزّجاج ، وأُحكم ، وأورد إلى بلاد الاسلام من عمان وفارس والعراق ، وغيرها من الامصار ، كان كالتبتي ، وأجود المسك وأطيبه ما خرج من الظباء بعد بلوغه النهاية في النضج .

بعض عادات الهند

والهند لا تملّك الملك عليها حتى يبلغ من عمره اربعين سنة . ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامّهم إلاّ في كل برهة من الزمان معلومة ويكون ظهورها للنظر في أمور الرعية لأن في نظر العوام عندها إلى ملوكها خرقاً لهيبتها ، واستخفافاً بحقها ، والرياسات عند هؤلاء لا تجوز إلا بالتخيّر ووضع الأشياء مواضعها من مراتب

١ — النوافج : جمع نافجة ، وعاء المسك أي الجلدة التي يجتمع فيها .

السياسة .

ورأيت في بلاد سرنديب – وهي جزيرة من جزائر البحر – أن الملك من ملوكهم إذا مات صُيّر على عجلة قريبة من الأرض، صغيرة البكَرة، مُعدّة لهذا المعنى ، وشَعرُه ينجرّ على الأرض ، وامرأةٌ بيدها مكنَسة تحثو (تصب) التراب على رأسه وتنادي : « ايها الناس ، هذا ملككم بالامس ، قد ملككم وجاز فيكم حكمه وقد صار أمره إلى ما ترون من ترك الدنيا ، وقبض روحَهُ ملكُ الموت ، والحي القديم الذي لا يموت ، فلا تغترّوا بالحياة بعده . » . وتقول كلاماً هذا معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالم . ويُطاف به كذلك في جميع شوارع المدينة ، ثم يُفصل اربع قطع ، وقد هيئ له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيوب ، فيحرق بالنار ويذر رماده في الرياح .وكذلك فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم ، لغرض يذكرونه ، ونهج يتيممونه في المستقبل من الزمان . والمُلك مقصورٌ على أهل بيت لا ينتقل عنهم إلى غيرهم ، وكذلك بيت الوزراء والقضاة وسائر أهل المراتب لا تغير ولا تبدل .

والهند تمنع من شرب الشراب ، ويعنّفون شاربه ، لا على طريق التدين ، ولكن تنزّهاً عن ان يوردوا على عقولهم ما يُغشيها ، ويزيلها عما وضعت له فيهم . وإذا صح عندهم عن ملك من ملوكهم شُربُه استحق الخلع عن ملكه ، إذ كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط (فساد العقل) ، وربما يسمعون السماع والملاهي ، ولهم ضروبٌ من الآلات مطربةٌ تفعل في الناس

أفعالاً مرتبة من ضحك وبكاء . وربما يسقون الجواري فيطربن بحضرتهم فتطرب الرجال لطرب الجواري .

تعذيب الهنود أنفسهم

ولقد حضرت ببلاد صيمور ، من بلاد الهند ، من اللارْمن ، مملكة البلهرا ، وذلك في سنة أربع وثلاثمئة (٩١٦ م) ، والملك يومئذ على صيمور ، المعروف بجاجّ ، وبها يومئذمن المسلمين نحو من عشرة آلاف قاطنين بياسرة وسيرافيين ، وبصريين وبغداديين وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تأهّل (تزوج) وقطن في تلك للبلاد ، وفيهم خلق من وجوه التجار مثل موسى واسحاق الصيدابوري. وعلى الهيرمة يومئذ أبو سعيد معروف بن زكريا ، وتفسير الهيرمة يراد به رئاسة يتولاّها رجل منهم عظيم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفةً اليه . ومعنى قولهم البياسرة يراد به من ولدوا من المسلمين بأرض الهند ، يدعون بهذا الاسم ، واحدهم بَيسر ، وجمعهم بياسرة . فرأيت بعض فتيانهم ، وقد طاف على ما وصفنا في أسواقهم ، فلما دنا من النار أخذ الخنجر ، فوضعه على فؤاده فشقّه ، ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده ، فجذب منها قطعة ، وهو يتكلم ، فقطعها بالخنجر ، فدفعها إلى بعض إخوانه تهاوناً بالموت ، ولذة بالنقلة ، ثم هوى بنفسه في النار . وإذا مات الملك من ملوكهم ، وقتل نفسه ، حرق خلق من الناس أنفسهم لموته ، ويدعون هؤلاء البلالحْرية ، واحدهم بلالحري ، وتفسير ذلك المصادق لمن يموت ، فيموت بموته ، ويحيا بحياته . وللهند

أخبار عجيبة تجزع من سماعها النفس، من أنواع الآلام والمقاتل، التي تألم عند ذكرهـا الأبدان، ويصفرّ من ذكرها الانسان.

قيمة رحلات المسعودي

رحلات المسعودي هي رحلات علمية ابتغاها المسعودي ليدعم بها دراساته في الجغرافية والتاريخ، وقد رأى أنه [1] «ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نُمي اليه عن إقليمه، كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه على تقاذف الأسفار» فلذلك ارتحل «يستعلم بدائع الأمم بالمشاهدة، ويعرف خواص اقاليمهـا بالمعاينة» وكان أن ظفر بعدها بكثير من الحقائق، وطائفة من المعلومات التي زودته بها أسفاره، واكتسبت بها ثقة أخباره، إلاّ أن الذي يؤخذ على المسعودي [2] أنه كان كالغالبية من أهل عصره ضعيف ملكة النقد والمقارنة، قوي ملكة جمع المعارف وحشدها دون التمييز بين غثها وثمينها، يعني بالتسجيل أكثر مما يعنى بتحقيق ما يسجل، ولذلك أثبت بين تلك الحقائق كثيراً مـن الخرافات، وفاته نقدها وتمحيصها، فراح يفسرها تفسير أصحاب السير والقصص ... وإننا على الرغم من إقرارنا بصوابية هذه المآخذ لا نرى أن يُغمط حق الرجل أو يُقدح بقيمة ما في كتبه مـن تاريـخ وجغرافية وعلوم، فالمسعودي رغم أنه من أصحـاب الجغرافية الوصفية لا تخلو كتاباته من شرح وتفسير لكثير مـن

١ – المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ١ ص ١٢.
٢ – حسين فوزي، حديث السندباد القديم، ص ٨٩.

ظاهرات الجغرافية الطبيعية ، فهو يعتقد بكروية الأرض ، وبالغلاف الغازي المحيط بهـا ، ويصف الرياح الموسمية في المحيط الهندي والبحر العربي ،ويذكر المواقيت الصالحة للملاحة في تلك المياه معتمدة على الرياح الموسمية ، ويستطرد فيذكر أن البحارة المسلمين في استطاعتهم بعلامات خاصة اكتسبوها بالمران أن يعينوا هبوب الرياح وطبيعتها ، كما أنه كذلك يشرح حركتي المدّ والجزر شرحاً علمياً ، ويناقش موضوع نشأة البحار وامتدادها وملوحتها ، ويحلل دورة التعرية النهرية ، ولا يغفل الاشارة إلى التبخر والتكاثف والاشعاع وغير ذلك من موضوعات الجغرافية الطبيعية ، ويبدي تفطنـاً لعـامل المحيط الجغرافي وأثره في التاريخ .

رحلة بزرك بن شهريار

بزرك بن شهريار هو رجل فارسي ،من مدينة رامَ هَرْمُز ، كان يشتغل بملاحة السفن في البصرة وسيراف ومرفـأ عمان . وقد خطر له أن يجمع طائفة من قصص الملاحين العرب فوق مـتن المحيطين الهندي والهادي ويرسلها في كتاب ، فحصل على مجموعة من هذه القصص وسجّلها في مؤلف له بالعربية يدعى «عجائب الهند بره وبحره وجزائره » . وقد كنا — وايم الحق — هنا نؤثر أن نغفل ذكر بزرك هذا في كتابنا ، لأنه ليس ينقل لنا ذكرياته بل ذكريات غيره ، ولكن القيمة الأدبية التي هي لبزرك هـذا في تاريخ الرحلات العربية ، اضطرتنا أن نقف عنده لأنه يلقي لنا

في كتابه أضواء على رحلتين قام بهما ربّانان مشهوران اسم الأول عبهرة ، واسم الثاني اسماعيلويه . يذكر بزرك أن عبهرة هذا كان أول من قام برحلات منتظمة إلى الصين في أواخر القرن الثامن للميلاد وقد سافر اليها سبع مرات ، ولم يكن سلك قبله إلى الصين إلاّ مَنْ غرّر [1] ، ولم يُسمع أن أحداً سلكه وسلم وعاد قط إلا عبهرة فانه جلس في مطياله (مركبه) وأخذ قربة ماء فمكث في البحر أياماً .. وعبهرة هذا له طرائق وأخبار في البحر يروي بزرك أطرفها [2] وهي تدل على دقة معارف أولئك النواخذة الشجعان الذين فتحوا طريق التجارة بين بحر فارس وبحر الصين منذ القرن السادس الميلادي . وأما الثاني فهو ربان يروي بزرك قصة رحلته إلى سُفالة [3] وهي رحلة اكتنفت بالأخطار إذ أن إسماعيلويه غادر عمان إلى قَنْبُله (مدغشقر) في تلك السنة ، ولكن دفعت عاصفة سفينة إلى سفالة ، فثار الخوف في قلبه وقلوب رجاله ، لأن أهلها كانوا يأكلون الناس . ولكنهم أخذوا إلى البر ، وأرغموا على البقاء والتجارة بضعة شهور . وأخيراً سُمح لهم بالعودة إلى سفينتهم فصحبهم

١–يروي صاحب كتاب « الملاحة والعرب في المحيط الهندي ،ص ١٩٤–١٩٥ » ، أن الكتابات الاباضية المتأخرة تسجل لنا نقلا عن مصادر وثيقة رحلة تاجر أباضي إلى الصين حوالى منتصف القرن الثامن للميلاد ، وكان يدعى أبا عبيدة ، ويرجع أصله إلى عمان ، وقد اشترى في الصين بعض خشب الند . كما ان احد المصادر يروي كذلك أن تاجراً اباضياً آخر زار الصين في أواخر هذا القرن هو النصر بن ميمون البصري (المرجع نفسه ص ٢٠٠) .

٢ – عجائب الهند ، ص ٨٥ – ٩٥ .

٣ – سفالة : مقاطعة ومدينة في افريقية الشرقية جنوبي موزنبيق .

ملك تلك الأرجاء هو وسبعة من غلمانه في دونيج (زورق) ، وصعدوا إلى السفينة ، فلما حصلوا في المركب شال البانانية الشُرُع ورفعوا الأناجر (المراسي) وعادوا بهم مأسورين ، فحاول الملك الفرار عبثاً ، ووضع هو وأصحابه في جملة الرقيق وهم نحو مئتين ، وبيع الجميع في عمان .

هاتان الرحلتان رواهما بزرك في كتابه ، وروى كذلك طائفة من حكايات البحريين والسفّار إلى بلاد الهند والزّابج والصّنف والصين ، وكلها لعمري حكايات ترسم صورة لحياة الملاّحين العرب على ظهر البحر الشرقي الكبير ، وفوق شواطئه وجزائره ، تساعدنا على فهم كثير مما ورد في كتب الجغرافية العربية ، كما أنها بما احتوت عليه من قصص بحرية غريبة تشبه قصص السندباد في رحلاته البحرية تعيننا على أن نضع إصبعنا على مصادر هذه القصص البحرية في كتاب ألف ليلة وليلة ، وتحملنا على الجزم بأن مؤلف السندباد قد اطلع على أشتات المعارف الجغرافية العربية ، وحكايات الرحّالين المتداولة في عصره ، وأنشأ منها هذا القصص الرائع الخلاب الذي لا نشك بأنه قد نقل قسماً منه بنصه من كتب الجغرافية العربية ومذكرات الرحّالين ومجموعات العجائب التي انحدرت إلينا من القرون الوسطى . وها إننا في ختام حديثنا عن بزرك نضع أمام القارئ نصاً يشبه أن يكون قصة الغول الأسود في رحلة السندباد الثالثة ، وقصة المتوحشين في الرحلة الرابعة ، ونظير ما جاء في النشيد التاسع من الاوديسة عن العمالقة العور ، تاركين القارئ يستنتج ما شاء ويدرس ويقارن .

قصة الغول الاسود

قال بزرك بن شهريار الناخداه في عجائب الهند :

« وسمعت من حكى أن رجلاً من أهل البصرة خرج منها قبل الزابج أو ما قاربه ... فتخلص ووقع إلى جزيرة . قال : فصعدت تلك الجزيرة وتعلقت بشجرة كبيرة فواريت شخصي بين أوراقها وبت ليلتي ، فلما أصبحت رأيت غنماً قد أقبلت نحو مئتي رأس في قدر العجاجيل ، يسوقها رجل لم أر مثله ، عظيم الخلقة ، طويل عريض ، بشع المنظر ، ومعه عصاة يسوق بها الغنم . فقعد على ساحل البحر ساعة ، والغنم ترعى بين ذلك الشجر . ثم طرح نفسه على وجهه فنام إلى حدود نصف النهار . ثم قام فرمى نفسه في الماء واغتسل ، وخرج وهو مع ذلك عريان ليس عليه إلاّ ورقة تشبه ورق الموز إلاّ أنها أعرض منه .. ثم عمد إلى شاة فقبض رجلها وأخذ ضرعها في فمه ومصّه إلى أن شرب ما فيه . ثم فعل ذلك بعدة من الغنم ، ثم استلقى في ظل شجرة . ففي تأمله الشجرة وقع طائر على الشجرة التي أنا فيها . فأخذ حجراً ثقيلاً وحذف الطائر فلم يكذب ، فسقط الطائر بين أغصان الشجر بالقرب مني ، فأوما إليّ بيده أن أنزل . فلخوفي منه بادرت وأنا ضعيف ميت خوفاً وجوعاً . وأخذ الطائر ورمى به إلى الأرض ، فقدرت أن وزن الطائر نحو مئة رطل . ثم نتف ريشه وهو حي يضطرب ، وأخذ حجراً قدر عشرين رطلاً فضرب به رأسه ، وتركه حتى مات ، ثم لم يزل يضربه بالحجر حتى فسخه ، ثم جعل

ينهشه بأسنانه ويأكل كما تأكل السباع حتى أتى عليه ولم يبق إلا عظامه . فلما اصفرّت الشمس قام وأخذ العصا وساق الغنم بعد أن صاح صيحة أفزعتني . فاجتمعت الغنم إلى موضع واحد ، وأوردهم خليجاً في الجزيرة فيه ماء عذب ، فسقاهم ، وشرب وشربت وقد ايقنت بالموت . ثم ساقنا جميعاً حتى جئنا موضعاً قد علمه بين الاشجار وحوله الخشب طولاً وعرضاً ، وله شبه باب . ودخلت الغنم ودخلت معها ، وإذا وسط ذلك الموضع مثل الغزالة في ارتفاع نحو عشرين ذراعاً ، على خشب وثيق ، والغزالة شبه بالبيت ، فما عمل شيئاً سوى أن أخذ شاة كانت من أصغر الغنم وأهزلها فرمى فوق رأسها بحجر ثم أجّج ناراً وجعل يقطع بيديه وأسنانه كما تفعل السباع ، ويرمي اللحم مع الجلد والصوف في النار . فأكل كل ما في جوف الشاة نيّاً . ثم عمد إلى الغنم فلم يزل يشرب من هذه وهذه حتى شرب من عدة كبيرة ... ثم أخذ شيئاً كان يشربه ، ثم نام فجعل يغط كما يغط الثور . فلما انتصف الليل جعلتُ أدبّ قليلاً قليلاً إلى موضع النار وتتبعت ما بقي من اللحم ، فأكلت ما يمسك رمقي ، وخفت أن تنفر الغنم فينتبه فيجعلني مثل الطائر أو كالشاة . وبقيت مطروحاً إلى الغد . فلما أصبح نزل وساق الغنم وساقني معهم ويومي إليّ بكلام لا أفهمه ، فأتكلم بما أعرف من اللغات فلا يفهم مني . وقد صار عليّ شعر عظيم ، وأظنه لما رآني على هذه الصورة عافتني نفسه . وكان سبب ذلك تأخير أكلي . ولم أزل معه في تلك الحال عشرة أيام يفعل كل يوم مثل ما يفعل قبله ، ولا يمشي يوم إلا ويصطاد الطير والطيرين . فان

حصل له من الطيور ما يشبعه لم يأكل شيئاً من الغنم، وإن اقتصرت الطيور أكل شاة . وصرت أعاونه في وقيد النار ، وجمع الحطب، وأخدمه وأدبّر الحيلة لنفسي إلى أن مضى لي عنده شهران وصلح جسمي ، ورأيت في وجهه آثار السرور ، وفهمت أنه عزم على أكلي . وكان يأخذ من شجر في الجزيرة له ثمر ينقعه في الماء ثم يصفّيه ويشربه فيسكر طول ليلته حتى لا يعقل . وكنت أرى في تلك الجزيرة طيوراً كباراً كالفيل والجاموس وأكبر وأصغر ، ومنها شيء قد أكل بعض غنمه . وإنما يبيت هو وغنمه في تلك الحظيرة خوفاً من تلك الطيور لأنها (أي الحظيرة) بين شجر كبار وقد جعل تحت الشجر مثل السراديب . والطير يفزع أن ينزل إلى هناك فيتعوق في الأشجار .فلما كان في ليلة من الليالي صبرت حتى سكر ونام فقمت وتعلقت بشجرة ، ودلّيت غصناً من أغصانها إلى الأرض ، ومضيت على وجهي أطلب صحراء قد كنت أشرفت عليها من تلك الشجرة . فلم أزل أمشي إلى الصباح ثم خفت وتعلقت بشجرة عظيمة الساق ومعي خشبة قد أعددتها . وعملت على أنه إن لحقني ضربت رأسه ، فإما أن أدافع عن نفسي ، وإما أن يقتلني ، فالموت لا بد منه . فمكثت يومي في شجرة فلم أره . وقد كنت أخذت معي قطعة من اللحم . فلما أمسيت أكلتها ونزلت فمشيت ليلتي إلى الصباح فوجدت نفسي في صحراء ، وفيها أشجار متفرقة . فمشيت وما أرى أحداً إلاّ الطيور ، ووحوشاً لا أعرفها ، وحيات . ورأيت ماء عذباً، فأقمت بمكاني ، وجعلت آخذ من تلك الثمار والموز فآكل وأشرب ،

والطيور تطوف بالغوطة . فعاينت طيراً منها ، فأعددت شيئاً من قشور الشجر مثل الحبال ، ولم أزل أرصد ذلك الطير حتى سقط يرعى . ودرت من خلفه فتعلقت بساقه وهو مشغول يرعى فشددت نفسي . فلما فرغ من أكله شرب ماء وحلّق في الهواء فأشرفت على البحر ، فاستبسلت للموت على أي حال كان لا محالة ، فانحط على جبل في جزيرة فحللت نفسي من ساقه وأنا ضعيف ، فجعلت أجر نفسي خوفاً منه ، ونزلت من الجبل وتعلقت بشجرة وأخفيت شخصي فيها . فلما أصبحت رأيت دخاناً فعلمت أن الدخان مع الناس ، فنزلت أمشي إلى ناحية الدخان . فما مشيت قليلاً حتى استقبلني جماعة فأخذوني وكلموني كلاماً لم أعرفه فحملوني إلى القرية ، فأدخلوني إلى منزل ،وحبسوني مع ثمانية أنفس . فسألوني عن خبري فحدثتهم . وسألتهم ، فخبروني أنهم أهل مركب فلان ، وكان قد خرج من الصنف إلى الزابج ، فوقع عليهم الخب ،فتخلصوا في قارب المركب نحو عشرين رجلاً ، فوقعوا إلى هذه الجزيرة ، فأخذهم قوم فاقتسموهم ، فأكلوا منهم جماعة إلى هذا الوقت . فنظرت وإذا مقامي عند صاحب الغنم كان أصلح ، فجعلت أتأسّى بالقوم وإن كنت أؤكل فقد هان عليّ الموت ، وبعضنا يتأسّى ببعض . فلما كان من الغد جاءونا بسمسم أو شيء يشبهه ، وموز وسمن وعسل وضعوه عندنا . فقالوا هـــذا طعامنا منذ وقعنا هاهنا ، فأكلنا مقدار ما يسدّ رمقنا . ثم جاءوا فنظروا الينا ، وأخذوا أحسننا حالاً في جسده ، فودعناه وقد كان بعضنا أوصى ببعض ، فأخرجوه إلى وسط المنزل ، ودهنوه من رأسه

إلى قدمه بالسمن ، ثم أقعدوه في الشمس مقدار ساعتين ، ثم اجتمعوا عليه فذبحوه وقطعوه قطعاً ،ونحن نرى . ثم شووه وأكلوه وطبخوا بعضه ، وأكلوا بعضه نيّـاً مملوحاً . ثم شربوا شراباً وسكروا فناموا . فقلت لهم قوموا نقتل هؤلاء فانهم سكارى ، ونخرج على وجوهنا ، فان سلمنا فالحمدلله ، و إن هلكنا فهو أسهل من هذا البلاء الذي يحل بنا ، وإن لحقنا أهل القرية فهي موتة واحدة . فاختلف رأينا بقية يومنا ، وأضعنا الليل . وأصبحنا فجاؤا بما نأكل على الرسم المعتاد ،ومضى أول يوم وثاني يوم وثالث يوم ورابع يوم ونحن على تلك الحالة . فلما كان في اليوم الخامس جاؤونا فأخذوا منا واحداً ففعلوا به مثل الأول . فلما سكروا وناموا قمنا اليهـم فذبحناهم بأسرهم وأخذ كل واحد مناسكيناً وشيئاً من العسل والسمن والسمسم . فلما أظلمت الدنيا خرجنا من المنزل . وقد كنا ميزنا النهار فمشينا نطلب ساحل البحر من جانب آخر لا من شط القرية ، ودخلنا غوطة فتعلقنا بالشجر ونحن سبعة خوفاً من القوم . فلما جن الليل ومشينا ونحن نأخذ الطريق على الكواكب ، وأخذنا نمشي على الساحل يومنا. ثم أمِنّا القوم فكنّا الآن نمشي ونستريح ونأكل من ثمار الغيضة وهي كثيرة الموز زماناً طويلاً ، إلى ان وقعنا في غوطة حسنة وفيها ماء عذب طيب فعزمنا على البقاء بها أبداً إلى أن يقع الينا مركب أو نموت فيها . فمات منا ثلاثة ، وبقينا أربعة . فبينما نحن في بعض الأيام نمشي ، وإذا بقارب خلق قذف به الموج وفيه جماعة موتى قد تقطعوا والقارب جانب في الطين ، والموج يضربه وهو مطروح.فاحتلنافي رميهم إلى البحر ،

وغسلنا القارب ، وأخذنا معنا طيناً من طين الجزيرة مثل الغرى ، وأصلحنا فيه دقلا من الشجر ، وسوّينا حبالاً من خوص النارجيل وشراعاً ليفاً ، وملأنا بطن القارب من النارجيل والفاكهة ، وملأنا معنا ماء ، وبعضنا يدري سفر البحر . وسرنا نحو خمسة عشر يوماً ووقعنا بقرية من قرى الصنف بعد أهوال وعجائب مرّت بنا ، وسرنا من تلك القرية إلى أن وصلنا الصنف ، وخبرنا الناس بأخبارنا فجمعوا لنا زاداً وخرج كل واحد منّا يقصد بلداً ، ورجعت إلى البصرة بعد أربعين سنة . »

رحلة ابن حوقل

ابن حوقل هو من أشهر جغرافيي هذا القرن . نشأ في بغداد ، وتأثر بحركة التأليف الجغرافي التي نشطت فيها ، فعزم على أن يضع كتاباً في الجغرافية لا يقوم على مجرد النقل والسماع بل يستند إلى الرحلة والمشاهدة وتدوين الملاحظات الشخصية ، فكانت لنا رحلته ، وهي رحلة جغرافية علمية قضى فيها نحو الثلاثين سنة في الطواف في أنحاء العالم الاسلامي يجمع مادة موضوعه ، ولما انتهى من تطوافه فرغ إلى وضع مؤلفه ، وسمّى هذا المؤلف « المسالك والممالك » ، ومنه انتخبنا هذه النصوص التي يبدو لنا ابن حوقل من خلالها عالماً وأديباً رحّالة يصف ما يشاهده بدقة وتفصيل ، وبأسلوب خال من السرد يقترب من أسلوب الرحّالين بحركته وحيويته وصدق لهجته الشخصية .

جزيرة الاندلس

« الاندلس جزيرة كبيرة فيها عامر وغامر ، وطولها دون الشهر في عرض نيّف وعشرين مرحلة ، ويغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر ، والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر إلى أسباب التملّك الفاشية في أكثرهم ، ولما هم به من رغد العيش وسعته وكثرته ، يملك ذلك أهل مهنهم وأرباب صنائعهم ، لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم ، ويسار ملكهم وقلة شغله وسقوط تكلفه بشيء يحذره وحال يخافه ، إذ لا خوف عليهم ولا رقبة لأحد من أهل جزيرته ، مع عظم مرافقه وجباياته ووفر خزائنه وأمواله . ومما يدل بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضريبتها في كل سنة مئتا ألف دينار ... هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته ومراصده والاموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والحوالي والرسوم على بيوع الأسواق . ومن أعاجيب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنداد والأبطال . »

قرطبة

« وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة ، وليس بجميع المغرب عندي لها شبيه في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمار

مساجد وكثرة حمامات وفنادق ... وهي مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة ... ولها بابان مُشْرعان في نفس السور إلى الطريق الآخذ على الوادي من الرصافة؛ والرصافة مساكن أعالي البلد ، متصلة بأسافله من ربضه [1] ، مشتبكة أبنيتها محيطة بها مستديرة عليها من شرقها وشمالها وغربها ... والأسواق والبيوع ، والخانات والحمامات ومساكن العامة بربضها ، ومسجد جامعها جليل والحبس منه قريب . وقرطبة هذه بائنة بنفسها عن مساكن أرباضها ظاهرة ، ودرتُ بها في غير يوم في قدر ساعة ... وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملّك وابتذال لجيّد الثياب والكُسى وفراهة الكراع (الخيل) وكثرة الحلى ، وإن لم يكن لها في عيون كثيرة من الناس حسن بارع فليس لجيوشهم حلاوة في العين ولا علم بآيين (قوانين) الفروسية وقوانينها ولا بالشجاعة وطرقها . وأكثر ظفر جيوشهم في القتال بالكيد . ومما يدل على ذلك أني لم أر قط بها أحداً أجرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه في الركابين ولا يستطيعون ذلك ولا بلغني عن أحدهم ، وكل ذلك لخوفهم من السقوط إلى فشل فيهم عند لقائهم ... »

وصف بلرم عاصمة صقلية

« ... أكثر مياه البلد من الآبار ، وهي ثقيلة غير مروية ، وإنما صرفهم إلى شربها رغبةً عن شرب الماء الجاري العذب الذي يجري حول بلدتهم قلّةُ مروءاتهم وكثرة أكلهم البصل وفساد

[1] – الربض : ما حول المدينة من بيوت ومساكن .

حواسهم لكثرة تغذيهم بالنيء منه ، وما فيهم من لا يأكله في كل يوم ... وفيها أزيد من ثلاثمئة معلم يؤدّبون الصبيان. وهم (أي أهل بلرم) يرون أنهم أفضلهم وأجلهم ، وأنهم أهل الله وهم شهودهم وأمناؤهم ، هذا على ما اشتهر عن المعلمين من نقص عقولهم ... وانما لجأوا إلى هذه الصناعة هرباً من الجهاد ونكولاً عن الحرب ... وببلرم طائفة من القصّابين والجرّارين والأساكفة. وبها للقصّابين دون مئتي حانوت لبيع اللحم . والقليل منهم في المدينة برأس السماط . ويجاورهم القطّانون والحلاّقون والحلاّجون والحذّاؤون وبها غير سوق صالح . ويدلّ على قدرهم وعددهم صفحة مسجد جامعهم ببلرم . وذلك أني حزرت المجتمع فيه إذا غصّ بأهله بلغ سبعة آلاف رجل ونيّفاً لأنه لا يقوم فيه أكثر من ثلاثين صفّاً للصلاة وكل منها يزيد على مئتي رجل . »

رحلة المقدسي

هي رحلة جغرافية علمية قام بها في ربوع العالم الاسلامي فتى من بيت المقدس بفلسطين يدعى أبا عبد الله محمد بن أبي بكر ويعرف بالمقدسي البشاري .

نشأ هذا الرحّالة في بيت المقدس بفلسطين ، ومنه انتقل إلى العاصمة بغداد يدرس على علمائها ويلازم دور الكتب فيها . ثم استهوته الجغرافية فانصرف إلى مراجعة ما ألّف فيها وصنّف [1] ،

١- كتاليف أبي عبد الله الجيهاني ، وأبي زيد البلخي ، وابن الفقيه الهمذاني ، وابن خرداذبه .

فوجد أن معظمه لم يعتمد فيه كاتبوه على رحلة أو سفر ، أو يخبروا ما يتحدثون عنه من موضع أو أثر ، بل جلّ ما فعلوه انهم جمعوا الغرباء من مختلف الممالك والامصار ، وسألوهم عنها وعن خراجها ، وكيفية الوصول اليها ، ودوّنوا ذلك في كتب أطالوها بذكر السهول ، والاودية والتلال ، وغفلوا عن وصف المدائن الجياد ، واوردوا ما ليس فيه فائدة لعامة العباد [1] ... ولذلك صحّ العزم عنده على زيارة الاقاليم ، والتمهيد بذلك لتأليف كتابه « أحسن التقاسيم » فسافر إلى الجزيرة ، وطوّف في العراق ، ووفد إلى مصر ، وشاهد بلاد المغرب ، وارتحل إلى مختلف أقاليم العرب والعجم ، وعاد من رحلته فألّف كتابه الذي صوّر فيه أحوال العالم الاسلامي الجغرافية والعمرانية ، واهتم اهتماماً شديداً بالحديث عن « اختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ، ومفاخرهم وعيوبهم وما يحمل من عندهم واليهم .. ومعادن السعة والخصب ، ومواضع الضيق والجدب ، والمشاهد والمراصد والخصائص والرسوم والممالك والحدود . »

يقول أبو عبد الله : « ما تم لي جمع الكتاب إلاّ بعد جولاتي في البلدان ودخولي أقاليم الاسلام ، ولقائي العلماء وخدمتي الملوك ومجالستي القضاة ودرسي على الفقهاء ، واختلافي إلى الادباء والقراء وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوّفين وحضوري مجالس القُصاص والمذكّرين ، مع لزوم التجارة في كل بلد ، والمعاشرة

١ — راجع مقدمة كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » .

مع كل أحد ، والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي حتّى عرفتها ، ومساحة الاقاليم بالفراسخ حتّى أتقنتها ، ودوراني على التخوم حتّى حرّرتها ، وتنقلي إلى الأجناد حتّى عرفتها ، وتفتيشي عن المذاهب حتّى علمتها ، وتفطّني في الألسن والألوان حتّى رتبتها ، وتدبّري في الكُوَر (المديريات) حتّى فصّلتها ، وبحثي عن الأخرجة (الضرائب) حتّى أحصيتها ، مع ذوق الهواء ، ووزن الماء ، وشدة العناد » إلى آخر ما يقوله هذا العالم ومنه نستدل على مبلغ جهده في الدراسة ، ومعاناته في جمع مادة كتابه ، حتّى « إنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلاّ أخذ منه بنصيب ، وانه أنفق في أسفاره أكثر من عشرة آلاف درهم .. تفقه وتزهّد وتعبّد وأكل مع الصوفية الهرائس ، ومع الخانقائيين الثرائد ، ومع النواتي العصائد .. وساح في البراري وتاه في الصحاري ، واشرف مراراً على الغرق ، وقطع على قوافله الطرق ، ومشى في السمائم والثلوج ، ونزل عرصة الملوك ، وسكن بين الجهّال . » حتّى وصف لنا أحوال كل بلدة وأهلها من طبائع وعادات حتّى في لغاتهم . وقد لخّص لنا هذه الصفات والخصائص في أوائل كتابه فقال :

« أظرف الأقاليم العراق ، وهو أخفّ على القلب واحدّ للذهن وبه تكون النفس أطيب والخاطر أدق . وأجلّها وأوسعها فواكه وأكثرها علماء وأجلّة المشرق (الدولة السامانية في خراسان) ، وأكثرها صوفاً وقزّاً الديلم (جرجان وطبرستان) وأجودها ألباناً وأعسالاً وألذها أخباراً وأمكنها زعفراناً الجبال (أعالي ايران) ، وأكثرها ثماراً وأرخصها أسعاراً ولحوماً وأثقلها قوماً الرحاب (أرمينيا

وأذربيجان) وأسفلها قوماً وأشرهم أصلاً وفصلاً خوزستان ، واحلاها تموراً وأوطأها قوماً كِرْمان ، وأكثرها أرزازاً وكافوراً السند ، وأكيسها قوماً وتجاراً وأكثرها فسقاً فارس ، وأشدها حرّاً وقحطاً ونخيلاً جزيرة العرب ، وأكثرها بركات وصالحين وزهاداً مشاهد الشام ، وأكثرها عباداً وقراء وأموالاً ومتجراً وخصائص وحبوبـاً مصر .. وأجفاها وأثقلهـا .. وأكثرها مدناً وأوسعها أرضـاً المغرب . »

قيمة الرحلة

لرحلة المقدسي قيمة جغرافية عالية ، تجعل من الرحلة وثيقـة من الوثائق يستند اليها كل باحث في جغرافية أي قطر من أقطـار العالم الاسلامي وما وراءه من أقطار وصل اليها رحّالتنا [1] فتحدث عن طبيعة أرضها ومناخها ومواقعها وحدود أبعادهاوارتفاعاتها ، ولم يهمل ما فيها من بنيان وآثار [2] . وصوّر أحوال أهلها وطباعهم

١– كاقليم خوارزم والديلم والرحاب واقليم الجبال بفارس .

٢– كعجائب ثمود وبيوتهم التي كلها من حجر في وادي القرى . ومدينـة البادية تيماء . ومحراب الجامع في صحار الذي له كوكب يدور . تراه مرة أصفر ، وكرة أخضر ، وحيناً أحمر . والمسجد الجامع بالكوفة الذيطعمت حيطانهبالمينا وجعلت أساطينه من رخام . وعجائب اقليم أقور بين الموصل والفرات من حصن الرقة إلى كنيسة الرها إلى قنطرة سنجة إلى دير توما الذي فيه جسد قائم يابس يزعمون أنه من الحواريين . ودير الكلب بالموصل . وكهف الظلمات . وجامع دمشق . ومسجد الصخرة . وحصني عكا وحبري ، ومغارة الصالحين بالقرب من عمان على تخوم البادية . ومنازل الفسطاط التي ترتفع من أربع طبقات إلى عشر–

وعاداتهم [1] ومطاعمهم وملابسهم وتجاراتهم وأعيادهم [2] وحرفهم وما يؤدونه من الضرائب ، وما يصدرونه من خيرات [3] وما تختلف به الألسنة وتتغير اللهجات [4] ، فشمل بذلك كتابه مختلف أنواع

وأهرام مصر . وجامع أردبيل بأذربيجان . والدير الأبيض في الرحاب من حجر منقور على هيئة قلنسوة وفيه صورة مريم. وقلعة الحسرة والصخرة السوداء بالقرب من الدير التي يسيل منها دهن يستشفون به . والجبل الذي يعرف بقاشان والنبات الزجاجي وملعب سليمان الذي على فرسخ من اصطخر وفيه أساطين سود وتماثيل ومحاريب وأعاجيب .

١ – كعادة أهل مكة وعدن في ليالي رمضان وتزيينهم للأسواق وضربهم الطبول ، وتهليلهم وتكبيرهم ، وطوافهم بالشوارع وإيقادهم الشمع حول المدينة . وكمنع الديلمية من أن تتزوج من غير ديلمي. وإقامة أهل الديلم أسواقاً على أيام الجمعة في السهل لكل قرية فإذا فرغوا من السوق انحاز الرجال والنساء إلى مكان يتصارعون فيه . ورجل جالس معه حبل . كل من غلب في المصارعة عقد له عقدة . فاذا هوي الرجل امرأة راح معها فيتلقاه أهلها بالبشر والترحاب ، ويتباهون إذا رغب في كرمهم فيضيفونه ثلاثة أيام ثم ينادي المنادي ويزوجونه منها .. وكبيعهم للحوم الكلاب في افريقية في مدينتين من مدنهم . وحرث الفلاحين في نواحي أردبيل بثمانية ثيران ، ومشي الرجال بفارس قدام الجنازة ، والنسوان خلفها يقيمون الزمور والطبل في المآتم وفي المقابر ، ويجلسون للتعزية في المساجد ثلاثة أيام .

٢ – عيد النيروز في عدن وعيد التمر في العراق وعيد البنفسج وأعياد الفصح والبربارة والصليب والعنصرة في بلاد الشام .

٣ – كالجلود الجيدة والبطائن الحمر ، والارز والصوف والتمور والخيل والزبيب والكتان وحبال الليف والحصر والحبوب التي تصدرها مصر. وكالزيت والزبيب والخرنوب والصابون التي كانت تصدر مثلا من بلاد فلسطين .

٤ – كحديث أهل عدن وأغلبهم من الفرس بالعربية المحرفة فهم يقولون في عينيه : عنينه . وفي يديه : يدينه وهكذا . ويجعلون الجيم كافاً فيقولون في رجب : ركب . وفي رجل : ركل .

الجغرافية من جغرافية اقتصادية ، وجغرافية بشرية ، وجغرافية عمرانية ، وجغرافية طبيعية ، واقترب في كثير من ملاحظاته من فهم الجغرافية على الطريقة الحديثة واستخدامها كأداة للتثقيف العام إذ رأى « أن هذا العلم من الأهمية بمكان للرحالة والتجار .. ص ٣٥٢ » . ورسم خرائط مستقلة لكل قسم من الأقسام الأربعة عشر التي قسم اليها العالم الاسلامي . واستخدم في تلك الخرائط طرقاً لتمثيل الظاهرات الجغرافية المختلفة حتى يمكن للجميع أن يفهمها فهماً صحيحاً ، فرسم « الطرق المعروفة بالحمرة ، والرمال الذهبية بالصفرة ، والبحار المالحة بالخضرة ، والأنهار بالزرقة ، والجبال المشهورة بالغبرة . ص ٩ » . وبيّن أن الأرض كروية على وجه التقريب في شكلها ، وأن خط الاستواء يقسمها إلى قسمين متساويين ، وقسم محيطها إلى ١٨٠ درجة : ٩٠ درجة من الاستواء إلى كل قطب وأدرك أن نصف الكرة الجنوبي يتكون معظمه من الماء بخلاف النصف الشمالي الذي يتركز فيه اليابس (ص ٩٩ — ١٠٠) . وهو أمر لم يلتفت اليه علماء الغرب إلاّ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

رحلة أبي دلف

أبو دلف هو مِسْعَر بن مهلهل الينبوعي الخزرجي « شاعر كثير المُلَح والظرف ، مشحوذ المدية في الجدْية (الاستجداء) خنق التسعين في الاطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب [1] » .

---

١ — الثعالبي : يتيمة الدهر — ج ٣ ص ٣٥٢ — ٣٥٣ .

من أشهر رحلاته رحلة رسمية وجهه فيها الامير الساماني نصر بن أحمد إلى الصين حوالى سنة ٩٤٢ م مع بعثة كان أحد الأمراء الصينيين قد أرسلها إلى البلاط الساماني ليخطب ابنة أمير بخارى. وقد سافر الشاعر مع الوفد ، وزار في طريقه بلاد الهند والترك ، وآخر نقطة كانت تصل اليها السفن الاسلامية يومئذ. وفي «معجم البلدان » لياقوت نصوص من الرحلة اخترنا لك منها هذا النص الذي يصف فيه الشاعر معدناً للرصاص القلعي (القصدير) شاهده في مدينة كله (شبه جزيرة ملقا) قال الشاعر : « فخرجت إلى الساحل أريد كله وهي أول الهند وآخر منتهى مسير المراكب لا يتهيأ لها أن تتجاوزها وإلا غرقت . قال فلما وصلت إلى كله ، رأيتها وهي عظيمة عالية السور كثيرة البساتين غزيرة الماء، ووجدت بها معدناً للرصاص القلعي لا يكون إلاّ في قلعتها في سائر الدنيا .. وخرجت منها إلى بلد الفلفل فشاهدت نباته وهو شجر عادي لا يزول الماء من تحته . فاذا هبت الريح تساقط حمله فلذلك تشنجه . وإنما يجتمع من فوق الماء . وعليه ضريبة للملك . وهو حر لا مالك له . وحمله أبداً لا يزول شتاء ولا صيفاً . وهو عناقيد فاذا حميت الشمس انطبق على العنقود عدة من ورقه لئلا يحترق بالشمس فاذا زالت الشمس زالت تلك الأوراق . »

هذا ولأبي دلف رسالة نشرت في موسكو في الآونة الأخيرة أشرف على طبعها وتحقيقها بولس بولغاكوف وأنس خالدوف . وهذه الرسالة تدعى « الرسالة الثانية » وقد خط فيها هذا الرحالة جملة من سفره من بخارى إلى الصين ، وذكر فيها بعض أعاجيب

ما دخله من بلدانها ، وسلكه من قبائلها ، ملحاً على ذكر المعادن الطبيعية والعجائب المعدنية وفي ما يلي نص من الرسالة يكشف عن بعض ما تحوي :

ابو دلف في بلاد كردستان وفارس

وخرجت من هذه المدينة إلى مدينة أخرى على أربعة فراسخ تعرف بالران ، فيها معدن ذهب ثقيل أبيض فضّي أحمر المحك ، إذا حُمل على عشرته واحد من الفضة احمرّ . ووجدت معدن الأسرب (الرصاص) بها واستعملت منه مردا سنجا فخلص لي من كل منها دانق ونصف فضة . ولم أجد في ما سواه من معادن الرصاص . ووجدت بها اليبروح كثيراً عظيم الخلقة يكون الواحد منه عشرة أذرع وأكثر من ذلك . وفي هذه المدينة نهر من شرب منه أمن الحصاة . وبها حشيشة تضحك من تكون معه حتى يخرج به الضحك إلى الرعونة. وإن سقطت منه أو شيء منها اعتراه حزن لذلك فبكي ، وبها حجارة بيض غير شفافة تقيم الرصاص ، ويقع بها من السحاب دويّبة تنفع من داء الثعلب باللطوخ ، وثعالبها قرع الرؤوس بلا شعر البتة .

وسرت منها إلى وادي اسفندويه فوجدت عليه حمّات كثيرة بورقية (نطرونية) تنفع في الرياح في العصب فقط ، وبه حمّة تصلح للحفاء .

ووصلت منها إلى معدن زاج أحمر سوري ينبت فيه الذهب الأبيض في الصيف فيحمر من داخل حفّه .

وخرجت من هناك إلى الطرم فوجدت بها وبزنجان معادن للزاج (ملح يستعمل في الصباغة) شريفة تفوق المصري والقبرسي والكرماني ؛ ووجدت بها معادن بوارق وشبوب البياض والحمرة . ووجدت بها حمّة تصلح للجراحة العتيقة فأما الطريّة فلا . ووجت بها عيناً تنبع ماء يستحجر إذا ضربه الهواء تنفع من ديم (نزيف) الأرحام سيالا ، ومن دَبَر الحمير (قروحها) جامدا . ووجدت بها حجارة بيضاً تقوم مقام الباذزهر .

حمة وادي الكرد

وعلى وادي الكرد مما يلي سلماس حمة شريفة جليلة نفيسة الخطر كثيرة المنفعة وهي بالإجماع والموافقةخير ما يخرج من كل معدن في الارض يقال لها زراوند ، واليها ينسب البورق الزراوندي ، وذلك أن الانسان أو البهيمة يلقى فيها وبه كلوم قد اندملت ، وقروح قد التحمت ، ودونها عظام موهنة وأزجّة كامنة ، وشظايا غائصة ، فتتفجّر أفواهها ويخرج ما فيها من قيح وغيره وتجتمع على النظافة ويأمن الانسان غائلتها . وعهدي بابن توليت حمله اليها وبه علل من جرب وسلع وقولنج وجزاز دائم وبه سهم قد نبت اللحم على نصله وغار في بدنه ، وكنا نتوقعه يصدع كبده صباح مساء فأقام ثلاثة أيام وخرج السهم من خاصرته لأنها أرقّ موضع وجد فيه منفذ ! ولم أر مثل هذا الماء إلاّ في بلد التيز والمكران . »

كما ان لهذا الأديب المترحل قصيدة قدمها إلى الصاحب

اسماعيل بن عباد وزير بني بويه وفيها إشارة إلى رحلات بني قومه وأسفاره ومما يقوله فيها :

فنحن الناس كل الناس ... في البر وفي البحر
أخذنا جزية الخلق ... من الصين إلى مصر
إلى طنجة بل في كل ... أرض خيلنا تسري
إذا ضاق بنا قطر ... نَزُل عنه إلى قطر
لنا الدنيا بما فيها ... من الاسلام والكفر
فنصطاف على الثلج ... ونشتو بلد التمر

رحلة الفتية المغررين

هي رحلة جريئة في خضم المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات كما كان العرب يدعونه ، قام بها فتية كانوا يعيشون في ثغر لشبونة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أي قبل رحلة كولومبوس بأربعمئة سنة تقريباً . وسوف نترك هنا للشريف الادريسي أن يروي رحلتهم التي انفرد بتسجيلها ، والتي أصبح ما ورد بها من وصف الحيوان والنبات موضعاً للدراسات استدل منه الباحثون أن هؤلاء الفتية المغررين ربما أدركوا جزائر أزورا وماديرا وكناري [1] . قال الشريف الادريسي :

---

١ – وقد كان من أهم ما أسفرت عنه تلك الدراسات ما ورد في كتاب « ليوويتر » الاستاذ بجامعة هارفرد « افريقية واكتشاف اميركة » من وجود كلمات عربية في لغة الهنود الحمر مما جعله يرجح تأثر تلك اللغة بلغة العرب . وقد نشر عالم الأجناس الاميركي « جيفريز » سنة ١٩٥٥ جانباً من أبحاثه عن أصل

« ومن مدينة لشبونة كان خروج المغررين في ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه ... ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمة درب منسوب اليهم يعرف بدرب المغرّرين إلى آخر الأبد . وذلك انهم اجتمعوا ، ثمانية رجال كلهم ابناء عم ،فأنشأوا مركباً حمّالاً وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر . ثم دخلوا البحر في أول طاروس الريح الشرقية (أي هبوبها) فجروا بها نحواً من أحد عشر يوماً . فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروس (أي الصخور التي لا يكاد يسترها الماء) قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلاعهم في اليد الأخرى ، وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوماً ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم [1] ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عدّ ولا تحصيل، وهي سارحة ولا راعي لها ،ولا ناظر اليها. فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برّي ،فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها ، فوجدوا لحومها مرّة لا يقدر أحد على أكلها ، فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب اثني عشر يوماً ،

=الشعوب الاميركية القديمة وصلاتها بشعوب العالم القديم ،فأكد أن العرب كانوا على صلة بالشواطئ الاميركية قبل مجيء كريستوف كولومبوس بأربعة قرون . وكان مما استدل به على صحة رأيه أن الذرة وهو نبات اميركي قد انتشر في العالم القديم ، منذ ذلك الزمن على أيدي العرب . (ابراهيم الفحام – مجلة العربي ، العدد ١١ السنة ١٩٥٩) .

١–يرجح الباحثون أنها إحدى جزائر أزورا التي تبعد عن أرض البرتغال نحو ١٣٧٠ كيلو متراً والظاهر أنها لم تكن مجهولة عند الفينيقيين والقرطاجيين والنورمانديين والعرب .

إلى أن لاحت لهم جزيرة [1] ، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث ، فقصدوا اليها ليروا ما فيها . فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق هناك ، فأخذوا وحملوا في مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر فأنزلوا بها في دار ، فرأوا بها رجالاً شقراً ، زعروا شعور رؤوسهم . شعورهم سبطة وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب . فاعتقلوا فيها في بيت ثلاثة أيام . ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي . فسألهم عن حالهم ، وفيم جاؤوا ، وأين بلدهم . فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك : فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم أحضروا بين يدي الملك . فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من انهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ويقفوا على نهايته . فلما علم الملك ذلك ضحك وقال للترجمان : خبّر القوم أن أبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا في عرضه شهراً ، إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى . ثم أمر الملك الترجمان ان يعدهم خيراً وأن يحسّن ظنّهم بالملك ، ففعل . ثم صرفوا إلى موضع حبسهم [2] إلى أن بدا جرْي الريح الغربية فعمر

١ —احدى جزر ماديرا وقد ذكر العلماء في أوروبة أن بهذه الجزيرة كثيراً من المعز تقتات من العشب هو السبب في مرارة لحومها .

٢ —يرجح الباحثون ان الجزيرة التي انتهى اليها المغررون وقبض عليهم فيها فلعلها احدى جزر الخالدات أو كناري وقد سبق أن هذه الجزائر كانت معروفة عند

بهم زورق ، وعصّبت أعينهم ، وجرى بهم في البحر برهة من الدهر . قال القوم : قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جيء بنا إلى البر ، فأخرجنا وكتّفنا إلى خلف ، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء الحال من شدة الكتاف ، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا ، فأقبل القوم الينا فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فحلوا من وثاقنا وسألونا فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم . فقلنا : لا ، فقال : إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم : واأسفي ! فسمي المكان إلى اليوم « أسفي » ، وهو المرسى الذي في أقصى المغرب »

= الفينيقيين ثم العرب وذلك قبل أن يكتشفها الاوروبيون ثانية في القرن الرابع عشر الميلادي .

١ - الادريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .

الرّحلات في القرن الحادي عشر للميلاد
الخامس للهجرة

لعل أكبر رحالة عرفه القرن الحادي عشر للميلاد هو أحد كبار العلماء في الدنيا الاسلامية برمتها، أبو الريحان محمد البيروني الذي التحق بالسلطان محمود الغزنوي في غزنة سنة ١٠١٧ م . ومن غزنة قام البيروني بعدة رحلات علمية في الديار الهندية المفتوحة التي قضى فيها نحو أربعين عاماً يدرس ويفحص ، واستطاع أن يتعلم فيها لغة الهند القديمة السنسكريتية ، وان يجتمع له من المعلومات ما اشتمل عليه كتابه الموسوعي «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » .

وفي كتابه هذا يتحدث البيروني عن الهند جغرافيتها وتاريخها ومعارفها في العلوم وخاصة الرياضيات والفلك . ويذكر خرافاتها وأساطيرها وعبادات أهلها ورسومهم في دينهم وقرابينهم وحججهم وصدقاتهم وما يبيحونه ويحرمونه من المطاعم والمشارب . ويتحدث

عن قضائهم وعقوباتهم وكفاراتهم وما عندهم من تأدب وتغريم ومواريثهم وحرقهم لموتاهم وصيامهم وأعيادهم وأفراحهم وأيامهم المعظمة وأوقاتهم المسعودة والمنحوسة لاكتساب الثواب ، ومجامعهم وأنهارهم المقدسة وما يؤمنون به من أحكام النجوم وكل ما يَسِمُهم في عاداتهم وطباعهم .

وتظهر قيمة أبي الريحان البيروني في تفسيراته العميقة لبعض الظاهرات الطبيعية والاجتماعية ، كتفسيره لامتناع الهنود عن أكل لحوم البقر بأسباب اقتصادية معقولة ، وفهمه لحركة المد والجزر والربط بينها وبين أوجه القمر كما يقول العلم الحديث تماماً ، وتناوله الجيولوجية والتكوين الجيولوجي تناول العالم القدير إذ يقول عن سهول شمال الهند إنها كانت قاع بحر ردمته الرواسب وهو ما تقول به الجغرافية الحديثة .

هذا وقد اخترنا لك من كتاب البيروني بعض المقتطفات التي تتناسب مع كتابنا وتظهر فيها شخصيته كعالم وكرحالة . قال البيروني :

سير الهنود وعاداتهم

وفي سير الهند ما يخالف رسومَ أهل بلادنا في زماننا مخالفة تصير بها عندنا أعجوبة ، فمنها أنهم لا يحلقون شيئاً من الشعر ، وأصلهم العُرْي لشدة الحر كيلا تعلّي رؤوسهم بالانكشاف ، ويضفرون اللحى ضفائر صيانة لها ، ويطوّلون الأظفار فخراً بالتعطّل فان المهن لا تتأتى معها واستراحاً اليها في حكّ الرأس وفلي الشعر ،

ويأكلون أوحاداً فرادى على مندل السرقين ، ولا يعودون إلى ما فضل من الطعام ، ويرمون بأواني المأكول إذا كانت خزفية ، ويحمّرون الاسنان بمضغ الفَوْفل بعد تناول ورق التنبول والنورة ، ويشربون الخمر على الريق ، ثم يَطْعمون ويحسون بول البقر ولا يأكلون لحمها ، ويضربون الصنوج بمضراب ، ويتسرولون بالعمائم ، ثم المفرّط منهم يكتفي من اللباس بخرقة قدر إصبعين يشدّها على عورته بخطين ، والمُفْرط يلبس سراويل محشوة بقطن يكفي عدّة لُحُف وبرادع مسدودة المنافذ لا يبرز منها القدمان ، والتكيّة إلى خلف ، وصُدُرُهم بالسراويل أشبه ومشدّها بالشفاسق نحو الظهر ، ويشقّون أذيال القراطق إلى اليمين واليسار ، ويضيّقون الخفاف حتى يُبتدأ في لبسها وهي مقلوبة من السوق قبل الاقدام ، ويبتدئون في الغسل بالرجل قبل الوجه والنساء يقمن بأمور الحراثة وأزواجهن في راحة ، ويتضمّخون في الأعياد بالأحثاء بدل العطر ، ويلبس ذكورهم ملابس النساء من الصبغات والشنوف والأسْورة وخواتيم الذهب في البناصر وفي أصابع الأرجل ... ويركبون بغير سرج وإن أسرجوا ركبوا عن يمين الدابة ، ويحبّون الإرداف في المسير ، ويشدّون الكنارة وهي الخنجر في أوساطهم من الجانب الايمن ، ويتقلّدون بالزنّار المسمّى جنجوا على العاتق الأيسر نحو الجنب الأيمن ، ويستشيرون النساء في الآراء والعوارض ، ويفضّلون أصغر الابنتين وخاصة في مشارق أرضهم ... ويأخذون اليد في المصافحة من جهة ظهر الكف ، ولا يستأذنون للدخول في البيوت ،

ثم لا يخرجون من غير استئذان ويتربعون في المجالس .. »
(تحقيق ما للهند ص ٨٩-٩٠)

طبقات الهنود

وهذه الطبقات في أول الامر أربع :علياها (البراهمة) قد ذكر في كتبهم أنّ خلقتهم من رأس براهم ، وان هذا الاسم كناية عن القوّة المسمّاة طبيعة فالبراهمة نُقاوة الجنس ، ولذلك صاروا عندهم خيرة الانس ، والطبقة التي تتلوها (كشتر) خلقوا بزعمهم من مناكب براهم ويديه ، ورتبتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جداً ودونهم (بيش) خلقوا من رجلي براهم ، وهاتان المرتبتان الأخيرتان متقاربتان ، وعلى تمايزهم تجمع المدن والقرى اربعتهم مختلطي المساكن والدور ، ثم المِهَن دون هؤلاء فغير معدودين في طبقة غير الصناعة ويسمّون (أنتز) وهم ثمانية أصناف بالحِرَف ، ويتمازجون بما يشابهها من الحرف الأخَر سوى القصّار والاسكاف والحائك فانه لا ينحط إلى حرفتهم سائرهم وهم القصار والاسكاف واللعّاب ونسّاج الزّنابيل والسّفّان وصيّاد السمك وقنّاص الوحوش والطيور والحائك فلا يساكنهم الطبقات الأربع في بلدة ، وإنما يأوون إلى مساكن تقربها وتكون خارجها ...

وكل طبقة من الأربع فإنها تصطفّ في المؤاكلة على حدة ، ولا يشتمل صفّ على نفرين مختلفي الطبقة فان كان في صفّ البراهمة مثلاً نفران منهم متنافران وتقارب مجلساهما فُرق بين المجلسين بلوح يوضع فيما بينهما ، أو ثوب يمدّ ، أو شيء آخر ،

بل إن خـُطّ بينهما تمايزا ، ولأن الفضلة من الطعام محرّمة فإنهـا توجب الانفراد بالمأكول لأنه إذا تناوله أحد المؤاكلين في قصعة واحدة صار ما بقي بتناول الآخر ، وانقطاع أكل الأول فضالة محرمة فهذه حال الطبقات الأربع ...

(تحقيق ما للهند ص ٤٩)

تقاليدهم في الزواج

« ومن شأن الهند أن يكون التزويج فيهم على صغر السنّ ، ولذلك يعقده الأبوان لأبنائهم فيقيم البراهمة فيه رسوم القرابين ، ويبثّ فيهم وفي غيرهم الصدقات وتظهر آلات الأفراح ، ولا يسمّى بينهما مهر وإنما يكون فيه للمرأة صلة بحسب الهمة ونحلة معجّلة لا يجوز ارتجاعها إلاّ أن تهبها المرأة بطيبة من نفسها ، ولا يفرّق بين الزوجين إلاّ الموت إذ لا طلاق لهم . وللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى اربع . وما فوق الأربع محرّم عليه إلاّ أن تموت إحدى من تحت يده منهنّ فيتمم العدد بغيرها ولا يتجاوزه . وأما المرأة إذا مات زوجها فليس لها أن تتزوج ، وهي بين أحد أمرين إمّا أن تبقى أرملة طول حياتها ، وإما أن تحرق نفسها ، وهو أفضل حاليها ، لأنها تبقى في عذاب مدة عمرها .. والقانون في النكاح عندهم أن الأجانب أفضل من الأقارب وما كان أبعد في النسب من الأقارب فهو أفضل مما قرب فيه ... »

(تحقيق ما للهند ص ٢٧٨)

الرّحلات في القرن الثاني عشر للميلاد

السّادس للهجرة

يتميز هذا القرن بظهور عدد من الرحالة المغاربة الذين سافروا أولاً إلى المشرق قصد الحج ، ثم تأصّل حب الرحلة في قلوبهم فأولعوا بالتنقل والأسفار ، وألّفوا في ذلك مؤلفات لا تزال خالدة القيمة حتى اليوم . نذكر منهم الشريف الادريسي (١٠٩٩ — ١١٥٣ م) وابن جبير البلنسي (١١٤٤ — ١٢١٧ م) وأبا حامد الغرناطي (١٠٨٠ — ١١٦٩ م) ولا نعرف في المشرق من الرحالين في القرن الثاني عشر هذا غير فارس وأمير يدعى أسامة بن منقذ (١٠٩٥ — ١١٨٨) تنقّل في مصر وسورية وبغداد ، ودوّن مشاهداته فيها في مذكرات له شيقة رائعة تضمنها كتابه الذي سماه « الاعتبار » .

رحلات الادريسي

الادريسي هو أكبر عالم جغرافي عرفته القرون الوسطى إطلاقاً .

ولد في سبتة ، وتعلّم في قرطبة ، ثم رحل في البلاد ، فتجوّل في شبه الجزيرة الاسبانية وشواطئ فرنسة وغربي البحر الابيض وجزائره والمغرب وآسية الصغرى ، وانتهى به المطاف إلى صقلية حيث اتصل بالأمير النورماني روجر الثاني ، فكلفه هذا بمهمة عهد اليه فيها بتأليف كتاب له يصف فيه العالم بأقطاره وبلدانه وخلجانه ، وبحاره وأنهاره ، ومسافاته وخواصه ، وما به من الصناعات والتجارات وما يذكر عنه من العجائب ، مع ذكر أحوال أهله وهيئاتهم ومذاهبهم وأزيائهم ولغاتهم . فقام الادريسي بالمهمة على أكمل وجه ، وألّف له الموسوعة الجغرافية الهائلة التي سمّاها « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » . وبعض الباحثين يعتبر هذه الموسوعة من التراث العربي الضخم الذي زاد في صرح الحضارة ، وأغنى المعرفة ، وخدم حركة التطور والتقدم الانسانيين ، كما أن منهم من يشير إلى أن « أبدع أقسامها هي الفصول التي تتعلق بوصف الأندلس ، وشبه الجزيرة الاسبانية ، والمغرب ، وبحر الادرياتيك وايطاليا وجزائر البحر الأبيض ، وهي البلاد التي تجول فيها الادريسي ودرسها عن كثب. ففي هذه الفصول يكشف الادريسي عن رسوخ معلوماته ودقة مشاهداته . هذا إلى ما يبديه من معلومات وأوصاف دقيقة عن بلاد اوروبة الشمالية مثل ألمانيا وبلاد اسكندناوة [1] »

هذا وقد تخيرنا لك من فصول الادريسي هذه بعض الأمثلة يصف فيها مدينتين من بلاد المشرق ، ومدناً أخرى من بلاد

١ – محمد عبد الله عنان – مجلة العربي – العدد ٢٩ السنة ١٩٦١ .

المغرب . قال الادريسي :

الادريسي يصف بيت لحم

سرتُ من بيت المقدس إلى مدينة بيت لحم ، فوجدت على طريقي عين سلوان ، وهي العين التي أبرأ فيها السيد المسيح الضرير الأعمى ، ولم تكن له قبل ذلك عينان . وبقربها بيوت كثيرة منقورة في الصخر ، وفوقها رجال قد حبسوا أنفسهم فيها عبادةً . وأما بيت لحم ، وهو الموضع الذي ولد فيه السيد المسيح ، فبينه وبين المقْدِس ستة أميال . وفي وسط الطريق قبر راحيل أمّ يوسف وأم ابن يامين ولدي يعقوب . وهو قبر عليه اثنا عشر حجراً ، وفوقه قبة معقودة بالصخر . وبيت لحم هناك وفيها كنيسة حسنة البناء [1] متقنة الوضع فسيحة مزيّنة إلى أبعد غاية ، حتى أنه ما أبصرَ في جميع الكنائس مثلها بناءً . وهي في وطاء من الأرض ولها باب من جهة المغرب ، وبها من أعمدة الرخام كل مليحة . وفي ركن الهيكل ، في جهة الشمال المغارة التي ولد بها السيد المسيح ، وهي تحت الهيكل . وداخل المغارة المذود الذي وُجد به . وإذا خرجتَ من بيت لحم نظرتَ في الشرق منه كنيسة الملائكة ، الذين بشّروا الرعاة بمولد السيد المسيح .

الادريسي في صيدا

« مدينة صيدا في البلاد الشامية على ساحل البحر المالح ، فيها

---

١ –هذه الكنيسة تعرف بكنيسة الولادة شيدّتها في القرن الرابع بعد المسيح القديسة هيلانة أم قسطنطين الملك سنة ٣١٧ م .

سور حجارة ينسب إلى امرأة كانت في الجاهلية . وهي مدينة كبيرة عامرة الأسواق رخيصة الاسعار ، محدقة بها البساتين والأشجار ، غزيرة المياه ، واسعة الكُوَر ، لها أربعة أقاليم هي متصلة بجبل لبنان : إقليم يُعرف بأقليم جزين ، وفيه مجرى وادي الحَرّ ، وهو مشهور بالخصب وكثرة الفواكه ، وإقليم السّرَبّة ، وهو إقليم جليل ، وإقليم كَفَرْفيلا ، وإقليم الرّامي ، وهو نهر يشق جبالها ويصب إلى البحر . وجميع هذه الأربعة أقاليم تشتمل على نيّف وستمئة ضيعة .وشرب أهلها من ماء يجري اليها من جبلها في قناة .

ومن مدينة صيدا إلى حصن الناعمة وهو كالمدينة الصغيرة عشرون ميلاً . والناعمة مدينة حسنة، وأكثر نبات أرضها شجر الخُرنوب ، الذي لا يُعرف بمعمور الأرض مثله قدراً ولا طيباً . ومنها يُتجهّزُ به إلى الشام وإلى ديار مصر . واليها ينسب الخرنوب الشامي ، وإن كان الخرنوب في الشام كثيراً فهو بالناعمة أكثر وأطيب . ومن حصن الناعمة إلى طرف بيروت أربعة وعشرون ميلاً . »

الغوص على اللؤلؤ في الخليج الغربي

وأهم جزر البحرين أوال وهي على مسيرة خمسين مرحلة من برّ الفرس ، وأربع مراحل من بر العرب ، طولها ستة أميال في عرض ستة أميال .. وحاضرة جزيرة أوال اسمها البحرين ، وهي مدينة عامرة ... وفي هذه الجزيرة غاصة اللؤلؤ ، في المدينة التي

يصل اليها التجار من جميع أنحاء الارض ومعهم المال الوفير . ويترقبون شهوراً طوالاً موسم الغوص . ويستأجر التجار الغوصة مقابل جعل [1] معلوم يتفاوت مع جودة الصيد واعتقاد التجار بمهارة الغاصة . ويكون الغوص في أغشت وشتنبر وقبل هذا إذا كانت المياه صافية . ويصطحب كل تاجر الغواص الذي اكتراه ، وتخرج المراكب جماعة من الميناء في ما ينيف على مئتي دونج ، وهي فلك أكبر من الفلك العادي ، يقسم التجار سطحها إلى خمس أو ست بلنجات [2] منفصلة . ومع كل غواص رفيق مساعد اسمه المصفّي ، له نصيب في الكراء ، ويخرج مع الغاصة أدلاء حذاق يعرفون المواضع لأن للأصداف مواضع تغشاها ، تذهب اليها وتخرج منها حسب الوقت وتعرفها .. فإذا خرج الغاصة من جزيرة أوال ، قادهم الدليل حتّى إذا وصلوا إلى المواضع المعلومة خلع الدليل ملابسه وغاص ونظر . فاذا وجد المكان مناسباً خرج وأمر بطيّ الشراع والأناجر (المراسي) وكذلك فعل بقية الدوانج (الزوارق) ويبدأ الغواصون في العمل .

ويبلغ عمق قيعان الصيد من اثنين إلى ثلاثة باعات ، ويستر الغواص سوأته ، ويسدد خياشيمه بالخلنجل وهو دهان من المومياء المذاب مع زيت السمسم ، ومعه سكين وكيس ، ويحمل حجراً وزنه اربعة قناطير أو ما أشبه ، معلق بخيط رفيع متين ، وهو يلقى في الماء من ناحية المركب ، ويمسك المصفي بهذا الخيط بينما

---

١ — الجعل : الأجر .

٢ — البلنجات : حجرات السفينة .

يقف الغواص على الحجر ويمسك الحبل بيديه متأهباً للقفز في البحر ثم يترك المصفي الحبل فينزل الغواص والحجر سريعاً إلى قاع الماء ، وهو واقف على الحجر ممسك الحبل بيديه .. فاذا وصل إلى القاع جلس وفتح عينيه ، وجمع عاجلاً كل الأصداف حوله . فاذا ملأ الكيس انتهى عمله ، وإلا فإنه يسعى قليلاً دون أن يترك الحبل أو الحجر . فاذا تعب صعد إلى سطح البحر ليتنفس ثم يغوص ثانية .. فاذا امتلأ الكيس جذب المصفي الحبل والكيس وأفرغه في البلنج وأرسله ثانياً إلى الغواص في البحر .. وما دام الغواص يجد الأصداف فهو يستمر في صيدها ..

وبعد ساعتين يصعد الغواصون ويلبسون ملابسهم وينامون . ويأخذ المصفي في فتح المحار (الصدف) بحضور التاجر الذي يجمع ما يخرج ويسجله في زمام . ويأكل الجميع قبيل الغروب ، وينامون طول الليل حتى يبدأ العمل في اليوم التالي بعد الإفطار . وهكذا طوال الموسم . فاذا فرغوا من قاع انتقلوا إلى غيره ، حتى ينتهي الموسم بنهاية شهري اغشت وشتنبر ، ويعودوا إلى أوال ومعهم اللآلئ محزومة في أوطاب . وعلى كل وطاب اسم صاحبه وعلامته ، وهو مغلق مختوم ، وتسلم الأكياس إلى الوالي بمجرد مغادرة السفن . ويأتي يوم البيع فيجتمع التجار ، ويؤتى بكل وطاب وينادى على اسم صاحبه . ثم يكسر الختم وتفرغ اللآلئ في ثلاثة أنواع من « الغرابيل » ذات ثقوب تختلف اتساعاً . ثم تباع الكمية بالمناداة ، فاذا أراد التاجر أن يحتفظ بها قيدت باسمه ، وإلا فانه يبيعها ويقبض ثمنها نقداً ، وتدفع أجور الغاصة ومساعديهم نقداً .

وينصرف الجميع مغتبطين .. ويأخذ صاحب قيس أتاوة معلومة يدفعها التجار ، وهي تجمع باسمه أثناء البيع وترسل اليه . ويحتفظ صاحب أوال باللآلئ النادرة ليرسلها للخليفة .

واللؤلؤ ينمو داخل الصدفة .. ويقول سكان بحر فارس إنها تنمو حسب أمطار شهر فبراير .. فاذا لم تمطر في ذلك الوقت ، لم يجدها التجار طوال العام . وهذه مسائل ثابتة لا يشك في شأنها أحد من سكان البلاد .

وتعلّم حرفة الغوص في فارس ، ويدفع للتمرّن عليها بعض المال .. فإن الغواص يتعلم كيف يتنفس من آذانه ، ويحدث في بدء تعليمه أن تصاب الآذان بالتهاب حاد ، ويخرج منها صديد وتعالج بالعقاقير . وتدفع أحسن الاجور للغواص الذي يبقى في الماء أكثر من غيره . وهم يعرفون بعضهم تحت الماء ، ولا يعتدون على حدود بعضهم البعض ، ولا يدّعون التميّز على غيرهم ، ولكنهم يتبارون في نشاطهم . وأغلب مغاصات اللؤلؤ في بحر فارس ، وبها ثلاثمئة مشهورة مطروقة ولقد ذكرنا أغلبها في مواضعها ، أي في الكلام عن سواحل البحار والجزائر . ومغاصات هذا البحر أغنى وأكثر غلةمن مثيلاتها بالهند واليمن ،ولذا أسهبنا في وصفها . »

مدينة اغمات

مدينة يكتنفها جبل درن .. فاذا كان زمن الشتاء تحللت الثلوج النازلة بالجبل فيسيل ذوبانها إلى المدينة وربما جمد به النهر في

وسطها حتى يجتاز الأطفال عليه وهو جار فلا يتكسر لشدة جموده . وهذا شيء عايناه بها غير ما مرة .

ومدينة أغمات أهلها من الهوارة من القبائل المتبربرين بالمجاورة وهم أملياء تجار مياسر ، يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة قناطير الأموال من النحاس الأحمر والملوّن والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر ، وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار ، وضروب من الأفاوية والعطر وآلات الحديد المصنوع . وما منهم رجل يسفر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المئة جمل والسبعون والثمانون جملاً كلها موقرة. ولم يكن في دولة الملثم أحد أكثر منهم أموالاً ولا أوسع منهم أحوالاً . وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم . وذلك أن الرجل منهم إذا ملك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه ، واربعة آلاف يصرفها في تجارته ، أقام على يمين بابه وعن يساره عرصتين من الأرض إلى السقف . وبنيانهم بالآجر والطوب والطين أكثر ، فاذا مرّ الخاطر بدار ونظر إلى تلك العرص مع الأبواب قائمة ، عدّها فيعلم من عدّها كم مبلغ صاحب الدار لأنه قد يكون من هذه العرص خلف الباب أربع وست مع كل عضادة (خشبة جانب الباب) اثنتان وثلاث .

وأما الآن في وقت تأليفنا لهذا الكتاب فقد أتى على أكثر أموالهم المصامدة وغيرت ما كان بأيديهم من نعم الله . ولكنهم مع هذا أملياء مياسير أغنياء ، لهم نخوة واعتزاز لا يتحولون عنه .

مدينة مراكش

وشمال هذه المدينة (أغمات) وعلى ١٢ ميلاً منهـا مـدينة بناها يوسف بن تاشفين في صدر سنة ٤٧٠ بعد أن اشترى أرضها من أهل أغمات بجملة أموال واختطها له ولبني عمه . وهي في وطأ من الأرض ليس حولها شيء من الجبال إلاّ جبل صغير يسمى الجليز . ومنه قطع الحجر الذي بنى به قصر أمير المسلمين علي ابن يوسف بن تاشفين وهو المعروف بدار الحجر ، وليس في مدينة مراكش حجر ألبتة إلا ما كان من هذا الجبل . وانما بناؤها بالطين والطوب والطوابي المقامة من التراب .. وماؤها الذي تسقى بـه البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة . استخرج ذلك عبد الله ابن يونس المهندس ، وسبب ذلك أن ماءهم ليس ببعيد الغور ، موجود إذا احتفر قريباً من وجه الأرض ، وذلك أن هذا الرجل المذكور وهو عبد الله بن يونس جاء إلى مراكش في صدر بنائها ، وليس بها إلا بستان واحد لأبي فضل موسى أمير المسلمين المقدم ذكره . فقصد إلى أعلى الأرض مما يلي البستان فاحتفر له بـئراً مربعة كبيرة التربيع ، ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر عـلى وجه الأرض . ومر يحفر بتدريج من أرفع إلى أخفض متدرجـاً إلى أسفله بميزان حتى وصل الماء إلى البستان ، وهو منسكب مـع وجه الأرض يصب فيه . فهو جار مع الأيام لا يفتر وإذا الناظر إلى مسطح الأرض لم ير بها كبير ارتفاع يوجب خروج الماء من قعرها إلى وجهها ، وإنما يميز ذلك عالم بالسبب الذي استخرج به ذلك الماء . والسبب هو الوزن للأرض فاستحسن ذلك أمير المسلمين

من فعل عبيد الله بن يونس وأعطاه مالاً وأثواباً وأكرم مثواه مدة بقائه عنده .

ثم إن الناس نظروا إلى ذلك ولم يزالوا يحفرون الأرض ويستخرجون مياهها إلى البساتين حتى كثرت البساتين والجنات ، واتصلت بذلك عمارات مراكش وحسن قطرها ومنظرها .

ومدينة مراكش في هذا الوقت من أكبر مدن المغرب الأقصى لأنها كانت دار إمارة لمتونة ومدار ملكهم وسلك جميعهم . وكان بها اعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدم الدولة . وأزقتها واسعة ورحابها فسيحة ومبانيها سامية وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة وكان بها جامع بناه أميرها يوسف فلما كان في هذا الوقت وتغلب عليها المصامدة تركوا ذلك الجامع معطلاً مغلق الأبواب ولا يرون الصلاة فيه ، وبنوا لأنفسهم جامعاً يصلون فيه .

مدينة داي

ومدينة داي في أسفل جبل خارج من جبل درن ، وهي مدينة بها معدن النحاس الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس بمشارق الأرض ومغاربها ، وهو نحاس حلو ، لونه إلى البياض ، يتحمل التزويج ويدخل في لحام الفضة . وهذا المعدن ينسبه العوام إلى السوس ، وليست مدينة داي من بلاد السوس ، لأن بينهما مسافات أيام كثيرة . ومن هذا المعدن يحمل إلى سائر البلاد ويتصرف به في كثير من الأعمال .

ومدينة داي صغيرة لكنها كثيرة العامر ، والقوافل عليها واردة

وصادرة. ويزرع بها وبأرضها كثير من القطن، ولكنه بمدينة تادلة يزرع أكثر مما يزرع بمدينةداي، ومن مدينة تادلة يخرج القطن كثيراً، ويسافر به إلى الجهات، ومنه كل ما يعمل من الثياب القطنية ببلاد المغرب الأقصى ولا يحتاجون مع قطنها إلى غيره من أنواع القطن المجلوب من سائر الأقطار.

مدينة فاس

ومدينة فاس مدينتان بينهما نهر كبير يأتي من عيون تسمى عيون صنهاجة، وعليه في داخل المدينة أرجاء كثيرة تطحن بها الحنطة بلا ثمن له خطر. والمدينة الشمالية منها تسمى القرويين، وتسمى الجنوبية الأندلس، والأندلس ماؤها قليل، لكن يشقها نهر واحد يمر بأعلاها وينتفع منه ببعضها. وأما مدينة القرويين فمياهها كثيرة تجري منها في كل شارع وفي كل زقاق ساقية، متى شاء أهل الموضع فجروها فغسلوا مكانهم منها ليلاً، فتصبح أزقتهم ورحابهم مغسولة، وفي كل مدينة منها جامع ومنبر وإمام. وبين المدينتين أبداً فتن ومقاتلات. وبالجملة إن أهل مدينتي فاس يقتل بعضهم بعضاً.

وبمدينة فاس ضياع ومعايش ومبان سامية ودور وقصور ... ولأهلها اهتمام بحوائجهم ومبانيهم وجميع آلاتهم. ونعمها كثيرة والحنطة بها رخيصة الأسعار جداً دون غيرها من البلاد القريبة منها، وفواكهها كثيرة وخصبها زائد. وبها في كل منها عيون نابعة ومياه جارية، وعليها قباب مبنية ودواميس محنية ونقوش وضروب من

الزينة ، وبخارجها الماء مطرد نابع من عيون غزيرة ، وجهاتها مخضرّة مونقة وبساتينها عامرة وحدائقها ملتفة وفي أهلها عزة ومنعة .

بحيرة بنزرت

وهذه البحيرة من أعاجيب الدنيا ، وذلك أن بها اثني عشر نوعاً من السمك ، يوجد منها في كل شهر نوع لا يمتزج بغيره من أصناف السمك ، فإذا تم الشهر لم يوجد شيء من ذلك النوع في الشهر الآتي ، ثم يوجد في الشهر الآتي صنف من السمك آخر غير الصنف الأول لا يمتزج بغيره..هكذا لكل شهر نوع من السمك لا يمتزج بسمك غيره إلى كمال السنة ، هكذا في كل عام . وهذه الاثنا عشر نوعاً من الحوت التي ذكرناها هي البوري والقاجوج والمحم والطلنط والاشبيلينيات والشلبة والقاروص والعاج والجوجة والكحلاء والطنفلو والقلا .

ويتصل بهذه البحيرة من جهة الجنوب مع انحراف إلى الغرب بحيرة ثانية تسمى تينجة وطولها ٤ أميال في عرض مثلها وبينهما فم تتصل منه مياه إحداهما بالأخرى . وفي هاتين البحيرتين أمر عجيب ، وذلك أن ماء بحيرة تينجة عذب وماء بحيرة بنزرت ملح ، وكل واحدة من هاتين البحيرتين تصب في أختها ستة أشهر ثم ينعكس جريهما فتمسك الجارية عن الجري وتصب البحيرة الثانية إلى هذه الأولى ستة أشهر أخرى ، فلا بحيرة تينجة يتملح ماؤها ولا يعذب ماء بحيرة بنزرت ، وهذا أيضاً عجب من عجائب هذا الصقع . »

مدينة طليطلة

مدينة طليطلة من طَـَلـَبيرة شرقاً ، وهي مدينةعظيمة القطر ، كثيرة البشر حصينة الذات ، لها أسوار حسنة ، ولها قصبة فيهـا حصانة ومنعة . وهي أزلية من بناء العمالقة. وقليلاً ما رُئي مثلهـا إتقاناً وشماخة بنيان .. وهي عالية الذرى ، حسنة البقعة ، زاكيـة الرقعة . وهي على ضفة النهر الكبير المسمّى تاجُه ، ولهـا قنطرة من عجيب البنيان ، وهي قوس واحدة ، والمـاء يدخل تحت ذلك القوس كله بعنف وشدة جري . ومع آخر القنطرةناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعاً ، وهي تُصعِد الماء إلى أعلى القنطرة ، والماء يجري على ظهرها ، فيدخل المدينة .

ومدينة طليطلة كانت في أيام الروم دار مملكتهم وموضـع قصدهم ، ووجد أهل الاسلام فيها عند افتتاح الأندلس ذخائر كادت تفوق الوصف كثرة ، فمنها أنه وُجد بهاسبعون تاجـاً من الذهب مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة، ووجد بهـا ألف سيف مجوهر ملكي ، ووجد بها من الدر والياقوت أكياس وأوساق (حمول) ، ووجد بها من أنواع آنية الذهب والفضـة ما لا يحيط به تحصيل ، ووجد بهـا مائدة سليمان بن داود ، وكانت في ما يذكر من زمردة ، وهذه المائدة اليومة في مـدينة رومة . ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها ، وأنهار جارية مخترقة ، ودواليب دائرة وجنات يانعـة وفواكه عديمة المثال ،لا يحيط بها تكييف ولا تحصيل ، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة تكتنفها .

رومة

هي على جانبي نهر الصفر (أي التيبر) وهي مدينة مشهورة ومقر خليفة النصارى المسمّى بالبابا وهي على جنوبي خور البنادقة. وبلاد رومة غربي قلّفْرية. دَوْر سورها أربعة وعشرون ميلاً، وهو مبني بالآجر ولها واد يشق وسط المدينة، وعليه قناطر يُجاز عليها من الجهة الشرقية إلى الغربية.

وامتداد كنيسة رومة ستمئة ذراع في مثله وهي مسقّفة بالرصاص ومفروشة بالرّخام وفيها أعمدة كثيرة عظيمة، وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض رخام عظيم للمعمودية، وفيه ماء جار أبداً. وفي صدر الكنيسة كرسي من ذهب يجلس عليه البابا. وتحته باب مصفّح بالفضة يُدخَل منه إلى أربعة أبواب واحد بعد آخر يُفضي إلى سرداب فيه مدفونٌ بطرس حواريّ عيسى. ولهذه المدينة كنيسة أخرى مدفون فيها بولس، وبحذاء قبر بطرس حوض رخامٍ منقوش عظيم فيه فرش الكنيسة وستورها التي تزيّن بها في أعيادهم.»

رحلة ابن جبير

ابن جبير هو من أعظم الرحالة العرب إن لم يكن أعظمهم. ولد في بلنسية، ودرس فيها وتثقف. وفي سنة ١١٨٣ أبحر لأداء فريضة الحج تكفيراً عن كأس خمر شربها، بعد أن أجبره عليها ابو سعيد بن عبد المؤمن حاكم غرناطة، وكان ابن جبير كاتباً له يحضر مجالسه وأسماره. وانما كان إبحاره من جزيرة طريف إلى سبتة

فالاسكندرية ومن ثم بطريق القاهرة والبحر الأحمر إلى مكة . حتى إذا فرغ من حجه انقلب إلى العراق فالموصل فحلب ، فدمشق ، فعكا ومن ثم ركب البحر إلى صقلية فقرطاجنة ومنها وصل إلى غرناطة في العام ١١٨٥ . وبعد أربع سنوات استبد به الحنين إلى السفر فولى وجهه قبل المشرق مرة ثانية وقضى فيه عامين آخرين . وعندما بلغ سن الثالثة والسبعين من عمره غامر في رحلة أخيرة إلى المشرق ، ولكن المنية أدركته في الاسكندرية خلال هذه الرحلة .

ميزة رحلته

تتميز « رحلة ابن جبير » من سواها من الرحلات بأنها أشبه بيوميات سفر صاغها ابن جبير في اسلوب بارع وصور فيها بكلام سهل بسيط الاحاسيس التي اعتلجت في نفسه في المواضع التي زارها ، أو عند مشاهدته الآثار التي رآها . فجاءت رحلته ذات نفحة أدبية تمثل ذروة ما وصل اليه هذا الفن عند العرب من إتقان وجودة . هذا إلى عناية فائقة بالرسوم الدينية والمعاهد الثقافية والنواحي الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية مما يضفي على رحلته صفة التنوع والشمول التي تروعك بما فيها من ميل إلى التدقيق والاحصاء والتجربة والتنظيم والمقدرة على منح المرئيات إطار الحياة والواقع . واليك بعض ما اخترناه مما ورد في هذه الرحلة :

ثغر الاسكندرية والتفتيش الجمركي

أول ذي الحجة ٥٧٨ يوم الأحد ثاني يوم نزولنا بالاسكندرية

فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا بأن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها ، لتقييد جميع ما جلب فيه ، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً وكتبت اسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناضر ليؤدي زكاة (ضريبة) ذلك كله .. دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل . وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم ، فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يُسأل هل حال عليه حول أم لا . واستنزل أحمد بن حسان منا ليُسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب ، فطيف به مرقباً على السلطان أولاً ، ثم على القاضي ، ثم على أهل الديوان ، ثم على جماعة من حاشية السلطان .. وفي كل يُستفهم ثم يقيد قوله ، فخلّي سبيله ، وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم ، وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم . وحُمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان فاستدعوا واحداً واحداً ، وأحضر ما لكل واحد من الأسباب والديوان قد غصّ بالزحام ، فوقع التفتيش لجميع الأسباب مادقّ منها وما جل. واختلط بعضهم ببعض وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها ، ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم ما وجدوا لهم أم لا . وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وكثرة الزحام ، ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزي عظيم نسأل الله أن يعظم الأجر بذلك وهذه لا محالة من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين ..ولو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وايثار

الرفق لأزال ذلك .

« ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه (صلاح الدين الأيوبي) المدارس والمحارس (بيوت الطلاب والزهاد) الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي اليه ، ومدرّساً يعلمه الفن الذي يريد تعلّمه ، وإجراءً (راتباً) يقوم به في جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستاناً (مستشفى) لعلاج من مرض منهم ، ووكّل لهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد رُتّب فيه أيضاً أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة وينهون إلى اطباء يتفقدون أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم . ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان عيّن لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل ما بلغوا ، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أميناً من قبله فقد ينتهي إلى ألفي خبزة أو أزيد ، بحسب القلة والكثرة ... وأما أهل بلده ففي نهاية من الترفيه واتساع الأحوال . »

مستشفى القاهرة

« ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة ، وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً ، أبرزه لهذه

الفضيلة تأجّراً واحتساباً (طلباً للثواب من الله) . وعيّن قيماً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ، ومكّنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها . ووضعت في مقاصير (غرف) ذلك القصر أسرّة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكُسَى . وبين يدي ذلك القيّم خدَمة يتكلفون بتفقد أحوال المرضى بُكْرة وعشية ... وبازاء هذا الموضع مقتطع للنساء المرضى ولهن أيضاً من يكفلهن . ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء ، فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد ، اتخذت محابس للمجانين ، ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم ، ويقابلها بما يصلح لها . والسلطان يتطلع لهذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد . »

ميناء عيذاب وتجارة البحر الاحمر

عيذاب وهي مدينة على ساحل بحر جُدة غير مسوّرة ، أكثر بيوتها أخصاص (بيوت من الطين) وفيها الآن بناء مستحدث بالجص .. وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها ، زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة . وهي في صحراء لا نبات فيها ، ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب .. لكن أهلها ، بسبب الحجاج ، تحت مرفق (نفع) كثير ولا سيا مع الحاج لأن لهم على كل حمل طعام يجلبونه ضريبة معلومة خفيفة المؤونة ، بالاضافة إلى الوظائف المكوسية والتي كانت قبل اليوم التي ذكرنا رفع صلاح الدين لها .. ولهم أيضاً من المرافق

من الحاج إكراء الجلاب منهم وهي المراكب . فيجتمع لهم في ذلك مال كثير في حملهم إلى جدة وردهم وقت انفضاضهم من أداء الفريضة ، وما من أهلها ذوي اليسار إلا من له الجَلْبَةُ والجلبتان فهي تعود عليهم برزق واسع .

والجلاب التي يصرّفونها في هذا البحر الفرعوني ملفقة الانشاء لا يستعمل فيها مسمار ألبتة .. إنما هي مخيطة بأمراس من القنبار ، وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه (أي صناع السفن) إلى أن يتخيط ، ويفتلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب ويخللونه بدسُر (مسامير خشب) من عيدان النخل ، فاذا فرغوا من إنشاء الجَلْبة على هذه الصنعة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش (كلب البحر) وهو أحسنها ... ومقصدهم في دهان الجلبة ، ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر . ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسماري . وعود هذا الجلاب مجلوب من الهند واليمن وكذلك القنبار المذكور .. ومن أعجب أمر هذا الجلاّب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المُقْل فمجموعه متناسب في اختلال البنية ووهنها . »

في بغداد

وكنا سمعنا أن هواء بغداد يثبت السرور في القلب ويبعث النفس دائماً على الانبساط والأنس ، فلا تكاد تجد فيه إلا جذلان طرباً ، وإن كان نازح الدار مغتربا ، حتى حللنا بهذا الموضع

المذكور وهو على مرحلة منهافلما نفحتنا نوافح هوائها ، ونقعنا الغلة ببرد مائها .. أحسسنا من نفوسنا على حال وحشة الاغتراب ، دواعي من الاطراب ، واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة الغياب بالإياب ، وهبت بنا محركات من الأطراب ، ذكرتنا معاهد الأحباب ، في ريعان الشباب ، هذا للغريب النازح الوطن ، فكيف للوافد عليها على أهل وسكن

سقى الله باب الطاق صوب غمامة

وردّ إلى الأوطان كل غريب

(وهنا يمضي ابن جبير في وصف بغداد ، بساتينها وقصورها وأسواقها وحماماتها ، وصفاً مفصلاً دقيقاً ينتهي فيه إلى وصف المدرسة النظامية وطريقة التعليم فيها) .

المدرسة النظامية في بغداد وطريقة التعليم

فأول من شاهدنا مجلسه منهم الامام رضا الدين القزويني رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية والمشار اليه بالتقديم في العلوم الأصولية .. حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر ، فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه في القراءة على كراسي موضوعة ، فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مطربة ، ثم اندفع الشيخ الامام المذكور ، فخطب خطبة سكون ووقار ، وتصرّف في أفانين من العلوم ، من تفسير كتاب الله عز وجل ، وإيراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتكلم على معانيه . ثم رشقته شآبيب المسائل من

كل جانب فأجاب وما قصر ، وتقدم وما تأخر . ودفعت اليه عدة رقاع فجمعها جملة في يده ، وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ منها ، وحان المساء فنزل وافترق الجميع .. فكان مجلسه مجلس علم ووعظ ووقورا هيناً ليناً ظهرت فيه البركة والسكينة .

في الطريق إلى الموصل

وعن يمين الطريق إلى الموصل في وهدة من الأرض سوداء ، كأنها سحابة ، قد أنبط الله فيها عيوناً كباراً وصغاراً ، تنبع بالقار وربما يقذف بعضها بحباب منه كأنها الغليان . ويصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطاً على الأرض ، أسود أملس ، صقيلاً رطباً ، عطر الرائحة ، شديد التعلك فيلصق بالأصابع بأول مباشرة من اللمس . وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفه إلى جوانبها فيرسب قاراً ، فشاهدنا عجباً كنا نسمع به فنستغرب سماعه . وبمقربة من هذه العيون ، وعلى شط دجلة ، عين أخرى كبيرة أبصرنا على البعد منها دخاناً ، فقيل لنا ان النار تشعل فيه إذا أرادوا نقله فتنشف النار رطوبته المائية ، وتعقده فيقطعونه قطرات ويحملونه ، وهو يعم جميع البلاد إلى الشام إلى عكة إلى جميع البلاد البحرية .

الموصل

باطن الداخل منها بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره

المطيف بالبلد كله ، كان قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته وسعة وضعه . وللمقاتلة في هذه البيوت حرز ووقاية وهي من المرافق الحربية . وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها ، ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج وتتصل بها دور السكان . وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع ، يمتد من أعلى البلد إلى أسفله . ودجلة شرقي البلد وهي متصلة بالسور وأبراجه في مائها . وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والأسواق .

وفي سوقه قيسارية (مدينة) للتجار كأنها الخان العظيم تتعلق عليها أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت ، بعضها على بعض ، قد جلي ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف الذي لا مثيل له .. فما أرى في البلاد قيسارية تعدلها .

وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة فتلوح كأنها القصور المشرقة ولها مارستانات .

ابن جبير في ديار الشام

دمشق

جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق المشرق ، وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها . قد شملت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل سندسية من البساتين وحلت في موضوع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت في منعتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله

عليهما منها إلى ربوة ذات قرار ومعين . ظلّ ظليل وماء سلسبيل ، تنساب مذانبه انسياب الأراقم (الحيات) بكل سبيل ، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل . تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل ، وتناديهم : هلمّوا إلى معرّس للحسن ومقيل ، وقد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ ، فتكاد تناديك بها الصمّ الصلاب : اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . قد أحدقت بها البساتين إحداق الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر ، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر .. فكل موضع لحظتها بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر ، ولله صدق القائلين عنها : « إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها » .

وفي داخل البلدة كنيسة لها عند الروم شأن عظيم تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها . وهي حفيلة البناء تتضمن من التصاوير أمراً عجيباً ، تبهت الافكار وتستوقف الأبصار ، ومرآها عجيب ، وهي بأيدي الروم ولا اعتراض عليهم فيها .

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة وبها مارستان قديم وحديث ، والحديث أحفلهما وأكبرهما ، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً ، وله قَوَمَة بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك . والأطباء يبكرون اليه في كل يوم ، ويتفقدون المرضى ، ويأمرون باعداد ما يصلح من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل انسان منهم .

والمارستان الآخر على هذا الرسم، لكن الاحتفال في الجديد أكثر. وهذا القديم غربي الجامع المكرم .. وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج وهم في سلاسل موثقون.

سلام اهل دمشق

ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة. وإذا لقي أحد منهم آخر مسلّماً يقول جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطيا. والجد عندهم عنقاء مغرب. وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود فترى الأعناق تتلاعب ما بين رفع وخفض وبسط وقبض. وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هوياً. وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء وعند استعراض رقيق الإماء. فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلّوا بسمات ربات الحجال!

حلب

وأما البلد فموضوعه ضخم جداً حفيل التّركيب بديع الحسن واسع الاسواق كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية. وكلها مسقف بالخشب فكأنها في ظلال وارفة. فكل سوق منها تقيد الأبصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً. وأما قيساريتها

فحديقة بستان نظافة وجمالا ، مطيفة بالجامع المكرّم لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها ، ولو كان من المرائي الرياضية . وأكثر حوانيتها من الخشب البديع الصنعة ، قد اتصل السماط خزانــة واحدة وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش ، وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم .

وقراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مدّ البصر عرضاً وطولاً .. وخانات هذه الطريق كأنها القلاع امتناعاً وحصانة ، وأبوابها حديد .. وهي من الوثاقة في غاية .

حمص

وأما داخلها فما شئت بادية شعثاء خلقة الأرجاء ملفقة البناء ، لا إشراق لآفاقها ولا رونق لأسواقها ، كاسدة لا عهد لها بنفاقها . وما ظنك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة ، وهو معقــل العدو .. فهو منه تتراءى ناره ، ويحرق إذ يطير شراره ، ويتعهد إذا شاء كل يوم مغاره . وسألنا أحد الأشياخ بهذه البلدة : هــل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات ؟ فقال ، وقد أنكر ذلك : « حمص كلها مارستان » وكفاك شهادة أهلها بهــا .. وبها مدرسة واحدة ، وتجد في هذه البلدة عند اطلاعك عليها من بعد في بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها بعض شبه بمدينة « اشبيلية » من بلاد الأندلس يقع للحين في نفسك خياله ، وبهذا الاسم سميت في القديم . وهي العلة التي أوجبت نزول الاعراب أهــل

حمص فيها حسبما يذكر .

في جبل لبنان

وعلى كل من وفق الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد ، يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال ، وينهال الخبز عليه من الضيعة ، ويلتزم الامامة والتعليم أو ما شاء . ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى أو يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودي ، فيلقى بها المريدين المنقطعين إلى الله عز وجل ، فيقيم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء . ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان أذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا اليهم ، ويقولون هؤلاء من انقطع إلى الله عز وجل فيجب مشاركتهم . وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا ، فيه أنواع الفواكه ، وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة وقلّما يخلو من التبتل والزهادة . وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة ، فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض .

شجرة الميزان

وقرية بيت جن هي بين جبال .. ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت إلى مدينة بانياس واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلّوط عظيمة الجرم متسعة التدويح ، أُعلمنا أنها تعرف بشجرة الميزان . فسألنا عن ذلك ، فقيل لنا هي حدّ بين الأمن والخوف في هذه

الطريق لحرامية الافرنج ، وهم الحواسة والقطاع . من أخذوه وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أسر ، ومن أخذ دونها إلى جهة الافرنج بقدر ذلك أطلق سبيله .. لهم في ذلك عهد يوفون به ، وهو من أطرف الارتباطات الافرنجية وأغربها .

التمكيس

واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف الشجر ، وأكثر شجره الرند.. بعيد العمق كأنه الخندق المهوي تلتقي حافتاه بالسماء ، أعلاه يعرف بالاسطبل ، لو ولجته العساكر لغابت فيه ، ولا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه . المهبط اليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان ، فعجبنا من أمر ذلك المكان فأجزناه ومشينا عنه يسيراً . وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الافرنج ، يعرف بتبنين وهو موضع تمكيس القبائل ، وصاحبته تعرف بالملكة وهي أم صاحب عكة ، فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ومكس النار تمكيساً غير مستقص . والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ولا اعتراض على التجار لأنهم يقصدون موضع الملك وهو محل التعشير . والضريبة فيه قيراط من الدنانير والدينار أربعة وعشرون قيراطاً . وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم .

بين العرب والصليبيين

ومن أعجب ما يحدث أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين :

مسلمين ونصارى ، وربما يلتقي الجمعان ، ويقع المصافّ بينهم ، ورفاقُ المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم .
شاهدُنا في هذا الوقت الذي هو جمادى الأولى ، من ذلك خروج صلاح الدين ، بجميع عساكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البَرّ ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشفّ (أكثر) قليلاً ، وهو شرارة أرض فلسطين ، وله نظار عظيم الاتساع ، متّصل العمارة ، يُذكر أنه ينتهي إلى اربعمئة قرية ، فنازله هذا السلطان وضيّق عليه ، وطال حصاره . واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الأفرنج غير منقطع ، وتجّار النصارى أيضاً لا يُمنع أحد منهم ولا يُعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم ، والاعتدال في جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية والدنيا لمن غلب .

هذه سيرة أهل هذه البلاد في بلادهم . والفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ، ولا تعترض الرعايا ولا التجار فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً ، وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يُستوفى الحديث عنه .

ضرائب الافرنج على المسلمين

ورحلنا من تبنين سحر يوم الاثنين وطريقنا كله على ضياع

متصلة وعمائر منتظمة ، سكانها كلهم مسلمون وهم مع الافرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة . وذلك لأنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك . ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً . ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم . وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع ، وقد اشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم لأنهم على أشد أحوالهم من الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكي الصنف الاسلامي صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك من الأفرنج ويأنس بعدله !

ومررنا في طريقنا بضيعة من ضياع عكة على مقدار فرسخ ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الافرنج على من فيها من عمارها المسلمين .. فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة ، وأحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة متسعة بمنزله وأناهم ألواناً من الطعام قدمها فعمّهم بتكرمته ، وكنا في من حضر هذه الدعوة . »

عرس في صور (لبعض الصليبيين)

ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدّث بها ، زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها ، وقد احتفل لذلك

جميع النصارى رجالاً ونساء ، واصطفّوا سماطين ، عند بابه العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجَتْ تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، كأنهما من ذوي أرحامها ، وهي في أبهى زيّ وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهّب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حُفّت بشبكة ذهب منسوجة ، وعلى لَبّتها (أعلى صدرها) مثل ذلك منتظم ، وهي رافلة في حَلْيها وحُللها ، تمشي فِتراً في فتر ، مشي الحمامة أو سير الغمامة. نعوذ بالله من فتنة المناظر ، وأمامها جِلّة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهية ، تسحب أذيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفس الملابس ، ويرفُلْن في أرفل الحلى ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد غدوا في طريقهم سماطين ، يتطلعون فيهم ، ولا ينكرون عليهم ذلك ، فساروا حتى أدخلوها دار بعلها ، وأقاموا يومهم ذلك في وليمة .

عكاء

وهي قاعدة مدن الافرنج بالشام ، ومحطّ الجواري (السفن) المنشآت في البحر كالأعلام ، مرفأ كل سفينة ، والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية .. مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق .. سككها وشوارعها تغصّ بالزحام ، وتضيق فيها مواطئ الاقدام .. وصلنا إلى الديوان وهو خان معدّ

لنزول القافلة ، وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهبة الحلى وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها ، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له ، يعرف بالصاحب لقب وقع عليه فمكانه من الخطة وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند ، وكل ما يجبى عندهم راجع إلى الضامن . وضمان هذا الديوان بمال عظيم . فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا في أعلاه . وطلب رحل من لا سلعة له لئلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه وأطلق سبيله . فنزل حيث شاء وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل .. فنزلنا بها في بيت اكتريناه من نصرانية بازاء البحر .

ذكر بلارمة وملكها غليوم

وبلارمة هذه مسكن ملكهم غليام . وهي أحفل مدن صِقلّية وبعدها مسّينة . وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة . وهو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن اليهم في أحواله والمهمّ من أشغاله ، حتى ان الناظر في مطبخه رجل من المسلمين ... ومن عجيب شأنه المتحدّث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وعلامته – على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به – الحمد لله حق حمده ، وكانت علامة أبيه : الحمد لله شكراً لأنعمه . وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن ، ومن أعجب ما حدثنا به خديمه ، وهو يحيى بن فتيان الطراز : أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره ، فتعود مسلمة ، تُعيدها الجواري المذكورات مسلمة ، ومن

على تكتّم في ذلك كله ، ولهن في فصل الخير أمور عجيبة ...
وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون ، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً وتأجراً ، ويتصدق تقرباً إلى الله وتزلفاً ... ولهم في فعل الجميل أخبار مأثورة ، وفي افتكاك الأسرى صنائع عند الله مشكورة ، وجميع خدمتهم على مثل أحوالهم . ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان أنهم يحضرون عند مولاهم ، فيحين وقت الصلاة ، فيخرجون أفراداً من مجلسه ، فيقضون صلاتهم .

وأما بلارمة فهي بهذه الجزيرة أم الحضارة ، والجامعة بين الحسنيين غضارة ونضارة ، فما شئت بها من جمال منظر ومخبر ، ومراد عيش يانع أخضر ، عتيقة أنيقة ، مشرقة مونقة ، تتطلع بمرأى فتان ، وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان ، فسيحة السكاك والشوارع ، تروق الأبصار بحسن منظرها البارع ، عجيبة الشأن ، قُرْطُبِيّة البنيان ، ومبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذّان ، يشقها نهر معين ، ويطرد في جنباتها أربع عيون ، قد زُخْرِفت فيها لملكها دنياه ، فاتخذها حضرة ملكه الإفرنجي أباده الله ، تنتظم بلبّتها قصوره انتظام العقود في نحور الكواعب ، ويُتقلّب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب ، فكم له فيها — لا عمرت به — من مقاصير ومصانع ، ومناظر ومطالع ، وكم له بجهاتها من ديارات قد زخرف بنيانها ، ورفّه بالإقطاعيات الواسعة رُهْبانها ... وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان ، يعمرون أكثر مساجدهم ، ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم

أرباض (أحياء) قدانفردوا فيهابسكناهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها ، ولا جمعة لهم بسبب الخطابة المحظورة عليهم ، ويصلّون الأعياد بخطبة ، دعاؤهم فيها للخليفة العباسي ، ولهم بها قاض يرتفعون اليه في أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه ، ويحتفلون في وقيده (إنارته) في هذا الشهر المبارك ، وأما المساجد فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن . وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ، ولا أمن لهم في أموالهم ولا في حريمهم ولا أبنائهم ... وزيّ النصرانيات في هذه المدينة زيّ نساء المسلمات ، فصيحات الألسن ، ملتحفات ، مُنْتَقِبات يلبسن ثياب الحرير المذهب ، ويلتحفن اللحف الرائقة ، وينتقبن بالنقب الملونة ، وينتعلن الأخفاف المذهبة ، يبرزن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر » .

رحلة ابي حامد الغرناطي

هي رحلة إلى افريقية الشمالية وشرقي اوروبة وبلاد الشام والعراق زار فيها أبو حامد صقلية (١١١٧) ومنها ذهب إلى مصر ، ثم غادرها إلى ناحية بحر الخزر (البحر الأسود) ووصل إلى ضفاف الفولغا ، ثم طاف ببلاد الخزر والبلغار وزار عاصمة خوارزم ، وقد سجلت مشاهداته أثناء رحلته في كتاب له اسمه « تحفة الأصحاب ونخبة الإعجاب » ، وهو كتاب يتألف من مقدمة وأربعة أبواب : الأول « في صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها » . والثاني « في

صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان » . والثالث « في صفة البحار وعجائب حيواناتها » . والرابع « في صفة الحفائر والقبور » .

كان حظ أبي حامد من الثقافة والنقد قليلاً ، ولذلك كثر في كلامه ذكر الخرافات والخوارق . وقد أخذ عنه القزويني كثيراً من هذه المادة . وهاإننا هنا نورد بعض المختارات مما كتبه أبو حامد عن بلاد الصقالبة والبلغار واقليم باشغرد :

أبو حامد في بلاد البلغار

« ويوجد ، في أرض البلغار من عظام قوم عاد ، السنّ الواحد عرضه شبران وطوله أربعةأشبار ، ومن رأسهإلى منكبه خمسة أبواع ، ورأسه مثل القبة العظيمة ، وهو هناك كثير . وتوجد تحت الأرض أنياب الفيلة و (الناب) أبيض كالثلج ، ثقيل كالرصاص ، الواحد مائتا مَنّ (المن كيل يزن ٢٨٠ مثقالاً) وأكثر وأقل ، لا يُدْرَى من أي حيوان هو يُقْطَعُ ويحمل إلى خوارزم وخراسان ، وتتخذ منه الأمشاط والحِقاق وغير ذلك كما يتخذ من العاج ، وهو أقوى من العاج لا ينكسر .

وفوق هذه الولاية أمم لا عدد لهم يعطون الجزية لملك بلغار ... ولهم ولاية تؤدي الخراج بينهم وبينهامسيرة شهر ، يقال لها ويسوا وولاية أخرى يقال لها يورا فيها يصطاد القندزوالقاقم والسنجاب الجيد . والنهار يكون هنالك في الصيف اثنتين وعشرين ساعة . ومنهم تجئ جلود القندز الجيد النمائق . والقندز : حيوان عجيب يكون في الأنهار العظام ويتخذ بيوتاً في البر إلى جانب النهر .

ووراء ويسوا ولاية تعرف بيورا على بحر الظلمات يكون النهار عندهم في الصيف طويلاً جداً ، حتى إن التجار يقولون إن الشمس لا تغيب مقدار أربعين يوماً ، وفي الشتاء أيضاً يكون الليل طويلاً مثل ذلك . والناس يحملون من بلاد الاسلام سيوفاً تُتّخَذُ في زنجان وأبهر وتبريز وأصفهان ، ولا يتخذون لها آلة ولا حلية إلا حديداً كما يخرج من النار ... وذلك السيف هو الذي يصلح أن يحمل إلى يورا . وأهل يورا ليس عندهم دواب ولا مواش إلا أشجاراً عظيمة وغياضاً يكثر فيها العسل ، ويكثر عندهم السمّور جداً ، ويأكلون لحمه . والتجار يحملون اليهم هذه السيوف وعظام البقر وعظام الغنم ، ويأخذون أثمانها جلود السمور ، ولهم في ذلك ربح كثير . والطريق اليهم في أرض لا يفارقها الثلج أبداً . ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحاً ينحتونها ، طول كل لوح باع ، وعرضه شبر ، مقدم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان عن الأرض ، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي فيه رجله ، وفيه ثقب قد شدّوا فيه سيوراً من جلود قوية يشدونها على أرجلهم ، ويقْرن الرجل بين اللوحين اللذين يكونان في رجله بشندال طويل مثل عنان الفرس ، يمسكه في يده الشمال ، وفي يده اليمنى عصاً بطول الرجل . وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خفيفة . ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج ، ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح في السفينة . فيذهب على ذلك الثلج بسرعة ، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحداً أن يمشي هناك البتة ، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبّد ،

وأي حيوان مشى عليه يغوص فيه فيموت إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب فإنها تمشي عليه بخفة وبسرعة . والثعالب والأرانب في تلك البلاد تبيضّ جلودها ، حتى تكون مثل القطن ، وكذلك الذئاب أيضاً تكون في ناحية بلغار تبيض جلودها في زمن الشتاء .

وتلك السيوف تُحْمَل من بلاد الإسلام إلى بلغار ، وفيها ربح كثير ، ثم يحملها البلغاريون إلى « ويسوا » موضع القندز ، ثم أهل ويسوا يحملونها إلى « يورا » يشترونها بجلود السمور وبالجواري والغلمان . ثم كل آدمي يكون هناك يحتاج كل سنة إلى سيف يلقيه في بحر الظلمات . فإذا ألقوا السيوف أخرج الله لهم من البحر سمكة مثل الجبل العظيم تطردها سمكة أخرى أكبر منها أضعافاً مضاعفة ، تريد أكلها ، فتفرّ الصغرى من الكبرى ، فتقرب من البر وتصير في موضع لا يمكنها الرجوع منه إلى البحر ، فتبقى هناك ، وترجع الكبرى إلى البحر ، ويدخل أهل يورا إلى البحر في السفن ويقطعون من جوانبها ، وليس عند السمكة من ذلك حس ولا تتحرك ، فيملئون بيوتهم من لحمها ويصعدون على ظهرها وهي كالجبل العظيم . » .

« ولقد حُدِّثْتُ ببلغار أن سمكة من تلك السمك في بعض السنين ثقبوا أذنها ، وجعلوا فيه حبالاً ، وجرّوا تلك السمكة ، فانفتح أذنها ، وخرج من داخلها جارية تشبه الآدمية ، بيضاء حمراء الخدين ، سوداء الشعر ، من أحسن النساء ، فأخذها أهل يورا وأخرجوها إلى البر ، وتلك الصورة تضرب وجهها وتنتف شعرها

وتصيح ، وقد خلق الله في وسطها مثل جلد أبيض ، كالثوب الصفيق القوي ، من وسطها إلى ركبتها يستر عورتها ، كأنه إزار مشدود على وسطها ، فأمسكوها حتى ماتت عندهم ، وقدرة الله تعالى لا نهاية لها » . ويقول :

« وأهل ويسوا ويورا يُمْنَعُون في الصيف من دخول بلاد البلغار ، لأنه إذا دخل في تلك الديار منهم واحد في شدة الحر يبرد الهواء والماء مثل الشتاء ، وتفسد على الناس زروعهم ! وهذا مجرب عندهم ! وقد رأيت في بلغار زمان الشتاء جماعة منهم حمر الألوان زرق العيون ، شعورهم مثل الكتان إلى البياض ، يلبسون ثياب الكتان في ذلك البرد ، ويكون على بعضهم فراء من جلود القندز الجياد . وشَعْر ذلك القندز إلى خارج مقلوباً ، ويشربون ماء الشعير الحامض مثل الخلّ ، فيوافقهم لحرارة مزاجهم ، لأكلهم لحم القندز والسنجاب والعسل . وفي بلادهم نوع من الطير الكبير ، لها مناقير طوال ، مقلوبة على اليمين وعلى الشمال ، الأعلى على اليمين ستة أشبار ، وعلى الشمال ستة أشبار مثل لام ألف . وإذا وقعت بيضة هذا الطير على الجمد أو الثلج أذابته كما تذيب النار . »

في بلاد الصقالبة

« ولما دخلتُ إلى بلاد الصقالبة خرجت من بلغار وركبت سفينة في نهر الصقالبة وماؤه أسود مثل ماء بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) كأنه الحبر ، وهو مع ذلك حلو طيب صاف ،

ليس فيه سمك ، وفيه الحيات السود الكبار ، بعضها على بعض ، أكثر من السماك ، لا تؤذي أحداً . وفيه حيوان مثل السنّوْر الصغير ، له جلد أسود يسمى سَمّور الماء تحمل جلوده إلى بلغار ... ولما وصلت إلى بلادهم رأيت بلاداً واسعة ، كثيرة العسل والحنطة والشعير والتفاح الكبير ... ويتعاملون بينهم بجلودالسنجاب القديم الذي لا شَعْر عليه ... وللصقالبة سياسات عظيمة ، إذا تعرض أحد لجارية غيره أو ولده أو دابته أو تعدّى بأي شيء من التعدي كان ، أُخذ من المتعدّي جملة من المال ، فإن لم يكن له مال بيع أولاده وبناته وزوجته في تلك الجناية ، فإن لم يكن له أهل ولا أولاد بيع هو ، فلا يزال عبداً يخدم من يكون عنده حتى يموت ... وبلادهم آمنة ، وإذا عامل المسلم منهم أحداً وأفلس الصقلبيّ بيع هو وأولاده وداره ، ويعْطَى لذلك التاجر دينه . والصقالبة شجعان ، وهم على مذهب الروم في النصرانية ، نسطورية ... وحُدّثت عنهم أنهم كلّ عشر سنين يكثر السحر عندهم وتفسد عليهم نساؤهم بالعجائز السحرة ، فيأخذون كل عجوز في ولايتهم ، فيشدون أيديهن فأرجلهن ويلقينهن في النهر ، فكل من رسبت من العجائز في الماء تركوها ، وعلموا أنها ليست بساحرة ، والتي تطفو على الماء يحرقونها بالنار . »

في إقليم باشغرد

« ملك باشغرد يسمى كزالي ، وملكه أعظم من ملك صاحب الروم أضعافاً مضاعفة ، لا تُحصَى جنده ، وولايته أكثر من

ولاية الروم عشرين يوماً وأكثر ، وهو على مذهب الافرنج (مسيحي) لأنه تزوج منهم ، ويغزو بلاد الإفرنج ويَسْبيهم ، وجميع الأمم يخافون من شره لكثرة جنده وشدة بأسه ... وفي باشخرد بقر وحشية كبار أمثال الفيلة ، جلد الواحد منها حمل بغلين قويين ورأسه حمل عَجَلة ، يصطادونه ويسمى التَّيْتل وهو من أعجب الحيوان ، طيب اللحم ، سمين ، وقرونه كبار طوال مثل أنياب الفيلة . »

رحلة أسامة بن منقذ

لم يكن أسامة بن منقذ رحّالة بالمعنى الفني للكلمة ، بل كان بطلاً من أبطال الحروب الصليبية وأديباً شاعراً ، تنقل في المعارك بين مصر وسورية وبغداد ، ودوّن مشاهداته فيها في مذكرات له شيقة رائعة ، تضمنها كتابه الذي سمّاه « الاعتبار » ، وهو كتاب يقدم لنا أسامة بن منقذ فيه صورة واضحة عن حياة الصليبيين في بلادنا ، ويصف مشاهداته لهم في دياره أثناء الحرب وفي السلم وصفاً دقيقاً شيّقاً يتميّز بأسلوبه القصصي واعتدال صاحبه واتزانه ولهجته الشخصية الصادقة . وفي ما يلي مختارات مما كتبه هذا البطل . قال :

محاكمات افرنجية

« شهدتُ يوماً بنابلس ، وقد أحضروا اثنين للمبارزة . وكان سبب ذلك أن حراميّة من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع

نابلس ، فاتهموا بها رجلاً من الفلاحين ، وقالوا : هو دلّ الحرامية على الضيعة ، فهرب . فأنفذ الملك (ملك أورشليم) من قَبَضَ أولاده ، فعاد اليه ، وقال أنصفني أنا أبارز الذي قال عني : إني دللت الحرامية على القرية ، فقال الملك لصاحب القرية المُقْطع (الإقطاعي) أحضرْ من يبارزه ، فمضى إلى قريته ، وفيها رجل حدّاد ، فأخذه وقال له : تبارز إشفاقاً من المقطع على فَلاّحيه ، أن يقتل منهم واحد ، فتخرب فلاحته . وشاهدت هذا الحداد ، وهو شاب قوي ... يمشي ويجلس ، يطلب ما يشربه ، وذلك الآخر الذي طلب البراز شيخ إلا أنه قوي النفس يزمجر ، وهو غير محتفل بالمبارزة ، فجاء البسكند وهو شحنة البلد (الذي يضبطها من جهة الحاكم) فأعطى كل واحد منهما العصا والترس ، وجعل الناس حولهم حلقة ، والتقيا ، فكان الشيخ يلزّ (يشدّ) ذلك الحداد وهو يتأخر ، حتى يلجئه إلى الحلقة ، ثم يعود إلى الوسط ، وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم . فطال الأمر بينهما والبسكند يستعجلهما . ونفع الحداد إدمانه على ضرب المطرقة ، وأعيا ذلك الشيخ ، فضربه الحداد ، فوقع ، ووقعت عصاه تحت ظهره ، فبرك عليه الحداد يداخل أصابعه في عينيه ... ثم قام عنه ، وضرب رأسه بالعصا حتى قتله . فطرحوا في رقبته في الوقت حبلاً وجرّوه . وجاء صاحب الحدّاد وأعطاه غفارة (رداء للرأس) وأركبه خلفه وأخذه وانصرف ، وهذا من جملة فقههم ، لعنهم الله . »

ومضيت مرة مع الأمير معين الدين ، رحمه الله إلى القدس ،

فنزلنا بنابلس . فخرج إلى عنده رجل أعمى ، وهو شاب عليه ملبوس جيد مسلم ، وحمل له فاكهة وسأله في أن يأذن له في الوصول إلى خدمته إلى دمشق ففعل . وسألت عنه فخبرت أن أمه كانت مزوجة لرجل افرنجي فقتلته . وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم ، فاتهموه بذلك وعملوا له حكم الافرنج . جلسوا بتيّة (برميل عظيم من الخشب) وملأوها ماء وعرضوا عليها دفّ خشب وكتفوا ذلك المتهم وربطوا في كتافه حبلاً ورموه في البتّية ــ فإن كان بريئاً غاص في الماء ، فرفعوه بذلك الحبل لا يموت في الماء ، وإن كان له الذنب ما يغوص في الماء . فحرص ذلك لما رموه في الماء أن يغوص ، فما قدر فوجب عليه حكمهم .

عيد بطبرية

وحضرت بطبرية في عيد من أعيادهم ، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح ، وقد خرج معهم عجوزان فانيتان أوقفوهما في رأس الميدان ، وتركوا في رأسه الآخر خنزيراً سمّطوه وطرحوه على صخرة . وسابقوا بين العجوزين ، ومع كل واحدة منهما سَرِيّة (طائفة) من الخيّالة يشدون منها ، والعجوزان تقوبان وتقعان على كل خطوة ، وهم يضحكون ، حتى سبقت واحدة منهما ، فأخذت ذلك الخنزير في سبقها .

أخبار الطب والتطبيب

أصاب رجلاً من أصحابنا الشاميين جراح كثيرة فجاءني

وقال : « أخي تالف .. قد وقع فيه كذا وكذا جرح سيوف وغيرها ، وهو مغمور ما يفيق » . قلت : « ارجع افصده » . قال : « قد خرج منه عشرون رطل دم » قلت : « ارجع افصده . فأنا أخبر منك بالجراح ، وليس له دواء غير الفصاد » فمضى غاب عني ساعتين ثم عاد وهو مستبشر . قال : « أنا فصدته ، وهو أفاق و جلس وأكل وشرب وذهب عنه البؤس » . قلت : « الحمد لله ، ولولا أني جربت هذا في نفسي عدة مرار ما وصفته لك » .

« وكان لابن بطلان إصابات عجيبة في الطب . فمن ذلك أن رجلاً أتاه ، وهو في دكانه بحلب ، والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يُفهم منه إذا تكلم . فقال له : « ما صنعتك ؟ » قال : « أنا مغربل » فقال : « أحضر لي نصف رطل خل حاذق ، فأحضره » . فقال : « اشربه » فشربه و جلس لحظة فذرعه القيء . فتقيأ طيناً كثيراً في ذلك الخل . فانفتح حلقه واستوى كلامه . فقال ابن بطلان لابنه وتلامذته : « لا تداووا بهذا الدواء أحداً فتقتلوه . هذا كان قد علق بالمريء من غبار الغربلة تراب ما كان يخرجه إلا الخل . »

عجائب الطب الافرنجي

« ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة (بلدة في لبنان) كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه فأرسل اليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى

عاد ، فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى ! قال : أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دُمّلة وامرأة قد لحقها نشاف (لعله جفاف اللبن في الرضاعة) فعملت للفارس لُبَيْخة ، ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطبتُ مزاجها ، فجاءهم طبيب إفرنجي ، فقال لهم هذا ما يعرف شيء يداويهم ! وقال للفارس أيها أحبّ اليك ، تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة ، قال : أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً ، فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحطّ ساقه على قطعة خشب كبيرة ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، تقطعها ، فضربه ، وأنا أراه ، ضربة واحدة ، فما انقطعت ، وضربه ضربة ثانية ، فسال مخّ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة ، فقال : هذه امرأة في رأسها شيطان ... احلقوا شعرها ، فحلقوه ، وعادت تأكل من مأكلهم : الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف . فقال الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ الموسى وشق في رأسها صليباً ، وسلخ وسطه حتى ظهر العظم وحكّه بالملح ، فماتت في وقتها ، فقلت لهم : بقي لكم إلي حاجة ؟ قالوا : لا !

وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك .. كان للملك خازن من فرسانهم يقال له برنارد ، فرمحه حصان في ساقه فعملت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعاً ..والجراح كلما ختم موضع فتح موضع . فجاءه طبيب افرنجي فأزال عنه تلك المراهم بغسلها بالخل الحاذق .. فختمت تلك الجراح ، وبرأ وقام مثل الشيطان »

ومن عجيب طبهم أنه كان عندنا بشيرز صانع يقال له أبو الفتح لهولد قد طلع في رقبته خنازير . وكلما ختم موضع فتح موضع .. فدخل انطاكية في شغل له وابنه معه . فرآه رجل افرنجي فسأله عنه فقال : « هو ولدي » . قال : « تحلف لي بدينك إن وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ من أحد تداويه به أجرة حتى أصف لك دواء يبرئه » فحلف . فقال له: « تأخذ أشناناً غير مطحون تحرّه وتربّه بالزيت والخل الحاذق تداويه به حتى يأكل الموضع . ثم خذ الرصاص المحرق وربّه بالسمن ثم داوه به فهو يبرئه » فداواه بذلك فبرأ ، وختمت تلك الجراح ، وعاد إلى ما كان عليه من الصحة .

رحلة الهروي

هي رحلة في أنحاء العالم الاسلامي قام بها الشيخ أبو الحسن علي بن أبي بكر الهروي (١١٨٠ – ١٢١٥) فزار القسطنطينية والمغرب وصقلية وغيرها من جزائر بحر الروم ، ودوّن مشاهداته فيها في كتاب له سمّاه « الاشارات في معرفة الزيارات » أكثر ما عني فيه بوصف المساجد والأبنية والعمائر والأصنام والآثار والطلسمات . وقد روى عنه ابن خلّكان : « انه لم يترك براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه ، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه على حائطه . » ومما كتبه الهروي عن أهرام مصر وزهورها ونباتها اخترنا لك هذا النص :

الأهرام

« الأهرام من عجائب الدنيا ، وليس على وجه الأرض شرقيها وغربيها عمارة أعجب منها ولا أعظم ولا أرفع ، ورأيت بمصر أهراماً كثيرة ، منها خمسة كبار والباقي صغار . فأما الكبار فاثنان عند الجزيرة واثنان عند قرية يقال لها دهشور ، وهرم عند قرية يقال لها ميدوم . وقد اختلفت أقاويل الناس فيها وفي بانيها وما يريد بها ، ومنهم من قال إنهم عملوها خوفاً من الطوفان ، وقيل إن المأمون فتح هرماً منها ، وهو أحد الهرمين اللذين عند الجزيرة ، فوجدوا داخله بئراً مربعة ، في تربيعها أبواب يفضي كل باب منها إلى بيت فيه موتى بأكفانهم، وقيل إنهم وجدوا في رأس هذا الهرم بيتاً فيه حوض من الصخر على مثال القبر . وفيه صنم كالآدمي الرهنج ، وفي وسطه إنسان عليه درع من الذهب مرصّع بالجوهر ، وعلى صدره سيف لا قيمة له ، وعند رأسه حجر ياقوت كالبيضة ضوؤه كالنار » .

زهور مصر ونباتها

« .. فان في ديار مصر ونيلها من عجائب الدنيا كثيراً. ورأيت بها في آن واحد مجتمعاً ورداً ثلاثة ألوان ، ورأيت ياسمين لونين ، ولينوفرا لونين ، وآساً ونسريناً ، وريحاناً ،وخيزياً ، وبنفسجاً ، ومنثوراً، وزنبقاً، واترنجاً ، وليموناً مركباً ، وطلْعاً، ورطباً ، وموزاً ، وجمّيزاً ، وحصرماً ، وعنباً ، وتيناً أخضر ، ولوزاً ، وقثّاً ، وفقوس ، وبطيخاً ، وباذنجان ، وباقلا أخضر ، ويقطيناً وحمّصاً أخضر ، وخسّاً ، والبقول ، والرمان ، وهليوناً ، وقصب السكّر .. »

الرّحلات في القرن الثالث عشر للميلاد

السّابع للهجرة

أشهر رحلات العرب في القرن الثالث عشر للميلاد هي رحلات العالم عبد اللطيف البغدادي (١١٦٢ –١٢٣١ م) . وياقوت الحموي (١١٧٩ – ١٢٢٩ م). وابن سعيد المغربي (١٢١٤ – ١٢٧٥) . وابو محمد العبدري (رحل سنة ١٢٨٨)والنوشريسي (كانت رحلته سنة ١٢٧٤ م) . والسبتي (١٢٦٠ – ١٣١٢) . وابو عبد الله محمد التجاني التونسي (١٢٧٦ – ١٣١٨) . وها نحن في ما يلي من حديث نتناولها رحلة رحلة وننتخب منها ما وصل إلى أيدينا من نصوص .

رحلة عبد اللطيف البغدادي

هي رحلة ثقافية علمية ، طاف بها البغدادي في ربوع الشام

ومنها انتقل إلى مصر حيث استقر زمناً يعلّم في الأزهر. وقد ترك لنا من ثمار هذه الرحلة كتاباً له يدعى « الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة في أرض مصر » . وهو كتاب يتحدث فيه البغدادي عن خواص مصر العامة، ويصف نباتاتها وفواكهها وحيواناتها ، ويستطرد إلى ذكر آثارها العجيبة وغرائب أبنيتها وطعام أهلها باساوب العالم القدير الذي تدهشك فيه الدقة والتمحيص وتقف من خلاله على أمور في حياة مصر الاجتماعية والعمرانية لم تكن جارية لك في حساب . قال البغدادي :

هندسة الأبنية في مصر

« وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية ، حتى أنهم قلّما يتركون مكاناً غفلاً خالياً عن مصلحة . ودورهم أقبح ، وغالب سكناهم في الأعالي ، ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة ، وقلما تجد منزلاً إلاّ وتجد فيه باذاهيج .. وباذاهيجاتهم كبار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الإحكام حتى إنه يقوم على عمارة الواحد منها مئة دينار إلى خمسمئة ، وإن كانت باذاهيجات المنازل الصغار يغرم على الواحد منها دينار . وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة . ويبنون بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر ، وشكل طوبهم على نصف طوب العراق .

ويحكمون قنوات المراحيض حتى انه تخرب الدار والقناة

قائمة ، ويحفرون الكنف إلى المعين فتغبُر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر إلى كسح . وإذا أرادوا بناء ربع أو دار ماكية أو قيسارية استحضر المهندس وفوّض اليه العمل فيعمد إلى العرصة ، وهي تل تراب أو نحوه ، فيقسمها في ذهنه ، ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ، ثم يعمد إلى جزء آخر ولا يزال كذلك حتى تكتمل الجملة بكمال الأجزاء من غير خالل ولا استدراك . »

غرائب الأطعمة

ومن غريب ما يتخذونه رغيف الصينية ، وصفته يؤخذ من الدقيق الحواري ثلاثون رطلاً بالبغدادي ، ويعجن مع خمسة أرطال ونصف سيرجاً (دهن السمسم) عجن خبز الخشكنان . ثم يقسم بقسمين ويبسط أحدهما رغيفاً في صينية نحاس قد اتخذت لذلك ، سعة قطرها نحو أربعة أشبار ، ولها عرى وثيقة ، ثم يعبّا على الرغيف ثلاثة أخرفة مشوية محشوة الأجواف بلحم مدقوق ومقلو بالسيرج والفستق المهروس والأفاويه العطرة الحارة كالفلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكي والكزبرة والكمون والهال والجوزة ونحو ذلك . ويرش عليه ماء ورد قد ديف (خلط) فيه مسك ثم يجعل على الخرفان . وبين خلالها عشرون دجاجة وعشرون فروجاً وعشرون فرخاً بعضه مشوي محشو بالبيض وبعضه محشو باللحم ، وبعضه مطجّن (مقلو) بماء الحصرم أو بماء الليمون أو بنحو ذلك . ثم يشور بالسنبوسك والقماقم المحشوة باللحم بعضها ، وبالسكر والحلوى بعضها ، وإن شئت أن تزيده خروفاً

آخر تتخذه شرائح فلا بأس .. وكذا جبناً مقلواً فاذا نضد ذلك وصار كالفتة نضح عليه ماء ورد قد ديف فيه مسك وعود ، ثم غطى بالقسم الثاني من العجين بعد أن يمد رغيفاً ويلحم بين الرغيفين ، كما يلحم الخشكنان بحيث لا يخرج منه نفس أصلاً . ثم يقرب إلى رأس التنور حتى يتماسك عجينه ويبتدئ في النضج ، فحينئذ ترسل الصينية في التنور بعراها رويداً رويداً . ويصبر عليه ريثما ينضج الخبز ويتورد ويحمر ، ثم يخرج ويمسح باسفنجة فيرش عليه ماء ورد ومسك ويرفع للأكل . وهذا الصنيع يصلح أن يحمل مع الملوك وأرباب الترف إلى منضداتهم النائية ومنتزهاتهم النازحة فإنه وحده جملة فيها تفضيل سهل المحمل عسر التشعث جميل المنظر مشكور المخبر يحفظ الحرارة مدة طويلة .

وأما عوامهم فقلما يعرفون شيئاً من ذلك .. وأكثر أغذيتهم الصبر والصحناة والدلينس والخبز والنيدة ونحو ذلك . وشرابهم المزر وهو نبيذ يتخذ من القمح . ومنهم أصناف يأكلون الفار المتولد الصحارى والغيطان عند انحطاط النيل ويسمونه سماني الغيط . وبالصعيد قوم يأكلون الثعابين والميتات من الحمير والدواب . وبأسافل الأرض قد يتخذ نبيذ من البطيخ الأخضر . وبدمياط يكثر أكل السمك ويطبخ بكل ما يطبخ به اللحم من الرز السماق والمدققات وغير ذلك .

النباتات

« من ذلك البامية : وهي ثمر بقدر إبهام اليد ... شديد

الخضرة ، إلاّ أنّ عليه زئبراً مشوّكاً ، وهذا الثمر مخمّس الشكل يحيط به خمسة أضلاع ، فاذا شُقّ انشقّ عن خمسة أبيات بينها حواجز ، وفي تلك الأبيات حبّ مصطفّ مستدير أبيض ، أصغر من اللوبيا ، هشّ ، يضرب إلى الحلاوة ، وفيه قبض ولعابية كثيرة ، يطبخ أهل مصر به اللحم ، بأن يُقطع مع قشوره قطعاً صغاراً ، ويكون طعاماً لا بأس به ، الغالب على طبعه الحرارة والرطوبة ، ولا يظهر في طبيخه قبض بل لزوجة .

والقلقاس وهو أصول بقدر الخيار . ومنه صغار كالأصابع يضرب إلى حمرة خفيفة يُقشّر ثم يُشقّق على مثل السَّلْجَم (اللفت) ، وهو كثيف مكتنز يشابه الموز الأخضر الفَجّ في طعمه . وفيه قبض يسيرٌ مع حَرَافة قوية ،وهذا دليل على حراراته ويَبْسه . فاذا سُلِق زالت حرافته جملة وحدث له مع ما فيه من القبض اليسير لزوجة مُغرّيّة كانت فيه بالقوة . إلاّ أن حرافته كانت تخفيها وتسترها ، ولذلك صار غذاؤه غليظاً بطيء الهضم ثقيلا في المعدة . إلاّ انه لما فيه من القبض والعفوصة صار قويّاً للمعدة . »

والباسان ، ولا يوجد اليوم منه إلاّ بمصر بعين شمس في موضع محاط عليه يحتفظ به مساحته نحو سبعة أفدنة . وارتفاع شجرته نحو ذراع وأكثر من ذلك وعليها قشران الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر ثخين . وإذا مضغ ظهر في الفم منه دهنية ورائحة عطرة . وورقه شبيه بورق السّذاب ، ويجتنى دهنه عند طلوع الشعرى بأن تشدخ السوق بعد ما يحت عنها جميع ورقها . وشدخها يكون

بحجرة تتخذ محددة ويفتقر شدخها إلى صناعة بحيث يقطع القشر الأعلى ويشق الأسفل شقاً لا ينفذ إلى الخشب . فإن نفذ إلى الخشب لم يخرج منه شيء . فإذا شدخه كما وصفنا أمهله ريثما يسيل لثاه على العود فيجمعه بإصبعه مسحاً إلى قرن . فاذا امتلأ صبه في قناني زجاج ولا يزال كذلك حتى ينتهي جناه وينقطع لثاه . كلما كثر الندى في الجو كان لثاه أكثر وأغزر. وفي الجدب وقلة الندى يكون اللثى أنزر . ثم تؤخذ القناني فتدفن إلى القيظ وحمارة الحر وتخرج من الدفن وتجعل في الشمس . ثم تتفقد كل يوم فيوجد الدهن وقد طفا فوق رطوبة مائية وأثقال أرضية فيقطف الدهن . ثم تعاد إلى الشمس . ولا يزال يشمسها ويقطف دهنها حتى لا يبقى فيها دهن . فيؤخذ ذلك الدهن ويطبخه قيمه . ثم يرفعه إلى خزانة الملك ومقدار الدهن الخالص من اللثى بالترويق نحو عشر الجملة .

والجميز كأنه تين بري وتخرج ثمرته في الخشب لا تحت الورق . ويخلف في السنة سبعة بطون . ويؤكل أربعة أشهر ويحمل وقراً عظيماً . وقبل أن يجنى بأيام يصعد رجل إلى الشجرة ومعه حديدة يسم بها حبة حبة من الثمرة فيجري منها لبن أبيض . ثم يسود الموضع وتحلو الثمرة بذلك الفعل . وقد يوجد منه شيء شديد الحلاوة أحلى من التين لكنه لا ينفك في آخر مضغه من طعم خشبية ما . وشجرته كبيرة كشجرة الجوز العاتية ويخرج من ثمره وغصنته إذا فصدت لبن أبيض إذا طلي على ثوب أو غيره صبغه واحمر . وخشبه تعمر به المساكن وتتخذ منه الابواب وغيرها من الآلات الجافية . وله بقاء على الدهر وصبر على الماء والشمس .

وقلما يتأكل هذا مع انه خشب خفيف قليل اللدونة . ويتخذ من ثمرته خل حاذق ونبيذ حادّ » .

بعض الحيوانات

« ومن ذلك التِّرْسة ، وهي سلحفاة عظيمة ، وزنها نحو اربعة قناطير ، إلاّ أن جفنيها أعني عظم ظهرها كالتّرْس ، له أفاريز خارجة عن جسمها نحو الشبر ، ورأيتها بالاسكندرية ، يُقطع لحمها ويباع ، كلحم البقر ، وفي لحمها ألوان مختلفة ما بين أخضر وأحمر وأصفر وأسود وغير ذلك من الألوان ، ويخرج من جوفها نحو أربعمئة بيضة ، كبيض الدجاج سواء ، إلاّ أنّه ليّن القشر. واتخذتُ من بيضها عجّة ، فلما جمد صار ألواناً ما بين أخضر وأحمر وأصفر شبيهاً بألوان اللحم .

« ومن ذلك الدّلينس وهو صدف مستدير إلى الطول ... ينشقّ عن رطوبة مخاطية بيضاء ، ذات نكتة سوداء ، يعافها الناظر ، وفيه ملوحة عذبة ، زعموا ، ويباع بالكيل . »

معامل تفقيس الدجاج

« من ذلك حضانة الفراريج بالزبل فانه قلّما ترى بمصر فراريج عن حضان الدجاجة وربما لم يفرقوه أيضاً . وإنما ذلك عندهم صناعة ومعيشة يُتّجر فيها ويُكتسب منها . وتجد في كل بلد من بلادهم مواضع عدة تعمل ذلك . ويسمّى الموضع معمل الفرّوج . وهذا المعمل ساحة كبيرة يتخذ فيها من البيوت التي يأتي

ذكرها ما بين عشرة أبيات إلى عشرين بيتاً في كل بيت ألفا بيضة ويسمّى بيت الترقيد . وصفته أن يتخذ بيت مربع طوله ثمانية أشبار في عرض ستة في ارتفاع أربعة ، ويجعل له باب في عرضه سعته شبران وعقد في مثله ، وتجعل فوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر ، ثم تسقف بأربع خشبات وفوقها سدة قصب يعني نسيجاً منه وفوقه ساسي وهو مشاقة الكتان وحطبه ، ومن فوق ذلك الطين ، ثم يرصص بالطوب ، ويطين سائر البيت ظاهره وباطنه وأعلاه وأسفله حتى لا يخرج منه بخار . وينبغي أن تتخذ في وسط السقف شباكاً سعته شبر فهذا السقف يحكي صدر الدجاجة . ثم تتخذ حوضين من الطين المخمر بساس طول الحوض ستة أشبار وعرضه شبر ونصف وسمكه عقدة اصبع وحيطانه نحو أربعة أصابع ، ويكون هذا الحوض لوحاً واحداً تبسطه على أرض معتدلة وهذا الحوض يسمى الطاجن ، فاذا جف الطاجنان ركبتهما على طرف السقف أحدهما على وجه الباب والآخر قباله على الطرف الآخر تركيباً محكماً وأخذت وصولهما بالطين أخذاً متفقاً . وينبغي أن يكون قعود الطاجنين على خشب السقف بحيث يماسّانه ، وهذان الطاجنان تحاكى بهما جناحا الدجاجة ، ثم يفرش البيت بقفة تبن ويمهد ، ويفرض فوقه ضب أوديس يعني حصيراً بردياً على مقداره سواء ، ثم يرصف فوقه البيض رصفاً حسناً بحيث يتماس ولا يتركب لتتواصل الحرارة فيه . ومقدار ما يسع هذا البيت المفروض ألفا بيضة .

وهذا الفعل يسمى الترقيد .. صفة الحضانة تبتدئ وتسد الباب

بأن ترسل عليه لبدا مهندما ، ثم تسدّ الطاقة بساسي والشباك أيضاً بساسي وفوقه زبل حتى لا يتبقى في البيت منفس للبخار . وتلقى في الطاجنين من زبل البقر اليابس قفتين وتوقد فيه نار سراج من جميع جهاته وتهمله ريثما يرجع رماداً وأنت تتفقد البيض ساعة بعد أخرى بأن تضعه على عينك ، وتعتبر حرارته . وهذا الفعل يسمى الزواق .. فان وجدته يلذع العين قلبته ثلاث تقلبات في ثلاث دفعات ، تجعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله . وهذا يحاكي تقليب الدجاجة للبيضة بمنقارها وتفقدها إياها بعينيها وهذا يسمى السماع الأول . فاذا صار الزبل رماداً أزلته وتركته بلا نار إلى نصف النهار إن كان ترقيده بكرة . وإن كان ترقيده من أول الليل حرسته إلى أن تحمى وتسمع النار كالسياقة المتقدمة . ثم تخلّي الطاجنين من النار إلى بكرة ، ثم تجعل في الطاجن الذي على باب البيت من الزبل ثلاثة أقداح وفي الطاجن الذي على صدر البيت قدحين ونصفا . ومدّ الزبل بمرود غليظ واطرح في كل منهما النار في موضعين منه ، وكلما خرجت من البيت بعد تفقده فارخ الستر ، وإياك ان تغفل عنه لئلا يخرج البخار ويدخل الهواء فيفسد العمل .

وإذا كان وقت العشاء وصار الزبل رماداً ونزل الدفء إلى البيض أسفل البيت ، فغيّر الرماد من الطاجن بزبل جديد مثل الأول . وأنت كل وقت تلمس البيض وتزوقه بعينك فان وجدت حرارته زائدة عن الاعتدال تلذع العين ، فاجعل مكان الثلاثة الأكيال في طاجن الباب كيلين وربعاً وفي طاجن الصدر كيلين فقط . ولاتزال

تواصل تغيير الرماد وتجديد الزبل والإيقاد حتى لا ينقطع الدفء مدة عشرة أيام بمقدار ما تكمل الشخوص بمشيئة الله وقدرته ، وذلك نصف عمر الحيوان. ثم تدخل البيت بالسراج وترفع البيض واحدة واحدة وتقيمها بينك وبين السراج ، فالتي تراها سوداء ففيها الفرخ ، والتي تراها شبه شراب أصفر في زجاج لا عكر فيه فهي لاح بلا بذر ، وتسمى الأرملة فأخرجها فلا منفعة فيها . ثم تصبح بعد التلويح تنقص الزبل من العيار الأول ملء كفك من كل حوض بكرة ومثله عشية حتى ينصرم اليوم الرابع عشر ولم يبق من الزبل شيء ، فحينئذ يكمل الحيوان ، ويشعرون ويتفتح ، فاقطع إذن النار عنه فان وجدته غالب الحرارة فافتح نصف الشباك وأنت مع ذلك تقلبه وتخرج البيض الذي في الصدر إلى جهة الباب والبيض الذي في جهة الباب ترده إلى الصدر حتى يحمى البارد الذي كان في جهة الباب ويسترمح الحار الذي في الصدر بشم الهواء فيصير في طريقة الاعتدال ساعة يحمى وساعة يبرد فيعتدل مزاجه ، وهذا الفعل يسمى الحضانة كما يفعل الطير سواء . وتستمر على هذا التدبير دفعتين في النار ودفعة في الليل إلى تمام تسعة عشر أيضاً ، فان الحيوان ينطق في البيض بقدرة الله تعالى ، وفي يوم العشرين يطرح بعضه ، ويكسر القشر ويخرج وهذا يسمّى التطريح . وعند تمام اثنين وعشرين يوماً يخرج جميعه ، وأحمد الأوقات لعمله أمشير وبرمهات وبرمودة وذلك في شباط وآذار ونيسان ، لأن البيض في هذه المدة يكون غزير الماء كثير البذرة ، صحيح المزاج ، والزمان معتدل صالح للنشأة والتكوين ، وينبغي أن يكون

البيض طرياً . وفي هذه الاشهر يكثر البيض أيضاً . »

آثار مصر العجيبة

« ومن الآثار القديمة الأهرام ، وقد أكثر الناس في ذكرها ووصفها ومساحتها ، وهي كثيرة العدد جداً ، وكلها بِبَرّ الجيزة ، وعلى سَمْت مصر القديمة ، وتمتد في نحو مسافة يومين ، وفي بوصير منها شيء كثير ، وبعضها كبار وبعضها صغار .... وبعضها مدرّج وأكثرها مخروط أملس ... وأما الأهرام المتحدث عنها المشار اليها الموصوفة بالعظم فثلاثة أهرام موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط ، وبينها مسافات يسيرة ، زواياها متقابلة نحو المشرق ، واثنان منها عظيمان جداً وفي قدر واحد ، وبهما أولع الشعراء ، وشبهوهما بنهدين ، قد نهدا في صدر الديار المصرية ، وهما متقاربان جداً ... وأما الثالث فينقص عنهما بنحو الربع ... وتجده صغيراً بالقياس إلى الآخرين ، فإذا قربت منه وأفردته بالنظر هالك مرآه ، وحَسَرَ الطرفُ عند تأمله . وقد سُلك في بناية الأهرام طريق عجيب من الشكل والإتقان ، ولذلك صبرتْ على ممر الزمان ، بل على ممرّها صبر الزمان ، فإنك إذا تبصّرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استُهلكتْ فيها ، والعقول الصافية قد أفرغتْ عليها مجهودها ، والأنفس النيّرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها ، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلا هو غاية إمكانها ، حتى إنها تكاد تحدّث عن قومها وتُخبر بحالهم ، وتنطق عن علومهم وأذهانهم ، وتترجم عن سيرهم

وأخبارهم ... وإن المُسّاح ذكروا أن قاعدة كل منهما أربعمائة ذراع طولاً في مثلها عرضاً ... وأما الذي شاهدته من حالهما فإن رامياً كان معنا رمى سهماً في قطر أحدهما وفي سمكه ، فسقط السهم دون نصف المسافة ، وخبّرنا أن في القرية المجاورة لها قوماً قد اعتادوا ارتقاء الهرم بلا كلفة ، فاستدعينا رجلاً منهم ورضخنا له بشيء ، فجعل يصعد فيها ، كما يرقى أحدنا في الدرج بل أسرع ... وفي أحد هذين الهرمين مدخل ، يلجه الناس ، يفضي بهم إلى مسالك ضيقة وأسراب متنافذة وآبار ومهالك ... وهذا المدخل ليس هو الباب المتخذ له في أصل البناء ، وإنما هو منقوب نقباً صودف اتفاقاً... وهذه الاهرام مبنية بحجارة جافية ، يكون طول الحجر منها ما بين عشرة أذرع إلى عشرين ذراعاً ، وسمكه ما بين ذراعين إلى ثلاث ، وعرضه نحو ذلك ، والعجب كل العجب في وضع الحجر على الحجر بهندام ، ليس في الإمكان أصح منه ، بحيث لا تجد بينهما مدخل إبرة ولا خلل شعرة ، وبينهما طين ، كأنه الورقة لا أدري ما صنفه ولا ما هو . وعلى تلك الحجارة كتابات بالقلم القديم المجهول الذي لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرفه . وهذه الكتابات كثيرة جداً .

وعند هذه الأهرام بأكثر من غَلْوَة (مقدار رمي السهم) صورة رأس وعنق بارزة من الأرض في غاية العظم ، يسميه الناس أبا الهول ... وفي وجهه حمرة ودهان أحمر يلمع عليه رونق الطلاوة ، وهو حسن الصورة مقبولها ، عليه مسحة بهاء وجمال ، كأنه يضحك مبتسماً . وسألني بعض الفضلاء ما أعجبُ ما

رأيت ؟ فقلت تناسب وجه ابي الهول ، فإن أعضاء وجهه كالأنف والعين والأذن متناسبة ، كما تصنع الطبيعةُ الصور متناسبة ... والعجب من مصوره كيف قدر أن يحفظ نظام التناسب في الأعضاء مع عظمها ، وأنه ليس في أعمال الطبيعة ما يحاكيه وينقله . »

القحط في مصر سنة ٥٩٧ هـ

وأول من هلك في هذه الطريق أهل الحرف عندما انتجعوا إلى الشام وانتشروا في هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس . ولم تزل تتواصل هلكاهم إلى الآن . وانتهى انتجاعهم إلى الموصل وبغداد وخراسان وإلى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزقوا كل ممزق ...

وأما خراب البلاد والقرى وخلو المساكن والدكاكين ، فهو مما يلزم هذه الجملة التي اقتصصناها .. وناهيك أن القرية التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر عليها فتراها دمنة ، وربما وجد فيها أحد وربما لم يوجد . وأما مصر فخلا معظمها ، وأما بيوت الخليج وزقاق البركة والمقس وما تاخم ذلك ، فلم يبق فيها بيت مسكون أصلاً ، بعد ما كان كل قطر منها قدر مدينة زحمة من الناس ، حتى إن الرباع والمساكن والدكاكين التي في سرة القاهرة وخيارها أكثرها خالٍ خراب ..وإن ربعاً في أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتاً كلها خالية سوى أربعة أبيت أسكنت من يحرس الموضع .

ومما يقضي منه العجب أن جماعة من الذين ما زالوا مجدودين سعدوا في دنياهم هذه السنة ، فمنهم من أثرى بسبب متجره في القمح ، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل اليه بالارث ، ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف ....

وحكي لي أنه كان بمصر تسعمئة منسج للحصر ، فلم يبق إلا خمسة عشر منسجاً . وقس على هذا السائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الاصناف ، فانه لم يبق من كل صنف من هؤلاء إلا نحو ما بقي من الحصريين أو أقل من ذلك .

حوادث الجوع

ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظهر معها صغير تأكل منه ، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره .. فعاد تعجبي أشد ، وما ذلك إلاّ لكثرة تكرره على إحساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق أن يتعجب منه ..

وظهر من هؤلاء الخبثاء من يصيد الناس بأصناف الحبائل ويجتلبونهم إلى مكانهم بأنواع المخاتل ،وقد جرى ذلك لثلاثة من الأطباء ممن ينتابني . أما أحدهم فان أباه خرج فلم يرجع ، وأما الآخر فان امرأة أعطته درهمين على أن يصحبها إلى مريضها فلما توغلت به في مضايق الطرق استراب وامتنع عنها وشنّع عليها فتركت درهميها ، وأما الثالث فان رجلاً استصحبه إلى مريضه

في الشارع بزعمه ، وجعل في أثناء الطريق يصدف بالكسر ويقول اليوم يغتنم الصواب ويتضاعف الأجر ولمثل هذا فليعمل العاملون ، ثم كثر حتى ارتاب منه الطبيب . ومع ذلك فحسن الظن يغلبه وقوة الطمع تجذبه حتى أدخله داراً خربة فزاد استشعاره وتوقف في الدرج وسبق الرجل فاستفتح فخرج اليه رفيقه يقول له هل مع إبطائك حصل صيد ينفع ؟.. فخرج الطبيب لما سمع ذلك ، وألقى نفسه إلى اصطبل من طاقة صادفها . فقام اليه صاحب الاصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفاً منه أيضاً ، فقال قد علمت حالك فان أهل هذا المنزل يذبحون الناس بالحيل .

وهذه البلية التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ليس فيها بلد إلاّ وقد أكل فيه الناس أكلاً ذريعاً من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والاسكندرية ودمياط وسائر النواحي ..

أما القتل والفتك في النواحي فكثير فاشٍ في كل فج ، ولا سيما طريق الفيوم والاسكندرية . وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكب يرخصون الاجرة على الركاب فاذا توسطوا بهم الطرق ذبحوهم وتساهموا أسلابهم . وظفر الوالي منهم بجماعة فمثّل بهم ، وأقر بعضُهم عندما أوجع ضرباً أن الذي خصّه دون رفاقه ستة آلاف دينار ..

وأما موت الفقراء هزالاً وجوعاً فأمر لا يطيق علمه إلاّ الله سبحانه وتعالى وإنما نذكر منه كالانموذج يستدل به اللبيب على فظاعة الأمر .

فالذي شاهدناه بمصر والقاهرة وما تاخم ذلك أن الماشي أين

كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميت ومن هو في السياق أو على جمع كثير بهذه الحال .. يرفع عن القاهرة خاصّة إلى الميضأة كل يوم ما بين مئة إلى خمسمئة، وأما مصر فليس لموتاهم عدد ، ويرمون ولا يواروْن . ثم بآخره عجز عن رميهم فبقوا في الأسواق بين البيوت والدكاكين .. وفيها الميت منهم قد تقطع إلى جانبه الشواء والخباز ونحوه ..

وأما طريق الشام فقد تواترت الأخبار أنها صارت مزرعة لبني آدم ، بل محصرة ، وأنه عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع ، وان كلابهم التي صحبتهم من منجلاهم هي التي تأكل فيهم ...

ومن عجيب ما شاهدنا أن جماعة ممن ينتابني في الطب وصلوا إلى كتاب التشريح ، فكان يعسر إفهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان .. فأخذنا أنّ بالمقس تلاً فيه رمم كثيرة فخرجنا اليه ، فرأينا تلاً من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون ترابه أقل من الموتى به نحدس ما يظهر منهم للعيان بعشرين ألفاً فصاعداً وهم على طبقات في قرب العهد وبعده .. فشاهدنا في شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علماً لا نستفيده من الكتب ..

رحلات ياقوت الحموي

هي رحلات في سبيل الاتجار اشتغل بها أبو عبد الله لمصلحة سيده ثم لمصلحته ، فتنقل من حلب إلى إربل ، فخراسان ،

فمرو ، فنسا ، ثم خوارزم ، حيث استقر إلى أن زحف جنكيزخان بمغوله (١٢١٩) ، فانهزم إلى الموصل ، ثم سار إلى سنجار فحلب وأقام في ظاهرها حتى مات . وقد أفادته رحلاته كثيراً ، فألّف من مشاهداته في أثنائها ومن مطالعاته في كتب الجغرافية معجمه الجغرافي « معجم البلدان » . ومنه انتخبنا هذا النص الذي يتحدث فيه ياقوت الحموي عن « إربل » وموقعها وقلعتها ، وأميرها وطباعها وبنيانها . قال ياقوت :

إربل

إربل قلعة حصينة ، ومدينة كبيرة ، في فضاء من الأرض واسع بسيط ، ولقلعتها خندق عميق ، وهي في طرف من المدينة ، وسور المدينة ينقطع في نصفها ، وهي على تلّ عالٍ من التراب ، عظيم واسع الرأس ، وفي هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية ، وجامع للصلاة ، وهي شبيهة بقلعة حلب ، إلاّ أنها أكبر وأوسع رقعة . وطول إربل تسع وستون درجة ونصف ، وعرضها خمس وثلاثون درجة ونصف وثلث ، وهي بين الزابَيْن ، تعدّ من أعمال الموصل ، وبينهما مسيرة يومين . وفي ربض هذه القلعة ، في عصرنا هذا ، مدينة كبيرة ، عريضة طويلة ، قام بعمارتها وبناء سورها ، وعمارة أسواقها وقيسارياتها ، الأمير مظفّر الدين كوكُبُري بن زين الدين كوجك علي ، فأقام بها وقامت بمقامه بها : لها سوق وصار له هيبة ، وقاوم الملوك ونابذهم بشهامته وكثرة تجربته حتى هابوه ، فانحفظ بذلك أطرافه ، وقصدها الغرباء ،

وقطنها كثير منهم ، حتى صارت مصراً كبيراً من الأمصار .
وطباع هذا الأمير مختلفة متضادة ، فانه كثير الظلم ، عَسوف بالرعية ، راغب في أخذ الأموال من غير وجهها ، وهو مع ذلك مُفْضِلٌ على الفقراء ، كثير الصدقات على الغرباء ، يُسيّر الأموال الجمّة الوافرة يستفكّ بها الأساري من أيدي الكفار ، وفي ذلك يقول الشاعر :

كساعية للخير من كسب فرجها
لكِ الويل ! لا تزني ولا تتصدّقي

ومع سعة هذه المدينة ، فبنيانها وطباعها بالقرى أشبه منها بالمدن ، وأكثر أهلها أكراد قد استعربوا ، وجميع رساتيقها وفلاّحيها وما ينضاف اليها أكراد . وينضم إلى ولايتها عدّة قلاع ، وبينها وبين بغداد مسيرة سبعة أيام للقوافل ، وليس حولها بستان ، ولا فيها نهر جارٍ على وجه الأرض ، وأكثر زروعها على القُنِي المستنبطة تحت الأرض ، وشربهم من آبارهم العذبة الطيبة المرئية ، التي لا فرق بين مائها وماء دجلة في العذوبة والخفة ، وفواكهها تجلب من جبال تجاورها ، ودخلتها فلم أر فيها من يُنسب إلى فضل غير أبي البركات بن غالب ويعرف بالمُستوفي ، فانه متحقق بالأدب ، محب لأهله ، مفضل عليهم ، وله دين واتصال بالسلطان ، وخلّة شبيهة بالوزارة ، وقد سمع الحديث الكثير ممن قدم عليهم إربل ، وألّف كتباً ، وقد أنشدني من شعره ، وكتب لي بخطه عدة قطع ، منها :

تذكّرنيك الريح مرّت عليلة
على الروض مطلولاً ، وقد وضح الفجرُ
وما بَعُدت دار ، ولا شطّ منزل
إذا نحن أدنتنا الأمانيُّ والذكرُ

وقد كان اشتهر شعر نوشروان البغدادي ، المعروف بشيطان العراق الضرير فيها سالكاً طريق الهزل ، راكباً سنن الفكاهة ، مورداً ألفاظ البغداديين والأكراد ، وأنا أورد مختار كلمته ههنا ، قصداً لترويح الأرواح ، والإحماض بنوع ظريف من المزاح ، وهي هذه :

تبّاً لشيطاني وما سوّلا
لأنه أنزلني إربلا
نزلتها في يوم نحس فما
شككت أني نازلٌ كربلا
وقلت ما أخطا الذي مثّلا
بإربل إذ قال : بيت الخلا
هذا وفي البازار قوم إذا
عاينتهم ، عاينت أهل البلا
من كل كرديّ حمار ، ومن
كل عراقيٍ نفاه الفلا
أما العراقيون ألفاظهم :
جبْ لي جفاني جنّ جال الحلا

جمّالك أي جعجع جبه تجي
تجب جماله قبل أن ترجلا
والكرد لا تسمع إلاّ جيا
أو نجيا أو نتْوى زَنْكلا
كلاّ ، وبوبو علّكو خُشْتري
خياو ومياو موسكا مَنْكلا
ممّو ومقّو ممكي ثم إنْ
قالوا : بويَرْكي تجى ؟ قلت :لا
ربعٌ خلا من كل خير بلى
من كل عيب وسقوط ملا
فلعنة الله على شاعر
يقصد ربعاً ليس فيه كَلا
أخطأت والمخطئ في مذهبي
يُصفع في قمّته بالدّلا
إذْ لم يكن قصدي إلى سيّدي
جمّاله قد جمّل الموصلا ...

وقد نُسب اليها جماعةمن أهل العلم والحديث منهم أبوأحمد القاسم ابن المظفّر الشهرزوري الشيباني الإربلي وغيره. وإربل أيضاً اسم لمدينة صيداء التي بالساحل من أرض الشام عن نصر ، وتلقّنته عن الحازمي ، والله أعلم . »

رحلة ابن سعيد

هي رحلة ثقافية دينية قصد فيها أبو الحسن نور الدين إلى

الحج بصحبة والده. ولكن والده توفي بالاسكندرية. فذهب ابن سعيد بعده إلى القاهرة ، فأقام بها أربع سنوات ، اتصل في أثنائها بكمال الدين عمر بن أبي جرادة المعروف بابن العديم الذي حبب اليه الرحلة معه إلى حلب فسافر اليها ، ومن ثم زار دمشق والموصل والبصرة وبغداد ودخل أرّجان ، ثم حج إلى بيت الله الحرام وعاد إلى مصر فالمغرب فتونس حيث طال فيها مقامه ، ودخل في خدمة أميرها أبي عبد الله المستنصر الحفصي . ثم رحل مرة ثانية إلى المشرق حيث أدركته المنية فيها بدمشق سنة ١٢٧٤ . وقد ترك لنا عن رحلته مجموعاً سمّاه « النفحة المسكية في الرحلة المكية » أثبت لنا المقّري كثيراً من نصوصه في كتابه « نفح الطيب » . وعن المقّري أخذنا نحن ما اخترناه لك في هذه العجالة :

ابن سعيد في مصر

« ولما استقررت بالقاهرة تشوقت إلى معاينة الفسطاط فسار معي اليها أحد أصحاب المقرية ، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لي بمثلها في بلد .. فركب منها حماراً وأشار إليّ أن أركب حماراً آخر ، فأنفت من ذلك على عادة من أخلفته في بلاد المغرب فأخبرني أنه غير معيب على أعيان مصر ، وعاينت الفقهاء ، وأصحاب البزّة والشارة الظاهرة يركبونها فركبت . وعندما استويت راكباً أشار المكاري إلى الحمار فطار بي ، وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ودنس ثيابي وعانيت ما كرهته. ولقلة معرفتي

بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده وقلة رفق المكاري ، وقعت في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج فقلت :

لقيت بمصر أشد البوار
ركوب الحمير وكحل الغبار
وخلفي مكار يفوق الرياح
لا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه مهلاً فلا يرعوي
إلى أن سجدت سجود العثار
وقد مدّ فوقي رواق الثرى
وألحد فيها ضياء النهار

فدفعت إلى المكاري أجرته ، وقلت له : إحسانك أن تتركني أمشي على رجلي . ومشيت إلى أن بلغتها . وقدرت في الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين . ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عني المسرة ، وتأملت أسواراً مثلمة سوداء وآفاقاً مغبرة . ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضي إلى خراب مغمور بمبان مشتتة الوضع غير مستقيمة الشوارع ، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف . فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال إلى أن صرت في أسواقها الضيقة ، فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التي على الجمال ما لا تفي به إلاّ مشاهدته ومقاساته ، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع فعاينت من ضيق الأسواق التي

حوله ما ذكرت ضده في جامع اشبيلية وجامع مراكش ، ثم دخلت اليه فعاينت جامعاً كبيراً قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل في حصره التي تدور مع بعض حيطانه وتنبسط فيه . وأبصرت العامة رجالاً ونساء قد جعلوه معبراً بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق . والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وغير ذلك . والناس يأكلون في عدة أمكنة منه غير محتشمين لجري العادة عندهم بذلك . وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على كل من يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقاً ، وفضلات مأكلهم مطروحة في صحن الجامع ، وفي زواياه العنكبوت قد عظم نسجه في السقف والأركان والحيطان . والصبيان يلعبون في صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة ، إلاّ أنّ مع ذلك على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده في جامع اشبيلية مع زخرفه . (المقّري ١–٤٨٦)

واستحسنت ما أبصرته من خلق المتصدرين لإقراء القرآن والفقه والنحو في عدة أماكن ، وسألت عن موارد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك . ثم أخبرت ان اقتضاء ذلك يصعب إلاّ بالجاه والتعب .

ثم انفصلنا من هناك إلى ساحل النيل ، فرأيت ساحلاً كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض .. إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصل من جميع أقطار النيل . ولئن قلت إني لم أبصر

على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فاني أقول حقاً .

والحال أن أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام ورعاية قدر الصحبة وكثرة الممازحة والألفة، مما يطول ذكره . أما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني والبحر الحجازي فإنه فوق ما يوصف ، وبه مجمع ذلك لا بالقاهرة ، ومنها يجهّز إلى القاهرة وسائر البلاد . وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ، ومعظم ما يجري هذا المجرى .. لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند ، كما أن جميع زي الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط وكذلك ما ينسج ويصاغ ، وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية والخراب في الفسطاط كثير . والقاهرة أجد وأعمر وأكثر زحمة باعتبار انتقال السلطان اليها وسكنى الأجناد فيها .

(المقري ١–٤٨٧)

والمكان المعروف بالقاهرة هو من الترتيب السلطاني ،لأن هنالك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين . ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية . ولكن ذلك أمد قليل ، ثم تسير منه إلى أمد أضيق وتمر في مكان كدر حرج بين الدكاكين إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة ، كان مما تضيق به الصدور وتسخن منه العيون . ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه الأمراء وهو في موكب جليل ، وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة ، وقد سدت جميع الطرق بين يدي الدكاكين . ووقف الوزير وعظم الازدحام ، وكان في موضع طباخين والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك المشاة

وكدت أهلك في جملتهم . وأكثر دروب القاهرة ضيقة كثيرة التراب والأزبال ، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها . ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالاً في ذلك . ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدري وتدركني وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين . ومن عيوب القاهرة أنها في أرض النيل الأعظم ، ويموت الانسان فيها عطشاً لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها . وإذا احتاج الانسان إلى فرجة في نيلها مشى في مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي خارج السور إلى موضع يعرف بالمقس .. وجوّها لا يبرح كدراً مما تثيره الأرض من التراب الأسود .

والفسطاط اكثر ارزاقاً وارخص أسعاراً من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط . والمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها ، وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه يبعد عن المدينة . والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط ، لأنها أجل مدارس وأضخم خانات وأعظم دياراً بسكنى الأمراء فيها المحفوفة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها ... فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر وبها الطراز ، وسائر الأشياء التي تتزين بها الرجال والنساء ... ومطابخ السكر والمواضع التي يصنع بها الورق المنصوري مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة .. والمعايش فيها متعذرة نزرة لا سيما أصناف الفضلاء . وجوامك المدارس قليلة كدرة ... والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته .. (المقري ١ — ٤٨٩) .

رحلة العبدري

هي رحلة جغرافية دينية قصد فيها أبو محمد إلى الحج مـرّاً بنواحي المغرب وفي الأندلس . وقد بدأها من حاحة في بـلاد السوس ، ووصل إلى مكة عن طريق البر ، وكرّ راجعاً ونزل الاسكندرية ، ثم قطع المغرب إلى ساحل المحيط مسجّلا مشاهد في كتابه « الرحلة المغربية » ، وهو كتاب لم يزل مخطوطـاً ، نفذ الينا منه فقط هذا النص الذي نثبته هنا كدليل على اسلوبه الذي يتكلف فيـه تكلفـاً شديداً يبدو فيه الغوص وراء اللفـظ .. قال العبدري يصف ثغر الاسكندرية وقسوة مفتشي المكوس فيها :

« ومن الأمر المستغرب والحال الذي أفصح عن قلة دينهم أنهم يعترضون الحجّاج ، ويجرّعونهم من بحر الإهانـة الملح الأجاج ، يبحثون عما بأيديهم من مال ، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال . وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد لـه عجبي ، وجعل الانفصال عنهم غاية أربي . وذلك لما وصل الركب جاءت شرذمة من الحرس ، لا حرس الله مهجتهم الخسيسة ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة ، فمدّوا في الحجّاج أيديهم ، وفتشوا الرجال والنساء ، وألزموهم أنواعاً من المظالم ، وأذاقوهم ألواناً من الهوان ، ثم استحلفوهم وراء ذلك كله ، وما رأيت هذه العادة الذميمة والشيمة اللئيمة في بلد من البلاد ، ولا رأيت في النـاس أقسى قلوباً ، ولا أقل حياء ومروءة ، ولا أكثر إعراضاً عن الله سبحانه ، وجفاء لأهل دينه من أهل هذا البلد .. »

رحلة النوشريسي

النوشريسي هو أبو عمر عبد الله بن رشيد النوشريسي من رحّالة الاندلس في العصر الغرناطي .وقدجاب النوشريسي نواحي المغرب ومصر والشام في سنة ١٢٧٤. وسجّل مشاهداته في «رحلة» لم تزل مخطوطة،يورد لنا فيها النوشريسي تراجم من لقي من أهل الأدب ، ويتحدث عما شهد من مجالس أهل العلم وما زار من المكتبات .

رحلة ابن رشيد السبتي

السبتي ، هو أبو عبد الله محمد بن عمر من سبتة . له رحلتان اشتهر بهما . طاف فيهما نواحي المغرب وفي الاندلس . ولكن ما كتبه ابن رشيد لم يصل إلينا حتى اليوم لأنه لا يزال مخطوطاً .

رحلة التجاني

هي رحلة[1] خرج فيها عبد الله محمد بن أحمد التجاني مع جمع من تونس على رأسه ابن اللحياني قاصدين حج بيت الله . وكانت طريقهم من تونس إلى سوسه . ثم اتخذ القوم طريقاً داخلية حملتهم إلى الجم ثم إلى صفاقس فقابس . ومن هذه زاروا توزر وعادوا إلى قابس فتجفت حيث عرّجوا على جزيرة جربة. ورجعوا

١–نشرت الرحلة بتونس عام ١٩٥٨ باسم « رحلة التجاني » وعقد حولها الدكتور نقولا زيادة فصلا في مجلة « العربي » العدد ٣٣ .

إلى الداخل إلى غمراسن فزوارة فصبرة فطرابلس فمصراته . ومن طرابلس تابع ابن اللحياني سيره شرقاً لأداء الفريضة ، وعاد التجاني إلى تونس فوصلها بعد اثنين وثلاثين شهراً غابها رحالتنا عن بلده « ولكنها كانت خيراً وبركة على الأدب والتاريخ » إذ قيد فيها التجاني أخباررحلته ، وسجل مشاهداته وعبر عن انطباعاته في « تقييده » الذي سمى به أخبار رحلته . وهو كناية عن كتاب في الأدب والتاريخ والجغرافية ووصف المجتمع الذي رآه التجاني وخالطه ، مدبج باسلوب جلي وعبارة أنيقة وصف بها الرحالة صفاقس وقابس وتوزر ومدينة طرابلس .

واليك هنا بعض هذه الأوصاف . قال التجاني :

وصفه صفاقس

« ووصلنا إلى صفاقس ظهراً ، فرأيت مدينة حاضرة ذات سورين ، يمشي الراكب بينهما ويضرب البحر في الخارج منهما . وكانت بها قبل غابة زيتون ملاصقة لسورها فأفسدها العربان فليس بخارجها الآن شجرة قائمة . وفواكهها مجاوبة اليهـا من قابس . وماؤها شراب لا يساغ ، وإنما يعتمدون في شربهم على ما يدخرونه من مياه الامطار . ويُصطاد بها من السمك أنواع تفوت الاحصاء . وببحرها يوجد صوف البحر الذي يعمل منه الثياب الرفيعة الملوكية . وربما وجد في بحرها صدف يشتمل على لؤلؤ صغير الحب . ومرساها مرسى حسن ميت الماء ، والماء يمده به ويجزر عنه كل يوم ، فاذا جزر استوت السفن على الحمْأة ،

وإذا مد عامت » .

وصفه قابس

« وأصبحنا يوم الاثنين مرتحلين فأشرفنا على غابة قابس ، ووصلنا اليها ضحى فرأينا بلداً قد استوفى المحاسن واستغرقهـا . وأذكر بمنظره الأنضر ، وورقه الأخضر ، جنة الخلد واستبرقها ، وقد احدقت غابته به من جميع جهاته . وبهذه الغابة من الجواسق والنخل المتناسق ،ما يستوقف الطرف ،ويستوفي الحسن والظرف ، ويحقق ما قيل ان قابس جنة الدنيا ، وانها دمشق الصغرى ، وهي مدينة بحرية صحراوية فان الصحراء متصلة بها ، والبحر على ثلاثة أميال منها . »

وصفه جزيرة جربة

« وجزيرة جربة من أعظم الجزائر خطراً ،وأشهرها في سالف الزمن عمارة وذكراً ، وطولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلاً ... وأما عرضها فمختلف ، فعرض الرأس الغربي منها عشرون ميلاً ، وهو الطرف الواسع ، ومن هذا الموضع إلى جزيرة قرقنة في البحر ستون ميلاً . وعرض الرأس الشرقي منها خمسة عشر ميلاً ، وهو أضيق مكان بها . وهي أرض كريمة المزارع ، عذبة المشارع ، وأكثر شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين . وبها أصناف كثيرة من سائر الفواكه . إلا ان هذه هي أكثر ثمرها وعليها مـدار غلاتها . وغيرها من كرائم الارضين لا يقاربها على الجمالـة في

ثمارها أو يساويها . وتفاحها لا يوجد في جميع بقاع الأرض له نظير ، لما يوجد به من صفاء وجفاف وطيب مذاق ، وعطارة استنشاق ، ورائحته توجد من المسافة المديدة ، والأميال العديدة . وكان من شجره بهذه الجزيرة قبل هذا كثير ، ثم قل الآن بسبب ان النصارى يتحفون به ملوكهم وكبارهم دون تعويض لأربابه عنه ، فرأى أهل الجزيرة ان غيره من الشجر أعود بالفائدة عليهم فقطعوا أكثره . واختصت هذه الجزيرة أيضاً دون غيرها من البلاد بحسن الأصواف المحمودة الأوصاف التي ليس بافريقية لما يُنسَج من أثوابها نظير ، وذلك معلوم من أمرها شهير . وأكثر مساكن أهلها أخصاص من النخيل ، يجعل كل واحد منهم في أرضه واحداً أو اثنين أو أكثر من ذلك ثم يسكنه بعياله . وليس بها بناء قائم الا دور قليلة . »

وصفه توزر

« توزر هي قاعدة البلاد الجريدية ، وليس في بلاد الجريد غابة أكبر منها ولا أكثر مياهاً . وأصل مياهها من عيون تنبع من الرمل وتجتمع خارج البلد في واد متسع ، تتشعب منه جداول كثيرة ، وتتفرع عن كل جدول منها مذانب (الجداول الضيقة) يقسّمونها بينهم على املاك لهم مقررة مقاسم من المياه معروفة . ولهم على قَسمها أمناء من ذوي الصلاح فيهم يقسمونها على الساعات من النهار والليل بحساب لهم في ذلك معروف ، وامر مقرر مألوف . وعلى ذلك الماء أرجاء كثيرة منصوبة . ومن العجب

ان هذا الوادي يحتمل ما يحتمل من غثاء أو غيره ، فاذا انتهى إلى المَقْسم افترق هنالك أجزاء بالسوية على عدد المسارب فمضى كل منها إلى مسرب منها ، وهذا مما شاهدته فيها عياناً . وكثير من أهلها إنما يسكنون بغابتها . ولا مناسبة بين مباني الغابة ومباني داخل البلد ، فان مباني الغابة أضخم وأحسن . وبداخل البلد يجامعان للخطبة وحمام واحد . ومتفرجهم بموضع يعرفونه بباب المنشر ، وهو من أحسن المتفرّجات لأن مجتمع الماء هنالك ، ومنه تفرع كما تقدم . ويجتمع به القصارون فينشرون هنالك من الثياب الملونة والامتعة المَوْشية ما يعمه على كبره فيخيل للناظر انه روض تفتحت أزهاره ، واطردت انهاره . وليس بتوزر أحسن من هذا الموضع . وهو خارج عن غابتها والغابة ملاصقة لسور المدينة فهي بذلك تمت حصانتها » .

وصفه طرابلس

« ولما توجهنا إلى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها من شعاع الشمس يُعشي الابصار ، فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء . وخرج جميع أهلها مظهرين الاستبشار رافعين أصواتهم بالدعاء ، وتخلى والي البلد إذ ذاك عن موضع سكناه ، وهو قصبة البلد ، فنزلنا بها . ورأيت آثار الضخامة بادية على هذه القصبة ، غير ان الخراب قد تمكن منها وقد باع الولاة أكثرها . فما حولها من الدور التي تكتنفها الآن مما استُخرجت منها . ولها رحبتان متسعتان . وفي الخارج منها المسجد المعروف في القديم

بمسجد العشرة ، لأن عشرة من أشياخ البلد كانوا يجتمعون فيه للمشورة فيدبرون أمر البلد ، وذلك قبل تملك الموحّدين لها ، فلما تملكوها ارتفع ذلك الرسم ، وزال عن المسجد ذلك الاسم » .

« ودخلت حمام البلد وهو المجاور للقصبة ، فرأيت حماماً صغير المساحة ، إلا أنه قد بلغ من الحسن غايته ، وتجاوز من الظرف نهايته ، وكان هذا الحمام من منافع القصبة فبيع من جملة ما بيع منها ، وهو الآن مُحبّس على بعض المساجد . وبالبلد حمامان آخران غيره إلا أنهما في الحسن دونه . ورأيت شوارعها فلم أر أكثر منهانظافة ولا أحسن اتساعاً واستقامة ، وذلك ان أكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً من أولها إلى آخرها على هيئة شطرنجية ... ورأيت بسورها من الاعتناء ، واحتفال البناء ، ما لم أره لمدينة سواها ، وسبب ذلك ان لأهلها حظاً من مَجْباها ، يصرفونه في رمّ سورها ، وما تحتاج اليهم من مهم أمورها ، فهم لا يزالون أبداً يجددون البناء فيه يتداركون تلاشيه بتلافيه . »

وبخارج باب البحر منها منظر من أنزه المناظر ، مشرف على الساحل حيث مرسى المدينة ، وهو مرسى حسن متسع تقرب المراكب فيه من البر ، وتصطف هناك اصطفاف الجياد في أواريها .. »

وصفه مدارس طرابلس وعلماءها

« وبداخل البلدمدارس كثيرة وأحسنها المدرسة المستنصرية التي كان بناؤها على يد الفقيه ابي محمد عبد الحميد بن ابي

البركات بن أبي الدنيا رحمة الله تعالى وذلك فيما بين سنة خمس وخمسين إلى سنة ثمان وخمسين ، وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعاً وأظرفها صنعاً . »

« والقائم برسم العلم في هذه البلدة في وقتنا هذا شيخنا الامام الحافظ ابو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبيد ، وهو رجل ليس من عمرو ولا زيد ، ناهيك من رجل ، قد نال من المعارف ما اشتهى ، وحاز فيما حاز من العلوم الأصولية والفرعية الغاية والمنتهى ، حضرت درسه بمسجد مجاور لداره فرأيت رجلاً متضلعاً من العلم ذاكراً بالمذهب ذكراً لا يجاريه فيه أحد ولا تكاد مسألة من مسائله تشذ عنه ، حسن العبارة مشاركاً في علوم جمة. وله اعتناء بحفظ كلام القرويين في المذهب من تعليل أو تفسير أو تفريق أو تخريج . واعتماده في الاصول الدينية والفقهية على كلام الامام ابي المعالي ، وكلام الشيخ ابي حامد الغزالي . وهو سبأي النسبة من ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وأخبرني أن مولده بطرابلس عام تسع وثلاثين وستمائة ، وأكثر استفادته على ما أخبرني على الفقيه القاضي ابي موسى عمران بن موسى بن معمر الطرابلسي رحمه الله تعالى ، وليس له رحلة عن بلده إلا إلى الحج ، حج عام ثلاثة وسبعمائة » .

« ولما حضرت درسه وتحققت مكانته المكينة في العلم أحببت القراءة عليه مدة اقامتنا هنالك . وطلب مخدومنا أن يكون ذلك بمحضر منه ، فلم يكن بد من استدعاء الشيخ لموضع سكنانا ،

فعقدنا مجلسنا لذلك بالقصبة . وطلب الحضورَ بذلك المجلس جماعة من أعيان الطلبة بالبلد فأذن لهم، ورأينا أن يكون المقروء حديث خير الانام ، الذي هو الأصل لجميع الاحكام، فابتدأت القراءة بلفظي لصحيح مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري رحمه الله تعالى في غرة شعبان من العام المذكور قراءة تفقه فيه ، وتدقيق للبحث في ألفاظه الكريمة ومعانيه . وقد كنت ابتدأت تقييد ما نتجته فيه بيننا المناظرة ، وافادته المحاضرة ، مما جاء كالاكمال ، لكتاب « الاكمال » . ثم بعد ذلك في الشهر نفسه ابتدأت قراءة دولة أخرى من كتاب المسنَد الصحيح للامام الحافظ ابي عبدالله محمد بن اسماعيل الجعفي البخاري رحمه الله ، وامتد في قراءتهما مدى ، قرئ فيه منهما ما هو نور وهدى ، إلى ان دعا بنا داعي البين فأعجلت النقلة عن تمام الكتابين » .

الرّحلات في القرن الرّابع عشر للميلاد

الثّامن للهجرة

القرن الرابع عشر للميلاد هو القرن الذي بلغت فيه رحلات العرب أقصى غايتها ، من حيث الغنى ومن حيث الاتساع ، ففي هذا القرن ارتحل ابن بطوطة (١٣٠٤ – ١٣٧٧) من غرب افريقية إلى شرق آسية ، وقضى في رحلته حوالى ثمانية وعشرين عاماً ، قطع في أثنائها ما يساوي مئة وعشرين ألف كيلومتر . وطوّف ابن جابر (المتوفى سنة ١٣٤٥ م) والباوي (في ما بين سنتي ١٣٣٥ و ١٣٣٩ م) بنواحي المشرق والمغرب [١] ، وأقدم محمد بن قو سلطان « مالي » على رحلة جريئة في خضم المحيط الأطلسي ورد ذكرها في كتاب « صبح الأعشى » للقلقشندي ، ومن الرحلة يستدل أن الملك هذا حاول بنفسه ، على رأس ألفي سفينة أن يرود

١ – أورد وصف رحلته في كتابه المسمى « تاج المفرق في تحلية علماء المشرق » .

البحر اللجّي (بحر الظلمات) ويصل إلى شاطئه الغربي . غير أننا هنا سنكتفي بالاشارة فقط إلى هؤلاء ، قاصرين البحث على ابن بطوطة الذي يعتبر سيد هؤلاء الرحّالين غير منازع .

التعريف بابن بطوطة

هو شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة أكثر رحّالة العرب شهرة وأوسعهم جوباً للآفاق . ولد بمدينة طنجة في طرف الشمال الافريقي ، ودرس فيها الفقه والأدب ، وأعدّ للقضاء جرياً على تقاليد أسرته . غير أنه ما إن بلغ الحادية والعشرين من عمره ، حتى خرج من بلاده معتمداً حج بيت الله وزيارة قبر الرسول ، فلما وصل إلى الشرق انساق بحبه للأسفار إلى الطواف في مختلف أجزاء العالم المعروف في أيامه ، وأخذ يتنقل فيها من إقليم إلى آخر إلى أن مضى عليه في ذلك نحو من ثمانية وعشرين عاماً انقلب على اثرها إلى المغرب ، واتصل بالسلطان أبي عنان من ملوك بني مرين ، وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض ، ويأتي من أحواله ما يستغربه السامعون . « فغمره أبو عنان من إحسانه الجزيل ، وامتنانه الحفيّ الحفيل ، ما أنساه الماضي بالحال وأغناه عن طول الترحال ، وخصّ به كاتبه « ابن جزي » الذي صاغ ما أملاه عليه ابن بطوطة في تصنيف جاء على فوائده مشتملا ونيل مقاصده مكملا ، ووسمه بـ «تحفة النظار في غرائب الأمصار

وعجائب الأسفار [1] »

طريق رحلة ابن بطوطة

بدأ ابن بطوطة رحلته من مسقط رأسه في طنجة ، فجاوز شمالي افريقية إلى مصر وديار الشام ، ومنها انتقل إلى الديار الحجازية حيث أدّى الفريضة ، ومن ثم واصل رحلته فقصد إلى فارس والعراق ، وعاد منهما فعرّج على الموصل وديار بكر ، وزار مكة مرة ثانية . ومن مكة مال الرحالة المغربي إلى جنوب الجزيرة العربية « اليمن » وعبر إلى افريقية الشرقية ، ثم عاد إلى بلدان الخليج الفارسي ، وطلب مكة للمرة الثالثة . ثم اتجه نحو مصر ، وتركها إلى الشام وآسية الصغرى ، وأبحر من هناك إلى شبه جزيرة القرم حيث رافق أميرة يونانية هي زوج السلطان أوزبك في زيارة لأبويها في القسطنطينية . ومن الفولغا (نهر إتل) قصد إلى الهند عبر بخارى وخوارزم وكردستان وأفغانستان ، وقضى فيها سنوات يشغل منصب قاض في دلهي (دهلي) إلى أن خطر للسلطان أن يبعث به مع وفد يحمل هدية إلى ملك الصين ، فركب ابن بطوطة مع الوفد إلى قندهار ومنها إلى قاليقوط أحد الثغور الهندية ومحطة السفن الذاهبة إلى الصين . فهبت هناك عاصفة أغرقت مركب الرحالة وهدية الملك ، فلم يرجع رحّالتنا على اثرها إلى الهند ، بل تنقل في الملديف (جزائر ذيبة المهل) ، وتولى القضاء فيها سنة ونصف السنة تقريباً ، عاودته بعدها رغبته في التجوال والتفرج على

---

[1] اسم الرحلة الأصلي وقد عرفت في التاريخ باسم « رحلةابن بطوطة ».

البلاد الصينية . فسافر اليها عن طريق جزيرة سيلان والبنغال ، وركب البحر ماراً بشبه جزيرة الملايو ، فوصل إلى الصين وتنقل في ربوعها ، واطلع على أحوال المسلمين فيها ، ووفق أخيراً إلى زيارة الثغرين الصينيين زيتون وكانتون ، ثم رحل عن الصين ماراً بجزيرة سومطرة ، ونزل في ظفار ، واتجه إلى بلاد العجم وكرر تطوافه في فارس والعراق وبلاد الشام ، وحج إلى مكة للمرة الرابعة .

وعند ذلك شغف ابن بطوطة تذكار الأوطان والحنين إلى الأهل والخلان والمحبة لبلاده التي لها الفضل على البلدان ، فقرر أن يعود إلى موطنه ، واتجه نحو مصر ، ومنها أبحر إلى تونس فالجزائر فالمغرب ، ووصل إلى فاس في شعبان سنة ٧٥٠ ه‍ (١٣٤٩ م) ولكنه لم يقم فيها طويلاً بعد عودته إذ رأى أن يزور بلاد الأندلس فرحل اليها رحلته الثانية ، وتوجه إلى مدينتي مالقة وغرناطة ثم عاد إلى فاس ، ومنها رحل رحلته الثالثة إلى بلاد الزنج في السودان الغربي حيث زار سلجماسة ، تغازي ، ايوالاتن ، مالي ، تكدا ، الحجر ، ثم عاد إلى فاس وفيها أمضى بقية حياته .

قيمة رحلة ابن بطوطة

لرحلة ابن بطوطة قيمة في التاريخ اختلف في تقديرها ، فذهب قوم إلى أنها أوفى وأصدق ما ألفه العرب والعجم في تقويم البلدان ، وشك آخرون بصدق ما روته وبخاصة وصول ابن بطوطة إلى بعض الأقاليم (الصين مثلاً) وإيراده الخبر بصورة مبالغ فيها أحياناً (ببيع أهل الظلمة وشراؤهم) وإعراضه عن ذكر

التفاصيل المتعلقة ببعض المدن والأقطار (إغفاله القلعة في بعلبك) وعدم ترتيبه أسفاره ترتيباً يعنى فيه بالتسلسل الحادثي أو التسلسل الزمني ، وذكره للأسماء مختلطة لفظاً (في المناطق الشرقية القصية) وعدم تصويره الأماكن تصويراً واضحاً مما حمل هؤلاء على القول بأن أدب الرحلة يفتقر عند ابن بطوطة إلى عنصرين هما الأمانة العلمية والنقد المحلل .. أما أهل الاستشراق فقد أولوا رحلة ابن بطوطة عناية كبيرة ، فجدوا في البحث عن نسخها الأصلية زماناً طويلاً ، وظلوا يبحثون حتى عثروا على نسخ منها كاملة حققوها وقاموا بترجمتها إلى لغاتهم ، ونشروا عنها وعن مؤلفها دراسات مطولة تثني جميعها على أبي عبد الله ، وتعترف بعظيم فضله ، وصحة معلوماته ، وتؤيد رحلته تأييداً معززاً بأقوال الرحالة الايطالي « فريسكوبالدي » الذي ساح في الشرق بعد ابن بطوطة بأكثر من نصف قرن وأيد ما رواه الرحالة المغربي . وبهذا الصدد يقول العلامة ستيزن [1] : « إن ما جاء به ابن بطوطة من المعلومات الصحيحة عن جهات افريقية المجهولة لا يقل في فائدته عن معلومات « لاون » الافريقي . أما جغرافية بلاد العرب وبخارى وكابول وقندهار فقد استفادت من الرحلة كثيراً . وفي ما كتبه عن الهند وجزيرة سرنديب من المعلومات المفيدة ما يهيب بالانكليز المقيمين في الهند إلى قراءته لأن فيه ما يفيدهم في تفهم عقلية السكان . »

هذا الموقف من علماء الغرب حدا بأكثر من باحث عندنا إلى

١ – المكشوف ، العدد ٣١٢ ، السنة السابعة ، الصفحة ٢ .

العودة من جديد إلى الرحلة وتقليب النظر فيها على ضوء المعلومات التي نفذت اليهم من رجال الاستشراق فوجدوا ان الرجل (ابن بطوطة) قد يكون في روايته بالغ أو حرّف أو أدخل بعض الاساطير ، ولكنه لم يفعل ذلك عمداً أو غشاً، بل قاده اليه الخطأ والنسيان وبعد ما بين الرحلة وإملائها ، وإذا كان ثمة في روايته أخبار ليست تحتمل التصديق فقد ساقها كما سمعها أو كما وقرت في ذهنه لأنه كان ساذج الطبع ، سليم الطوية ، سريع الأيمان ، شديد التأثر ، معظماً للأولياء وما ينسب اليهم من أعمال البر ومن الكرامات . أما عدم التسلسل الحادثي والزمني فسببه أن الرحالة لم يكن غنياً فلم يقدر على أن يخط لنفسه طريق السفر ، بل كان يصاحب القوافل التي كانت تقبل أن تحمله معها مجاناً ، لذلك طالت رحلته وتعرّجت طريقه ، وكان فيها همه منصرفاً إلى الناس لا الأماكن لذلك أعرض عن ذكر التفاصيل المتعلقة ببعض المدن والأقطار ، وأفدنا منه اجتماعياً لاجغرافياً .

ومهما يكن من خلاف بين هذا الرأي وسواه من الآراء التي لا تتفق معه ، فإن الرحلة هذه تبقى مصدراً من أهم المصادر التاريخية الجغرافية بالنسبة إلى حياة الأمم الشرقية في القرون الوسطى ، يجد فيها الباحث معرضاً كبيراً لأحوالها من الوجهتين السياسية والاجتماعية ، ويقف على كثير من أسرارها التي كشف ابن بطوطة عنها الستر لأول مرة في التاريخ ، فذكر شيئاً عن استعمال أوراق النقد في الصين ، وعن استعمال الفحم الحجري ، وغير ذلك مما يعد مرجعاً في دراسة تاريخ العلوم والحضارة الانسانية . وإننا على الرغم من

» افقتنا أخيراً على ما ذكر من أن ورع ابن بطوطة المفرط وسذاجته صرفاه عن نواح عديدة كانت حرية باهتمام رحالة مثله وحملاه على تصديق الخرافات وجميع ما يتصل بالدين .. لعلى ثقة — مع بروكلمن — بأن أحداً لا يداني ابن بطوطة في سعة استشراقه العالمي غير معاصره ماركوبولو البندقي ، الذي سار كما سار رحالتنا شرقاً إلى أن وصل إلى الصين وطاف بالاقطار الشرقية ورجع إلى بلاده وأثار العجب بغرائب ما قص من أحوالها [١] .

وها اننا نعود إلى كتاب الرحلة نتخيّر منه بعض المقتطفات علها تساعد على تقديم فكرة كاملة عن الرحلة وأهميتها .

١ — ابن بطوطة في بلاد مصر

« ... ويقال إن بمصر من السقّائين على الجمال اثني عشر ألف سقّاء ، وإن فيها ثلاثين ألف مُكارٍ ، وإن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً ، للسلطان والرعية ، تمر صاعدة إلى الصعيد ، ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط ، بأنواع الخيرات والمرافق . وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر ، الموضع المعروف بالروضة ، وهو مكان النزهة والتفرّج . وبه البساتين الكثيرة الحسنة. وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو ، شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده ، فزيّن كل أهل سوق سوقهم ، وعلّقوا بحوانيتهم الحلل والحلي وثياب الحرير ، وبقوا على ذلك أياماً .

---

١ — بروكلمان — تاريخ الشعوب الاسلامية — الجزء ٢ ، ص ٢١١ ، طبعة بيروت .

مدينة دمياط

ثم سافرت في أرض رملة إلى مدينة دمياط . وهي مدينة فسيحة الأقطار ، متنوعة الثمار ، عجيبة الترتيب ، آخذة من كل حسن بنصيب .. وهي على شاطئ النيل ، وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء . وكثير من دورها بها دركات يُنزل فيهـا إلى النيل . وشجر الموز بها كثير يُحمل ثمره إلى مصر في المراكب ، وغنمها سائمة هَمَلاً بالليل والنهار . ولهذا يقال في دمياط : « سورها حلواء وكلابها غَنَم » وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها ، إلاّ بطابع الوالي . فمن كان من الناس معتبراً طُبع له في قطعة كاغد (ورق) يستظهر به لحرّاس بابها . وغيرهم يُطبع على ذراعه فيستظهر به .

والطير البحري ، في هذه المدينة ، كثير متناهي السّمَن . وبها الألبان الجاموسية التي لا مثيل لها في عذوبة الطعم ، وطيب المذاق . وبها الحوت البوري (السمك المعروف) يُحمل منهـا إلى الشام وبلاد الروم (آسية الصغرى) ومصر .

٢ ــ ابن بطوطة في بلاد الشام

في قطيا على الحدود الشامية المصرية

.. وبها (أي بقطيا) تؤخذ الزكاة من التجار ، وتفتش أمتعتهم ، ويُبحث عمّا لديهم أشدّ البحث . وفيها الدواوين ، والعمّال ، والكتّاب ، والشهود . ومجباها في كل يوم ألف دينار

من الذهب . ولا يجوز عليها أحد إلى الشام إلاّ ببراءة من مصر ، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام ، احتياطاً على أموال الناس وتوقّياً من الجواسيس العراقيين . وطريقها من ضمان العرب قد وُكّلوا بحفظه . فاذا كان الليل ، مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر . ثم يأتي الأمير صباحاً ، فينظر إلى الرمل ، فان وجد به أثراً، طلب العرب باحضار موثره . فيذهبون في طلبه ، فلا يفوتهم ، فيأتون به الأمير ، فيعاقبه بما شاء .

ذكر معرة النعمان وسرمين

ثم سافرت إلى مدينة المعرّة التي يُنسب اليها الشاعر أبو العلاء المعري وكثير سواه من الشعراء . وهي مدينة صغيرة حسنة أكثر شجرها التين والفستق . ومنها يُحمل إلى مصر والشام ...

ثم سرنا منها إلى مدينة سرمين . وهي حسنة كثيرة البساتين ، وأكثر شجرها الزيتون ، وبها يُصنع الصابون الآجرّي ، ويُجلب إلى مصر والشام . ويُصنع بها أيضاً الصابون المطيّب لغسل الأيدي ويصبغونه بالحمرة والصفرة . ويصنع بها ثياب حسان تنسب اليها.

وأهلُها سبّابون يبغضون العشرة (أصحاب النبي) . ومن العجب أنهم لا يذكرون لفظ « العشرة » وينادي سماسرتهم بالاسواق على السلع فاذا بلغوا إلى العشرة قالوا : « تسعة وواحداً » وبها مسجد جامع فيه تسع قباب ، ولم يجعلوها عشراً قياماً بمذهبهم القبيح !

طائفة الاسماعيلية

.. وهذه الحصون لطائفة يقال لهم : « الاسماعيلية » ويقال لهم : « الفداوية » ، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم . وهم سهام الملك الناصر ، بهم يصيب من بَعُد عنه من أعدائه بالعراق وغيرها . ولهم المرتّبات . وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديته . فان سلم بعد تأتّي ما يراد منه فهي له ، وإن أصيب فهي لوُلْده . ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا إلى قتله . وربمّا لم تصحّ حِيَلهم فقتلوا . كما جرى لهم مع الأمير قراسنقور ، فانه لما هرب إلى العراق بعث اليه الملك الناصر جملة منهم . فقتلوا ولم يقدروا عليه لأخذه بالحزم .

٣ — ابن بطوطة في جبل لبنان

.. وسافرت منه (من جبل الاقرع) إلى جبل لبنان ، وهو من أخصب جبال الدنيا . فيه أصناف الفواكه ، وعيون الماء ، والظلال الوافرة . ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى ، والزهّاد ، والصالحين وهو شهير بذلك ...

في بعلبك

ثم وصلنا من جبل لبنان إلى مدينة بعلبك . وهي حسنة قديمة من أطيب مدن الشام ، تحدق بها البساتين الشريفة ، والجنّات المنيفة ، وتخترق أرضها الأنهار الجارية ، وتضاهي دمشق في

خيراتها المتناهية . وبها من حبّ الملوك (نوع من الكرز) ما ليس في سواها . وبها يُصنع الدبس المنسوب اليها، وهو نوع من الرّبّ يصنعونه من العنب ، ولهم تُربة يضعونها فيه ، فيجمد و تُكسر القُلّة (الجرّة) التي يكون بها ، فيبقى قطعة واحدة . وتصنع منه الحلواء ، و يُجعل فيها الفستق واللوز ، ويسمون حلواءه بـ «الملبن» ويسمونها أيضاً بـ « جلد الفرس » وهي كثيرة الألبان وتجلب منها إلى دمشق ، وبينهما مسيرة يوم للمُجدّ .

ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها .. ويُصنع بها أواني الخشب ، وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد . وهم يسمّون الصّحاف بـ « الدسوت » وربما صنعوا الصّحْفة ، وصنعوا صحفة أخرى تسعها في جوفها إلى أن يبلغوا العشرة ، يخيّل لرائيها انها صَحْفة واحدة . وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرة ، واحدة في جوف واحدة ، ويصنعون لها غشاء من جلد، ويمسكها الرجل في حزامه . وإذا حضر عشاء مع أصحابه أخرج ذلك ، فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة ، ثم يُخرج من جوفها تسعاً .

٤ ـ ابن بطوطة في بلاد فارس

وفاة نجل ملك إيذج

لما دخلت مدينة إيذج أردت رؤية السلطان فلم يتأتّ لي ذلك بسبب أنه لا يخرج إلا يوم الجمعة . وكان له ابن هو ولي عهده وليس له سواه، فمرض في تلك الأيام ولما انتصف الليل في إحدى

الليالي سمعنا الصراخ والنواح وقد مات المريض المذكور . ولما كان من الغد دخل عليّ شيخ الزاوية وأهل البلد وقالوا : إن كـبراء المدينة من القضاة والفقهاء والأشراف والأمراء قد ذهبوا إلى دار السلطان للعزاء فينبغي لك أن تذهب في جملتهم . فأنفت من ذلك. فعزموا علي فلم يكن لي بدّ من المسير فسرت معهم . فوجدت مشور دار السلطان ممتلئاً رجالاً وصبياناً من المماليك وأبناء الملوك والوزراء والأجناد وقد لبسوا التلاليس وجلال الدواب وجعلوا فوق رؤوسهم التراب والتبن وبعضهم قد جز ناصيته . وانقسموا فرقتين فرقة بأعلى المشور وفرقة بأسفله. وتزحف كل فرقة إلى جهة الأخرى وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلون : مولانا . فرأيت من ذلك أمراً هائلاً ومنظراً فظيعاً لم أعهدمثلهمن قبل. ولما دخلت رأيت جهات المشور غاصة بالناس... ونظرت يميناً وشمالاً لأرتاد موضعاً لجلوسي . فرأيت هنالك سقيفة مرتفعة عن الارض بمقدار شبر وفي إحدى زواياها رجلٌ منفرد عن الناس قاعد عليه ثوب صوف شبه اللبد يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفي الأسفار . فتقدمت إلى حيث الرجل وانقطع عني أصحابي لما رأوا إقدامي نحوه وعجبوا مني وأنا لا علم عندي بشيء من حاله . فصعدت السقيفة وسلمت على الرجل فرد علي السلاموارتفع عن الأرض كأنه يريد القيام وهم يسمّون ذلك نصف القيام . وقعدت في الركن المقابل له . ثم نظرت إلى الناس وقد رموني بأبصارهم جميعاً . فعجبت منهم ورأيت الفقهاء والمشايخ والاشرافمستندين إلى الحائط تحت السقيفة . وأشار إلي أحد القضاة ان أنحط إلى

جانبه . فلم أفعل . وحينئذ استشعرت أنه السلطان . فلما كان بعد ساعة أتى شيخ المشايخ نور الدين الكرماني فصعد إلى السقيفة وسلم على الرجل . فقام اليه وجلس فيما بيني وبينه فحينئذ علمت ان الرجل هو السلطان . ثم جيء بالجنازة وهي بين اشجار الأترج والليمون والنارنج وقد ملأوا أغصانها بثمارها والأشجار بأيدي الرجال . فكأن الجنازة تمشي في بستان والمشاعل في رماح طوال بين يديها والشمع كذلك . فصلي عليها وذهب الناس معها إلى مدفن الملوك وهو بموضع يقال له هلافيحان على اربعة أميال من المدينة . وهنالك مدرسة عظيمة يشقها النهر وبداخلها مسجد تقام فيه الجمعة وبخارجها حمّام ويحف بها بستان عظيم وبها الطعام للوارد وللصادر . ولم أستطع أن أذهب معهم إلى مدفن الجنازة لبعد الموضع فعدت إلى المدرسة .

٥ ـ ابن بطوطة في الحجاز

ذكر مكة

فوصلنا عند الصباح إلى البلد الأمين مكة، شرّفها الله تعالى . فوردنا منها على حرَم الله تعالى ، ومُبَوّأ خليله إبراهيم ، ومبعث صفيه محمد (صلعم) . ودخلنا البيت الحرام الشريف، الذي من دخله كان آمناً ، من باب بني شيبة ، وشاهدنا الكعبة الشريفة، زادها الله تعظيماً ، وهي كالعروس تجلى على منصة الجلال، وترفل في برود الجمال ، محفوفة بوفود الرحمن ، موصلة إلى جنة الرضوان

وطفنا بها طواف القدوم ، واستلمنا الحجر الكريم ، وصلّينا ركعتين بمقام ابراهيم . وتعلّقنا بأستار الكعبة عند الملتزَم ، بين الباب والحجر الأسود ، حيث يستجاب الدعاء . وشربنا من ماء زمزم ، وهو لما شُرب له حسبما ورد عن النبي (صلعم) . ثم سعينا بين الصفا والمَرْوة ، ونزلنا هناك بدار بمقربة من باب ابراهيم .

عادات أهلها وفضائلهم

ولأهل مكة الأفعال الجميلة ، والمكارم التامة ، والأخلاق الحسنة ، والايثار للضعفاء والمنقطعين ، وحسن الجوار للغرباء . ولهم ظرف ونظافة في الملابس . وأكثر لباسهم البياض ، فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة ، ويستعملون الطيب كثيراً ، ويكتحلون ، ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر ... ونساء مكة فائقات الحسن ، بارعات الجمال ، ذوات صلاح وعفاف . وهنّ يكثرن التطيّب ، حتى إن إحداهنّ لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيباً . وهنّ يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة ، فيأتين في أحسن زي ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن ، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً .

٦ — ابن بطوطة في العراق

حمّامات بغداد

.. وحمّامات بغداد كثيرة ، وهي من أبدع الحمّامات ..

وأكثرها مطلية بالقار مسطّحة به، فيخيّل لرائيه أنه رخام أسود . وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة ، تنبع أبداً بـه . ويَصير في جوانبها كالصلصال ، فيجرف منها ، ويُجلب إلى بغداد .

طريقة الاستحمام

وفي كل حمّام منها خلوات كثيرة ، كل خلوة منها مفروشة بالقار ، مطليّ نصف حائطها مما يلي الأرض به ، والنصف الأعلى مطليّ بالجص الأبيض الناصع . فالضدان بهـا مجتمعان ، متقابل حسنهما . وفي داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه انبوبان : أحدهما يجري بالماء الحار ، والآخر بالماء البارد . فيدخل الانسان الخلوة منها منفرداً لا يشاركه أحد ، إلاّ إن أراد ذلك . وفي زاوية كل خلوة أيضاً حوض للاغتسال ، فيه أيضاً أنبوبان يجريان بالحار والبارد ، وكل داخل يُعطى ثلاثاً من الفوَط : إحداها يتّزر بها عند دخوله ، والأخرى يتزر بها عند خروجه ، والأخرى ينشّف بها الماء عن جسده . ولم أرَ هذا الاتقان كله في مدينة سوى بغداد . وبعض البلاد تقاربها في ذلك .

٧ — ابن بطوطة في اليمن وبلاد الزنوج
(افريقية الشرقية)

مدينة مقدشو

هي مدينة متناهية في الكبر ، وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون

منها المثين في كل يوم . ولهم أغنام كثيرة . وأهلها تجّار أقوياء . وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها التي لا نظير لها ، ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها .

طعام أهل مقدشو

وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن يجعلونه في صحفة خشب كبيرة ، ويجعلون فوقه صحاف الكوشان وهو الإدام من الدجاج ، واللحم ، والحوت ، والبقول . ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن والحليب ، ويجعلونه في صحفة ، ويجعلون اللبن المريّب في صحفة ويجعلون عليه الليمون المصيّر ، وعناقيد الفلفل المصيّر المخلّل المملوح ، والزنجبيل الأخضر ، والعنباء ، وهي مثل التفاح ، ولكن لها نواة. وهي إذا نضجت شديدة الحلاوة ، وتؤكل كالفاكهة. وقبل نضجها حامضة كالليمون يصيّرونها في الخلّ ، وهم إذا أكلوا لقمة من الأرز ، أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخلّلات . والواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا ، عادة لهم . وهم في نهاية من ضخامة الجسوم ، وسمنها ...

جزيرة مَنْبَسَى

ثم ركبت البحر من مدينة مقدشو ، متوجّهاً إلى بلاد السواحل ، قاصداً مدينة كُلْوا من بلاد الزنوج ، فوصلنا إلى جزيرة منبسى . وهي جزيرة كبيرة ، بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر ، ولا برّ لها . وأشجارها الموز ، والليمون ،

والأترج . ولهم فاكهة يسمّونها « الجمّون » وهي شبه الزيتون ، ولها نويً كنواه . إلاّ أنها شديدة الحلاوة . ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة ، وإنما يجلب اليهم من السواحل . وأكثر طعامهم الموز والسمك . وهم شافعية المذهب أهل دين وصلاح .

كُلْوا

وركبنا البحر إلى مدينة كُلْوا ، وهي مدينة عظيمة ساحلية ، أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ، ولهم شراكات في وجوههم كما في وجوه اليمنيين من جنادة .

ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة ، وكلها بالخشب وسقف بيوتها الديس (نوع من القَصب) والأمطار بها كثيرة . وهم أهل جهاد لأنهم في بر واحد متّصل مع كفّار الزنوج ، والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافعية المذهب .

٨ — ابن بطوطة في الخليج العربي

مرسى حاسك

ركبنا البحر نريد عمان ، في مركب صغير لرجل يعرف بعلي ابن ادريس المصيري، من أهل جزيرة مصيرة . وفي الثاني لركوبنا نزلنا بمرسى حاسك . وبه ناس من العرب ، صيّادون للسمك ، ساكنون هنالك . وعندهم شجر الكندر ، وهو رقيق الورق، وإذا شُرطت الورقة منه ، قطر منها ماء شبه اللبن ، ثم عاد صمغاً .

وذلك الصمغ هو اللّبان ، وهو كثير جداً هنالك. ولا معيشة لأهل هذا المرسى إلاّ من صيد السمك ، وسمكهم يعرف « باللّخَم » . وهو يشبه كلب البحر ، يُشرح ويُقدّد ، ويُقتات به . وبيوتهم من عظام السمك ، وسقفها من جلود الجمال .

عُمان

ثم قصدنا بلاد عُمان ، فسرنا ستة أيام في صحراء . ثم وصلنا بلاد عمان في اليوم السابع . وهي خصبة ، ذات أنهار ، وأشجار ، وبساتين ، وحدائق نخل ، وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس .

نزوا

ووصلنا إلى قاعدة هذه البلاد ، وهي مدينة نَزْوا ... في سفح جبل تحفّ بها البساتين والأنهار . ولها أسواق حسنة ، ومساجد منظمة نقيّة . وعادة أهلها أنهم يأكلون في صحون المساجد ، يأتي الانسان بما عنده ، ويجتمعون للأكل في صحن المسجد ، ويأكل معهم الوارد والصادر . ولهم نجدة وشجاعة ، والحرب قائمة في ما بينهم أبداً . وهم إباضيّة المذهب ...

هرمز

ثم سافرت من بلاد عمان إلى بلاد هُرْمُز . وهرمز بلاد على ساحل البحر ، وتسمّى أيضاً موغ استان ، وتقابلها في البحر هرمز الجديدة ، وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ . ووصلنا إلى هرمز

الجديدة ، وهي جزيرة مدينتها تسمّى جَرُون . وهي مدينة حسنة كبيرة ، لها أسواق حافلة . وهي مرسى الهند والسند ، ومنها تحمل سلع الهند إلى العراقين ، وفارس ، وخراسان . وبهذه المدينة سكنى السلطان . والجزيرة التي فيها المدينة مسيرة يوم ، وأكثرها سباخ وجبال ملح ، وهو الملح الداراني ، وبه يصنعون الأواني للزينة ، والمنارات التي يضعون السرج عليها . وطعامهم السمك والتمر المجلوب اليهم من البصرة وعُمان ، ويقولون بلسانهم : « خُرما وماهي لوتِ بادشاهي » معناه بالعربي : « التمر والسمك طعام الملوك ! » . والماء في هذه الجزيرة له قيمة ، وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر . وهي على بعد من المدينة ، ويأتون اليها بالقرب ، فيملأونها ويرفعونها على ظهورهم إلى البحر ، ويوسقونها في القوارب ، ويأتون بها إلى المدينة .

ورأيت من العجائب عند باب الجامع ، في ما بينه وبين السوق ، رأس سمكة كأنه رابية ، وعيناه كأنهما بابان . فترى الناس يدخلون من إحداهما ويخرجون من الأخرى .

٩ ــ ابن بطوطة في آسية الصغرى

ذكر الأخية في بلاد الروم

واحد الأخية أخي على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه . وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية ، في كل بلد ومدينة وقرية ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالاً بالغرباء من الناس ، وأسرع

إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدي الظَّلَمة ...
والأخي عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجرّدين ويقدمونه على أنفسهم. وتلك هي الفتوة أيضاً ويبني زاوية ، ويجعل فيها الفرش والسُّرُج وما يُحتاج اليه من الآلات . ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معايشهم ، ويأتون اليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق في الزاوية ، فإن ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف ، وإن لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم ، فأكلوا وغنّوا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدوّ ، وأتوا بعد العصر إلى مقدّمهم بما اجتمع لهم . ويسمون بالفتيان ويسمى مقدمهم كما ذكرنا الأخي . ولم أر في الدنيا أجمل أفعالاً منهم ، ويشبههم في أفعالهم أهل شيراز وأصفهان (من بلاد إيران) إلا أن هؤلاء أحبّ في الوارد والصادر ، وأعظم إكراماً وشفقة عليه. وفي الثاني من يوم وصولنا إلى هذه المدينة أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحموي (رفيق له) وتكلم معه باللسان التركي ، ولم أكن يومئذ أفهمه . وكان عليه أثواب خلقة ، وعلى رأسه قلنسوة لبد (صوف) فقال لي الشيخ : أتعلم ما يقول الرجل ؟ فقلت : لا أعلم ما قال ، فقال لي : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك ، فعجبت منه ، وقلت له : نعم . فلما انصرف قلت للشيخ : هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ، ولا نريد أن نكلفه . فضحك الشيخ ، وقال لي : هذا أحد شيوخ الفتيان

الأخية ، وهو من الخرازين (إسكافي) وفيه كرم نفس ، وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار أنفقوه بالليل . فلما صليتُ المغربَ عاد الينا ذلك الرجل ، وذهبنا معه إلى زاويته ، فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثُرَيّات الزجاج العراقي ، وفي المجلس خمسة من البياسيس ، والبيسوس شبه المنارة من النحاس وله أرجل ثلاث . وفي وسطه أنبوب للفتيلة ، ويُملأ من الشحم المذاب ، وإلى جانبه آنية نحاس ملأى بالشحم ، وفيها مقراض لإصلاح الفتيل ، وأحدهم موكّل بها ، ويسمى عندهم الجراغجي . وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان ، ولباسهم الأقبية وفي أرجلهم الأخفاف . وكل واحد منهم متحزّم ، على وسطه سكين في طول ذراعين . وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها في طول ذراع وعرض إصبعين . فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ، ووضعها بين يديه . وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزرْدخانيّ (ضرب من الحرير) وسواه حسنةُ المنظر ، وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ثم أخذوا في الغناء والرقص ، فراقنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم . وانصرفنا عنهم آخر الليل ، وتركناهم بزاويتهم . »

١٠ـ ابن بطوطة في روسية الجنوبية
(شبه جزيرة القرم)

تعظيم النساء في مدينة الماجر

ورأيت بهذه البلاد عجباً من تعظيم النساء عندهم . وهنّ أعلى شأناً من الرجال . فأما نساء الأمراء ، فكانت أول رؤيتي لهنّ عند خروجي من القِرَم ، رؤية الخاتون (الأميرة) زوجة الأمير سَلْطية ، في عربة لها ، وكلها مجلّلة بالملف الأزرق الطيب ، وطيقان البيت مفتوحة وأبوابه ، وبين يديها أربع جوار فائقات الحسن ، بديعات اللباس . وخلفها جملة من العربات فيها جوارٍ يتبعنها . ولما قربت من منزل الأمير ، نزلت عن العربة إلى الأرض. ونزل معها نحو ثلاثين من الجواري ، يرفعن أذيالها . ولأثوابها عرىً ، تأخذ كل جارية بعروة ، يرفعن الأذيال عن الأرض من كل جانب ...

وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتهن ، وإحداهنّ تكون في العربة والخيل تجرّها ، وبين يديها الثلاث والأربع من الجواري يرفعن أذيالها . وعلى رأسها البُغْطاف ، وهو أقروف (قبعة) مرصّع بالجوهر ، في أعلاه ريش الطواويس . وتكون طيقان البيت مفتحة ، وهي بادية الوجه لأن نساء الأتراك لا يحتجبن . وتأتي إحداهن على هذا الترتيب ، ومعها عبيدها ، بالغنم واللبن ، فتبيعه من الناس بالسلع العطرية . وربما كان مع المرأة منهن زوجها ، فيظنه من يراه بعض خدّامها ، ولا يكون عليه من الثياب إلا فروة

من جلد الغنم، وفي رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسمونها « الكُلا ».

سفر ابن بطوطة إلى مدينة بلغار

وكنت سمعتُ بمدينة بلغار ، فأردت التوجه اليها لارى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضاً ، في عكس ذلك الفصل . وكان بينها و بين محلة السلطان أوزبك خان سلطان الأتراك مسيرة عشر . فطلبت منه من يوصلني اليها ، فبعث معي من أوصلني اليها وردني اليه . ووصلتها في رمضان . فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذّن بالعشاء في أثناء إفطارنا فصليناها وأتممنا باقي الصلوات فطلع الفجر في إثر ذلك . ويقصر كذلك النهار بها في فصل قصره أيضاً واقمت بها ثلاثاً .

ذكر أرض الظلمة

وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة ، والدخول اليها من بلغار ، وبينهما مسيرة اربعين يوماً . ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤونة فيه وقلة الجدوى . والسفر اليها لا يكون إلاّ في عجلات صغار تجرها كلاب كبار . فان تلك المفازة فيها الجليد فلا تثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها، والكلاب لها الاظفار فتثبت أقدامها في الجليد . ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو نحوها موقرة بطعامه وشرابه وحطبه . فإنها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر . والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذي قد سار فيها مراراً كثيرة ، وتنتهي قيمته إلى الف دينار

ونحوها . وتربط العربة إلى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب ، ويكون هو المقدم وتتبعه سائر الكلاب بالعربات، فإذا وقف وقفت . وإذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة . وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك . وعادوا إلى منزلهم المعتاد . فإذا كان الغد عادوا لتفقد متاعهم ، فيجدون بازائه من السمور والسنجاب والقاقم . فان رضي صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه أخذه وإن لم يرضه تركه .

١١- ابن بطوطة في الهند وجزر الهند الشرقية

.. ووصلت رفقتنا سالمة ، بحمد الله تعالى ، إلى بنج آب وهو ماء السند . وكان وصولنا إلى هذا النهر ، سلخ ذي الحجة ، واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرّم من عام اربع وثلاثين وسبعمئة . ومن هنالك كتب المخبرون بخبرنا إلى أرض الهند ، وعرّفوا ملكها بكيفية أحوالنا .

في سيوستان

وهي مدينة كبيرة ، وخارجها صحراء ورمال ، لا شجر بها إلاّ شجر أم غيلان . ولا يزرع على نهرها شيء ما عدا البطيخ . وطعامهم الذرة والجُلُبّان ، ويسمونه « المُشُنْك » ومنه يصنعون الخبز . وهي كثيرة السمك والألبان الجاموسية. وأهلها يأكلون السقَنْقُور ، وهي دويبة شبيهة بام جُبين (الحرباء) التي يسميها المغاربة « حنيشة الجنة » إلا أنها لا ذنب لها . ورأيتهم

يحفرون الرمل ، ويستخرجونها منه ، ويشقون بطنها ، ويرمون بما فيه ، ويحشونه بالكُركُم (نبات) وهو عنـدهم عوض الزعفران . ولما رأيت تلك الدويبة وهم يأكلونها استقذرتها فلم آكلها .

ودخلنا هذه المدينة في احتدام القيظ ، وحرّها شديد . فكان أصحابي يقعدون عريانين ، يجعل أحدهم فوطة على وسطه ، وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء ، فما يمضي اليسير من الزمان حتى تيبس تلك الفوطة فيبلها مرة أخرى ، وهكذا أبداً .

مدينة تارنا التي مسخ أهلها حجارة

وركبت يوماً مع علاء الملك (أمير مدينة لاهري) ، فانتهينا إلى بسيط من الأرض على مسافة سبعة أميال منها يعرف بـ « تارْنا » فرأيت هنالك ما لا يحصره العدّ من الحجارة على مثل صور الآدميين والبهائم ، وقد تغيّر كثير منها ودثرت أشكاله ، فيبقى منه صورة رأس ، أو رجل ، أو سواهما . ومن الحجارة أيضاً على صور الحبوب من البُرّ والحمص والفول والعدس . وهنالك آثار سور ، وجدران دور . ثم رأينا رسم دار فيها بيت من حجارة منحوتة . وفي وسطه دكانة حجارة منحوتة ، كأنها حجر واحد عليها صورة آدمي . إلاّ أن رأسه طويل ، وفمه في جانب من وجهه ، ويداه خلف ظهره كالمكتوف . وهناك مياه شديدة النتن وكتابة على بعض الجدران بالهندي . وأخبرني علاء الملك أن أهل التاريخ يزعمون أن هذا الموضع كانت فيه مدينة عظيمة ،

أكثر أهلها الفساد فمسخوا حجارة !

ذكر أشجار بلاد الهند وفواكهها

فمنها العنبة ، وهي شجرة تشبه أشجار النارنج ، إلاّ أنها أعظم اجراماً ، وأكثر أوراقاً ، وظلها أكثر الظلال ، غير أنه ثقيل ، فمن نام تحته وعك ، وثمرها على قدر الاجاص الكبير . فاذا كان أخضر قبل تمام نضجه ، أخذوا ما سقط منه ، وجعلوا عليه الملح ، وصيّروه كما يصيّر الليم (الليمون الحلو) والليمون ببلادنا . وكذلك يصيرون أيضاً الزنجبيل الأخضر ، وعناقيد الفلفل ويأكلون ذلك مع الطعام ، يأخذون بأثر كل لقمة يسيراً من هذه المملوحات . فاذا نضجت العنبة في أوان الخريف ، اصفرّت حبّاتها فأكلوها كالتفاح . فبعضهم يقطعها بالسكين ، وبعضهم يمصّها مصاً . وهي حلوة يمازج حلاوتها يسير حموضة . ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الأشجار كما تزرع نوى النارنج وغيرها .

ومنها الشَكي والبَرْكي ، وهي أشجار عادية ، أوراقها كأوراق الجوز وثمرها يخرج من أصل الشجرة . فما اتصل منه بالأرض فهو البركي ، وحلاوته أشد ، ومطعمه أطيب ، وما كان فوق ذلك ، فهو الشَكي وثمره يشبه القرع الكبار ، وجلوده تشبه جلود البقر . فاذا اصفرّ ، في أوان الخريف ، قطعوه ، وشقوه فيكون في داخل كل حبة ، المئة والمئتان فما بين ذلك من حبّات تشبه الخيار ، بين كل حبّة وحبّة صفاق أصفر اللون . ولكل حبة

نواة تشبه الفول الكبير ، وإذا شويت تلك النواة أو طبخت ، يكون طعمها كطعم الفول ، إذ ليس يوجد هنالك . ويدّخرون هذه النوى في التراب الاحمر فتبقى إلى سنة أخرى . وهذا الشكي والبركي هو خير فاكهة ببلاد الهند .

ومنها التّنْدو ، وهو ثمر شجر الأبنوس ، وحبّاته في قدر حبّات المشمش ولونها ، شديد الحلاوة .

ومنها الجُمون ، وأشجاره عادية ، ويشبه ثمره الزيتون ، وهو أسود اللون ، ونواه واحدة كالزيتون .

ومنها النارنج الحلو ، وهو عندهم كثير . وأما النارنج الحامض فعزيز الوجود . ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض ، وثمره على قدر الليم ، وهو طيب جداً ، وكنت يعجبني أكله .

ومنها المَهْوا ، وأشجاره عاديّة ، وأوراقه كأوراق الجوز ، إلاّ أنّ فيها حمرة وصفرة . وثمره مثل الاجّاص الصغير ، شديد الحلاوة . وفي أعلى كل حبة منه ، حبة صغيرة بمقدار حبة العنب مجوّفة ، وطعمها كطعم العنب . إلاّ أنّ الإكثار من أكلها يُحدث في الرأس صداعاً . ومن العجب أنّ هذه الحبوب ، إذا يبست في الشمس ، كان مطعمها كمطعم التين ، وكنت آكلها عوضاً من التين إذ لا يوجد ببلاد الهند . وهم يسمّون هذه الحبة « الأنكَور » وتفسيره بلسانهم « العنب » ، والعنب بأرض الهند عزيز جداً ، ولا يكون بها إلاّ في مواضع بحضرة دهلي ، وببلاد أخر . ويثمر (المهوا) مرتين في السنة ، ونوى هذا الثمر يصنعون منه الزيت ويستصبحون به .

ومن فواكههم فاكهة يسمونها كسيرا ، يحفرون عليها الأرض ، وهي شديدة الحلاوة ، تشبه القسطل (الكستنا) .

وببلاد الهند من فواكه بلادنا الرمّان ، وهو يثمر مرتين في السنة ، ورأيته ببلاد جزائر ذيبة المهل ، لا ينقطع له ثمر . وهو يسمونه « أنار » ، وأظن ذلك هو الأصل في تسمية الجلنار فان « جل » بالفارسية « الزهر » و « أنار » « الرمان » .

ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار

رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ، ومعهم بعض أصحابنا ، فسألتهم : « ما الخبر ؟ » فأخبروا ان كافراً من الهنود مات ، وأججت النار لحرقه ، وامرأته تحرق نفسها معه . ولما احترقا ، جاء أصحابي وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه . وبعد ذلك كنت ، في تلك البلاد ، أرى المرأة من كفّار الهنود متزينة ، راكبة ، والناس يتبعونها ، من مسلم وكافر ، والأطبال والأبواق بين يديها ، ومعها البراهمة ، وهم كبراء الهنود . وإذا كان ذلك ببلاد السلطان ، استأذنوا السلطان في إحراقها ، فيأذن لهم ، فيحرقونها . ثم اتفق بعد مدّة أني كنت بمدينة ، أكثر سكانها الكفّار ، تُعرف « بأمجَري » ، وأميرها مسلم من سامرة السند ، وعلى مقربة منها الكفّار العصاة ، فقطعوا الطريق يوماً ، وخرج الامير المسلم لقتالهم ، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار . ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر . وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات . فاتفقن على إحراق أنفسهنّ ...

وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمرٌ مندوبٌ اليه (مستحب) ، غير واجب . لكن من أحرقت نفسها ، بعد زوجها ، أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ، ونُسبوا إلى الوفاء . ومن لم تحرق نفسها ، لبست خشن الثياب ، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة ، لعدم وفائها ، ولكنها لا تُكره على إحراق نفسها .

ولما تعاهدت النسوة الثلاث ، اللائي ذكرناهنّ ، على إحراق أنفسهنّ ، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب ، وأكل وشرب ، كأنهنّ يودّعن الدنيا ، ويأتي اليهن النساء من كل جهة . وفي صبيحة اليوم الرابع ، أُتيَت كل واحدة منهن بفرس ، فركبته ، وهي متزينة ، متعطّرة ، وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها . والبراهمة يحفّون بها ، وأقاربها معها ، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار . وكل انسان من الكفار يقول لها : « أبلغي السلام إلى أبي ، أو أخي ، أو أمي ، أو صاحبي » . وهي تقول : « نعم » .. وتضحك اليهم .

وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهنّ في الاحتراق ، فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال ، وانتهينا إلى موضع مظلم ، كثير المياه والاشجار ، متكاثف الظلال ، وبين أشجاره أربع قباب في كل قبة صنم من الحجارة ، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال ، وتزاحمت الاشجار ، فلا تتخللها الشمس فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم ، أعاذنا الله منها .

ولما وصلتُ إلى تلك القباب ، نزلنَ إلى الصهريج وانغمسن فيه ، وجرّدنَ ما عليهنّ من ثياب وحلي ، فتصدقن به. وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن ، غير مخيط . فربطت بعضه على وسطها ، وبعضه على رأسها ، وكتفيها . والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج ، في موضع منخفض ، وصُبَّ عليهن روغن كنجت ، وهو زيت الجلجلان (السمسم) فزاد في اشتعالها . وهنالك نحو خمسة عشر رجلاً بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار . وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة . وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر اليها . فرأيت إحداهن ، لما وصلت إلى تلك الملحفة ، نزعتها من أيدي الرجال بعنف ، وقالت لهم : « مارا ميترساني أزاطش من ميدانم او اطش است رها كني مارا » وهي تضحك. ومعنى هذا الكلام : « أبالنار تخوّفونني ؟ أنا أعلم انها نار محرقة » . ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ، ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الاطبال والانفار والابواق ، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها ، لئلا تتحرّك . وارتفعت الاصوات ، وكثر الضجيج . ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسي ، لولا أصحابي تداركوني بالماء ، فغسلوا وجهي ، وانصرفت .

ذكر سوق المغنين بدولة أباد

وبمدينة دولة أباد سوق للمغنين والمغنيات ، يسمى سوق

طرب آباد ، من أجمل الأسواق وأكبرها .. فيه الدكاكين الكثيرة كل دكان له باب يفضي إلى دار صاحبه . وللدار باب سوى ذلك ، والحانوت مزين بالفرش ، وفي وسطه شكل مهد كبير ، تجلس فيه المغنية أو ترقد ، وهي متزينة بأنواع الحلي ، وجواريها يحركن مهدها . وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة ، يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كل خميس ، وبين يديه خدّامه ومماليكه . وتأتي المغنيات طائفة بعد أخرى فيغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب ، ثم ينصرف .

ذكر السحرة الجوكية

بعث السلطان محمد شاه إلى ابن بطوطة يوماً ، فدخل عليه فوجد عنده رجلين يلتحفان بالملاحف ويغطيان رأسيهما ، وأمره السلطان بالجلوس فجلس ، فقال لهما : ان هذا الشخص من بلاد بعيدة ، فأرياه من غريب صنعكما ، وصدعا بأمره :

« فتربّع أحدهما ، ثم ارتفع عن الأرض ، حتى صار في الهواء فوقنا متربّعاً ، فعجبت منه وأدركني الخوف ، فسقطت إلى الأرض . فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده ، فأفقت وقعدت ، وهو على حاله متربع . فأخذ صاحبه نعلاً له فضرب بها الأرض كالمغتاظ ، فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع ، وجعلت تضرب في عنقه ، وهو ينزل قليلاً قليلاً ، حتى جلس معنا .. فقال لي السلطان : إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل . ثم قال :

لولا أني أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت .. فانصرفت عنه ، وأصابني الخفقان ومرضت حتّى أمر لي بشربة أذهبت ذلك عني . »

١٢ – ابن بطوطة في طريقه إلى الصين

في جزائر ذيبة المهل (المالديف)

« هذه الجزائر إحدى عجائب الدنيا ، وهي نحو ألفي جزيرة ، ويكون منها مئة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة ، لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلا منه ... وهي من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التي بإحداها عند الخروج من الأخرى . وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح . وهي منقسمة أقاليم ، على كل إقليم والٍ . وأكل أهلها سمك يسمونه قُلْب الماس ، ولحمه أحمر ولا ذَفَر له ، وإنما ريحه كريح لحم الأنعام ... ومعظم أشجار هذه الجزائر النارَجيل (جوز الهند) وهو من أقواتهم مع السمك ... وتثمر النخلة منها اثني عشر عِذْقاً في السنة . يخرج في كل شهر عِذْق ، فيكون بعضها صغيراً وبعضها كبيراً ، وبعضها يابساً وبعضها أخضر ، هكذا أبداً . ويصنعون منها الحليب والزيت والعسل ... ويصنعون من عسله الحلواء ، فيأكلونها مع الجوز اليابس منه . ومن أشجارها الأترجّ والليمون والقلقاس . وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة.. وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة ، وأكثر عمارتهم

الخشب ، وهم أهل نظافة وتنزه عن الأقذار ، وأكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم تنظفاً لشدة الحرّ بها وكثرة العرق . ويكثرون من الأدهان العطرية ... ولباسهم فُوَط ، يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوضَ السراويل ، ويجعلون على ظهورهم ثياباً كالمحرمين وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديلاً صغيراً عوضاً عنها ... ومن عاداتهم أنه إذا تزوج الرجل منهم ومضى إلى دار زوجته بسطتْ له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت ، وجُعل عليها غَرَفات من الوَدع عن يمين طريقه إلى البيت وشماله ، وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره ، فإذا وصل اليها رمتْ على رجليه ثوباً يأخذه خدَمه . وإن كانت المرأة هي التي تأتي إلى منزل الرجل بُسطت (فرشت) داره وجُعل فيها الودع ، ورمت المرأة عند الوصول اليه الثوب على رجليه . وكذلك عادتهم في السلام على السلطان عندهم ، لا بد من الثوب يرْمى عند ذلك ... وجميعهم حفاة الاقدام من رفيع ووضيع ، وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار ، فالماشي بها كأنه في بستان ... وصَرْفُ (نقد) أهل هذه الجزائر الودع ... وهذا الودع أيضاً صرف السودان في بلادهم . رأيته يباع بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار الذهبي ... ونساؤها لا يغطين رؤوسهن ، ويمشطن شعورهن ، ويجمعنها إلى جهة واحدة ، ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة ، وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها ... وحليهن الأساور ، تجعل المرأة منها جملة في ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق ...

والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء ، وأكثر الناس لا يسمى صداقاً ... وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء ، فإذا أرادوا السفر طلقوهن . وهن لا يخرجن عن بلادهن أبداً ، ولم أر في الدنيا أحسن معاشرة منهن ، ولا تكلُ المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها ، بل هي تأتيه بالطعام ، وترفعه من بين يديه ، وتغسل يده ، وتأتيه بالماء للوضوء . ومن عاداتهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها ، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة . »

١٣ ـ ابن بطوطة في بـلاد الصـين

واقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع ، والذهب والفضة ، لا يضاهيه في ذلك إقليم من أقاليم الأرض ، ويخترقه النهر المعروف « بآب حيات » ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق ، ويمر في وسط الصين مسير ستة أشهر إلى أن ينتهي إلى صين الصين ، وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والاسواق كنيل مصر ، إلا أن هذا أكثر عمارة وعليه السواقي الكثيرة .

وببلاد الصين السكر الكثير والأعناب والاجاص ، وكل ما ما ببلادنا من الفواكه ، فان بها ما هو مثله وأحسن منه ، والقمح كثير جداً ولم أرَ قمحاً أطيب منه وكذلك العدس والحمص .

الفخار الصيني

أما الفخار الصيني فلا يصنع منه إلا بمدينة الزيتون ، وبصين

كلان وهو من تراب جبال هناك توقد فيه النار كالفحم ويضيفون عليه حجارة عندهم ، ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام ثم يصبون عليها الماء فيعود الجميع تراباً . ثم يخمرونه فالجيد منه ما خمّر شهراً كاملاً ولا يزاد على ذلك ، والرديء ما خمّر عشرة أيام ، وهو هنالك بقيمة الفخار في بلادنا أو أرخص ثمناً ، ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم حتّى يصل إلى بلادنا بالمغرب ، وهو أجمل أنواع الفخار .

ورق النقد

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسكبونه قطعاً كما ذكرناه . وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد (ورق) كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان ، وتسمى الخمس والعشرين قطعة منها بالشْت وهي بمعنى الدينار عندنا وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا ، فأخذ عوضهاجدداً ودفع تلك ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها ، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان ، وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار ويريد شراء شيء لم يأخذ منه ، ولا يلتفت اليه حتّى يصرفه ويشتري به ما أراد .

فحم الحجر

وجميع أهل الصين إنما فحمهم تراب عندهم معقد كالطفل

عندنا ولونه لون الطفل ، تأتي الفيلة بالأحمال منه فيقطعونه قطعاً على قدر قطع الفحم عندنا ويشعلون النار فيه فيتقد كالفحم وهو أشد حرارة من نار الفحم وإذا صار رماداً عجنوه بالماء ، وجففوه وطبخوا به ثانية ، ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى ، ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار الصيني ويضيفون اليه حجارة سوداء كما ذكرنا .

مهارة الصين في التصوير

وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات ، وأشدهم اتقاناً فيها ، وذلك مشهور من حالهم ، وقد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه . أما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه ، لا من الروم ولا ممن سواهم فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً . ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك ، أنني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ، ثم عدت اليها ، إلا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة على الحيطان والورق ، موضوعة في الأسواق. ولقد دخلت إلى مدينة السلطان ، فمررت على سوق النقاشين ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابي ، ونحن في زي العراقيين ، فلما عدت من القصر عشية ، مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت صورتي وصورة أصحابي منقوشة في ورق ألصقوه بالحائط . فجعل كل واحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطئ شيئاً من شبهه . وذكر لي أن السلطان أمرهم بذلك ، وانهم أتوا إلى القصر ونحن به فجعلوا ينظرون الينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر . وتلك عادة لهم في تصوير كل

من يمر بهم ، وتنتهي حالهم في ذلك الى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم ، بعثوا صورته إلى البلاد وبُحث عنه ، فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ .

مراقبة السفن

وعادة أهل الصين إذا أراد مركب من مراكبهم السفر ، صعد إليه صاحبُ البحر وكتابُه ، وكتبوا من يسافر فيه من الجند والخدام والملاحين ، وحينئذ يباح لهم السفر ، فاذا عاد المركب إلى الصين ، صعدوا اليه أيضاً وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس فان فقدوا أحداً ممن قيدوه طالبوا صاحب المركب به ، فاما أن يأتي ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث له ، وإلا أخذ فيه .

فاذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملي عليهم تفصيلاً بجميع ما فيه من السلع ، قليلها وكثيرها ، ثم يُنزَل من فيه ، ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم ، فان عثروا على سلعة ، قد كُتمت عنهم عاد المركب بجميع ما فيه حالاً للمخزن . وذلك نوع من الظلم ما رأيته إلا بالصين ، اللهم إلا أنه كان بالهند ما يقرب منه ، وهو أن من عثر على سلعة له قد غاب على مغرمها ، أغرم أحد عشر مغرماً ، ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم .

المشعوذون في بلاد الصين

وفي تلك الليلة حضر أحد المشعوذة ، فقال له الأمير : « أرنا

من عجائبك » . فأخذ كُرة خشب لها ثَقب فيها سُيور طوال ، فرمى بها إلى الهواء ، فارتفعت حتّى غابت عن الأبصار . ونحن في وسط المشور أيام الحرّ الشديد . فلما لم يبق من السير في يده إلا يسير ، أمر متعلّماً له ، فتعلّق به ، وصعد في الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا . فدعاه فلم يُجِبه ثلاثاً . فأخذ سكيناً بيده كالمغتاظ وتعلّق بالسير إلى ان غاب أيضاً . ثم رمى بيد الصبي الارض ، ثم رمى برجله ، ثم بيده الأخرى ، ثم برجله الأخرى ، ثم بجسده ، ثم رمى برأسه . ثم هبط وهو ينفخ ، وثيابه ملطّخة بالدم . فقبّلَ الارض بين يدي الامير ، وكلّمَه بالصيني . وأمر له الأمير بشيء . ثم انه أخذ أعضاء الصبي ، فألصق بعضها ببعض ، وركضه برجله ، فقام سويّاً . فعجبت منه ، وأصابني خفقان القلب ، فسقوني ما أذهب عني ما وجدت . وكان القاضي فخر الدين إلى جانبي ، فقال لي : والله ما كان من صعود ، ولا نزول ، ولا قطع عضو . وإنما ذلك شعوذة .

١٤ — ابن بطوطة في السودان الغربي

فاشتريت الجمال وعلفتها أربعة أشهر وسافرت في جماعة من التجار وغيرهم فوصلنا في اربعة وعشرين يوماً إلى تغازي وهي قرية لا خير فيها . ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها ، إنما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها نحتت ووضعت تحت الأرض ، ولا يسكنها إلا العبيد الذين

يحفرون على الملح ، ويتعيشون بما يجلب اليهم من التمر ولحوم الجمال فيرسلونه إلى بلاد السودان .

وبالملح يتصارف السودان كما نتصارف بالذهب والفضة ، يقطعونه قطعاً ويتبايعون به . وقرية تغازي على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر . وأقمنا بها عشرة أيام لأن ماءها زعاق وهي أكثر المواضع ذباباً ، ويكثر القمل بها حتى يجعل الناس في أعناقهم خيوطاً فيها الزئبق فيقتله .

ثم دخلنا صحراء شديدة الحر حتى وصلنا إلى مدينة ايوالاتين وهي أول عمالة السودان فتوجه التجار إلى حاكمها وهو جالس على بساط في سقيف وأعوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقسي ووقف التجار بين يديه وهو يكلمهم بترجمان احتقاراً لهم ، فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب ، فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله ولا يرث الرجل سوى أبناء أخته دون بنيه وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا في بلاد المليبار من الهنود وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات ، وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات ومن أراد التزوج منهن تزوج ، لكنهن لا يسافرن مع الزوج .

ولما عزمت على السفر إلى مالي بينها وبين هذه المدينة مسيرة أربعة وعشرين يوماً ، اكتريت دليلاً إذ لا حاجة إلى السفر في رفقة لأمن تلك الطريق . وتلك الطريق كثيرة الأشجار وأشجارها

عادية ضخمة ، تستظل القافلة بظل الشجرة منها وبعضها لا أغصان له ولا ورق . وبعض تلك الأشجار قد استنقع فيه ماء المطر فكأنها بئر ويشرب الناس من الماء الذي فيها ، ويكون في بعضها النحل والعسل . ولقد مررت بشجرة منها فوجدت في داخلها رجلاً حائكاً وهو ينسج .

وفي أشجار هذه الغابة ما يشبه ثمرة الاجاصي والتفاح والخوخ والمشمش وليست بها ، وفيها أشجار تثمر شبه القثاء فإذا طاب انفلق عن شيء كالدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويباع في الأسواق وعندهم يستخرجون منه الزيت فيطبخون به ويسرجون السرج ، ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير وهو عندهم متيسر ، ويحمل من بلد إلى بلد في قرع كبار ، والقرع ببلاد السودان يعظم ومنه يصنعون الجفان ، يقطعون القرعة نصفين ويصنعون منها جفنتين ، وينقشونها نقشاً حسناً ، وهم يأكلون فيها ويشربون .

والمسافر في هذه البلاد لا يحمل زاداً ولا اداماً ولا ديناراً ولا درهماً وإنما يحمل الملح الزجاج وبعض السلع العطرية والبخور . فاذا وصل قرية جاء نساء السودان باللبن والدجاج ودقيق النبق والارز واللوبياء .

ثم سرنا فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل وعليه بلدة كارسَخُوا والنيل ينحدر منها إلى كابرة ثم إلى زاغة وأهلها قدماء لهم ديانة وطلب للعلم ، ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تمبكتو ثم إلى كوكو ثم إلى مالي .

ومالي من أكبر بلادالسودان وسلطانها من أعظم سلاطينهم ، ولا يدخلها الأبيض من النسل لأنهم يقتلونه قبل الوصول اليها ، ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل كأنه قارب صغير . وسلطانها رجل بخيل لما انصرفت عنه بعث إليّ الضيافة ، فإذا بها ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقري وقرعة فيها لبن رائب فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبي من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشيء الحقير .

والسودان أعظم الناس تواضعاً لملكهم وأشدهم تذللاً له ويحلفون باسمه ، فإذا دعا الملك أحدهم عند جلوسه بالقبة ، نزع المدعو ثيابه ولبس ثياباً خلقة وتقدم بذلة ومسكنة وضرب الأرض بمرفقيه ضرباً شديداً وإذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره ، وكنت أعجب منهم كيف لا تعمى أعينهم .

عيد الأضحى في مالي

وحضرت بمالي عيد الاضحى والفطر فخرج الناس إلى المصلى وهو بمقربة من قصر السلطان وعليهم الثياب البيض الحسان وهم يهللون ويكبرون ، ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يشردون الذباب وفي أيديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج ، ويأتي الترجمان بنسائه الأربع وجواريه وهنّ نحو مائة عليهن الملابس الحسان ، وعلى رأسهن عصائب الذهب والفضة ، وينصب له كرسي يجلس عليه ويضرب بالآلة التي هي من قصب وتحتها

قريعات ، ويغني بشعر يمدح السلطان فيه ، ويذكر غزواته وأفعاله ، ويغني النساء والجواري معه ويلعبن بالقسيّ . ويكون معه نحو ثلاثين من غلمانه عليهم جلباب وفي رؤسهم الشواشي البيض وكل واحد منهم يحمل طبله يدق عليه .

ثم يأتي الصبيان يلعبون ويتقلبون في الهواء ولهم في ذلك رشاقة وخفة بديعة ، ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ، وعند ذلك يأمر السلطان للترجمان بالإحسان ، فيؤتى بصرة فيها مائتا مثقال من التبر ، ويذكر له ما فيها على رؤوس الناس ، وتقوم الغلمـــان فينزعون بقسيّهم شكراً للسلطان ، وبالغد يعطى كل واحد منهم عطاء على قدره .

وإذا كان يوم العيد جاء الشعراء ، وقد دخل كل واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش ، وجعل لها رأساً من الخشب لها منقار أحمر . ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة فيذكرون أشعارهم . وذكر لي ان شعرهم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان ان هذا الكرسي الذي عليه ، جلس فوقه من الملوك فلان وكان من أحسن أفعاله كذا ، وفلان وكان من أفعاله كذا ، فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك . ثم يصعد كبير الشعراء على درج الكرسي ويضع رأسه في حجر السلطان ثم يصعد أعلى فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن ثم على كتفه الأيسر وهو يتكلم بلسانهم ثم ينزل ، وأخبرت أن هذا الفعل كان قديمـاً عندهم قبل الاسلام فاستمروا عليه .

عادات السودان

ومن أفعالهم الحسنة قلة الظلم ، وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه ، ومنها شمول الأمن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق فيها ولا غاصب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض ولو كان قناطير مقنطرة ، إنما يتركونه بيد فئة من البيض حتّى يأخذه مستحقه .

ومنها مواظبتهم على الصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها ، وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام ، ومن عاداتهم أن يبعث كل غلامه بسجادة فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتّى يذهب إلى المسجد ، وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له ، ومنها عنايتهم بحفظ القرآن ، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر منهم التقصير في حفظه ، ولا تفك عنهم حتّى يحفظوه . ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون فقلت ألا تسرحهم ؟ فقال : « لا أفعل حتّى يحفظوا القرآن » .

ومررت مرة بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجله قيد ثقيل فقلت لمن كان معي : ما فعل هذا أقتل ؟ ففهم عني الشاب وضحك ، وقيل لي إنما قيد حتّى يحفظ القرآن .

افراس البحر

ثم سافرنا فوصلنا إلى خليج كبير يخرج من النيل لا يُجَازُ إلا في المراكب ، وذلك الموضع كثير البعوض فلا يمر أحد به إلا

بالليل ، ولما وصلنا الخليج ، رأيت على ضفته ست عشرة دابة متشابهة الخلقة فعجبت منها لكثرتها هنالك، ثم اني رأيتها دخلت في النهر فقيل لي هي خيل البحر خرجت ترعى في البر وهي أغلظ من الخيل ولها أعراف وأذناب ورؤوسها كرؤوس الخيل وأرجلها كأرجل الفيلة .

ورأيت هذه الخيل مرة أخرى لما ركبنا النيل من تمبكتو إلى كوكو ، وهي تعوم في الماء وترفع رأسها وتنفخ ، وخاف منها أهل المركب فقربوا من البر لئلا تغرقهم ، ولهم حيلة في صيدها حسنة ، وذلك أن لهم رماحاً مثقوبة قد جعل في ثقبها شرائط وثيقة فيضربون الفرس فإن صادفت الضربة رجله أو عنقه جذبوه بالحبل حتى يصل إلى الساحل ، فيقتلونه ويأكلون لحمه ، ومن عظامها بالساحل كثير .

أكلة لحوم البشر

وقد حدث أن قدم على السلطان جماعة من السودان الذين يأكلون لحم بني آدم ، معهم أمير لهم ، وعادتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطاً كباراً وتكون فتحة القرط منها نصف شبر ويلتحفون في ملاحف الحرير . وفي بلادهم يكون معدن الذهب فأكرمهم السلطان وأعطاهم في الضيافة خادماً فذبحوها وأكلوها ، ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها ، وأتوا السلطان شاكرين . وذكر لي عنهم أنهم يقولون ان أطيب ما في لحوم الآدميات الكف والثدي .

ثم رحلنا من هذه القرية ومات لي بها الجمل الذي كنت أركبه، فأخبرني راعيه بذلك ، فخرجت لأنظر اليه فوجدت السودان قد كلاوه كعادتهم في أكل الجيف .

ومن تمبكتو ركبت النيل في مركب صغير ، منحوت من خشبة واحدة ، وكنا ننزل كل ليلة بالقرى فنشتري ما نحتاج اليه من الطعام والسمن ، بالملح و بالعطور وبحلي الزجاج . ثم سرت إلى مدينة كوكو ، وهي مدينة كبيرة على النيل من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها ، فيها الارز الكثير واللبن والدجاج والسمك والقثاء ويتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع .

الرّحلاتُ في القرن الخامس عشر للميلاد
التاسع للهجرة

يعتبر هذا العصر خاتمة عصور الرحلات العربية في القرون المتوسطة . اشتهر فيه كثيرون أمثال الظاهري (ولد سنة ١٤٤٠ م) ويوحنا يونس الافريقي (ولد سنة ١٤٩٠ م) والملك قايتباي (١٤١٠ – ١٤٩٦ م) وهم ثلاثة رحالة اندفع كل منهم إلى ناحية فطوّف في أرجائها ، وعاد منها بمؤلف لا يزال حتى اليوم مرجعاً من المراجع التي يعتمد عليها في تاريخ ممالك هذا العصر وجغرافية أقاليمها .

رحلة الظاهري

هي رحلة تجارية علمية رحل بها عبد الباسط خليل بن شاهين الظاهري من بلدة ملطية المصرية إلى ديار الأندلس والمغرب ، وكان تاجراً وطبيباً عالماً رغب في أن يتصل بعلماء المغرب وأطبائه ليأخذ

عنهم ، فجهز مركباً ، وحمل عليه بعض المتاجر ، وارتحل برفقة إحدى زوجاته وأسير مسلم خلّصه من أيدي الفرنجة وبعض غلمان وعبيد يخدمون تجارته ، فوصل إلى الديار المغربية وأقام فيها خمس سنوات ودرس واستفاد ووصل إلى الغاية والنهاية وأجيز له . وفي ما يلي إضمامة من أخبار الرحلة استخلصت من كتابه « الروض الباسم » الذي دوّن رحلته في مواضع متفرقة منه . قال الظاهري :

في القطر التونسي

وفيه ورد إلى تونس شواني (مراكب) البنادقة برسم الاتجار ، وحمل التجار من تونس ببضائعهم إلى ثغر الاسكندرية ، وقوي عزمي على العود وتجهزت بذلك .

وفيه أعني شهر رمضان هذا في يوم الخميس ثامنه ، دخلنا إلى جزيرة جربة ، ونزلنا من الشواني اليها ، فرأيت جزيرة عجيبة في الجزائر قريبة من أحد جوانبها إلى البر الكبير خصبة جداً ، ذات كروم وزيتون وغنم كثير وخير وافر .. وإلى قرب ميناها حصن منيع دخلت اليه ورأيته ، وديارها في بساتينها ، وليست بمدينة مسورة ، بل مفرقة الأبنية أنيسة جداً ، مربعة الشكل بوضع غريب ، فأقمنا بساحلها ثمانية أيام فأوسق التجار منها الزيت الكثير وأنواع الأكسية ثم أقلعنا عنها قاصدين طرابلس المغرب ...

وفيه (جمادي الثانية ٨٦٨) في يوم الأحد خامس عشرينه ، دخلت مدينة قابس بالقرب من القيروان ، فرأيت مدينة عجيبة

غير أنها خربت جداً ، وليس بها إلاّ القليل من الناس والعمارة .. فسبحان من لا يتغير . وفيه في يوم الأربعاء ثامن عشرينه ، دخلنا إلى مدينة القيروان ، وحللت بها للاقامة شيئاً .. فأنزلنا الشيخ الامام العالم العلامة ابو عبد الله محمد بن محمد بن محمد البلوي ، الشهير بابن البكوش عالم القيروان ومفتيها وطبيبها ، بدار إلى جانب داره وأنس إليّ جداً .. وأخذت بعد ذلك في الحضور إلى مجالس دروسه ، وأخذنا عنه العلم الكثير في الوقت اليسير باجتهاد وكثرة ترداد ما بين قراءة بنفسنا عليه وسماع ، واستفدنا منه نبذاً جيدة في صناعة الطب ، وحصلنا الفوائد الجمة الجليلة إلى الغاية والنهـاية وأجاز لنا .

وفيه (شهر رجب) ورد خبر من تونس إلى القيروان بأن شخصاً دخل إلى مدينة تونس يدّعي المعرفة بالطب مع طعنه في من وجد من أطباء تونس بأنهم لا يعرفون شيئاً ، وانه سعى اليه ذوو الأمراض والعاهات وهو يظهر أنه يعالج من جاءه .. فاتفق أن جاءه إنسان كالمستسقي ، فقال له بعد أن نظر اليه : « أنت قد بلعت ثعباناً وهو في جوفك ، ومنه حصل لك هذا الحاصل ، ثم سقاه دواء مقيّـأ موهماً بأنه سيخرج الثعبان من جوفه ، فتقيأ في طست بعنف إلى أن سقط الثعبان من جوفه في الطست حيّـاً ، فأكرم ذلك الشخص ، وأشيع بأنه جعله كبير الاطباء بتونس . وبلغ هذا الخبر شيخنا ابن البكوش الماضي ذكره ، فانكر ذلك وتعجب من السلطان في قبوله مثل ذلك ، وأخذته الغيرة .. فكتب مكتوباً لعثمان صاحب تونس يلومه على قبول عقله مثل ذلك ،

ويعرّفه أن هذا من الخلل في ملكه ونقص في حقه . وبيّن له ان الحيوان لا يدخل المعدة من غير شعور صاحبها ، وعلى تقدير دخوله اليها لا يمكن أن يعيش فيها إذا ورد عليها من الخارج ، وبيّن له ذلك . فلما وقف صاحب تونس على ذلك أحضر ذلك الشخص وقال له : « قد أمنتك على نفسك وأعلمني بهذه القضية وإلا كان لك ما لا خير فيه » فأعلمه أنه إنسان فقير الحال ، وقصد أن يروّج نفسه بما فعله ، ووجد هذا الانسان المستسقي .. فأوهمه بأنه ابتلع ثعباناً ، وناوله دواء مقيأ بعنف ، وان الثعبان كان معدّاً معه في كمه حياً. ولما قيأه أخذ يظهر بأنه يمس رأس المريض أو نحو ذلك والقى الثعبان بالطست ، ولما نزل إلى المائع أخذ في الحركة والجولان فراراً من الهلاك وكان ما كان .. وأمر السلطان باخراج هذا الانسان من تونس وعظم شيخنا في عينه وبعث يطلبه إلى تونس فامتنع من ذلك .

حيل التجار

وفيه (ربيع الاول ٨٧٠) في هذه الأيام ورد الخبر الينا بوهران بأن جمعاً من التجار كانوا قد توجهوا من تلمسان وغيرها إلى فاس ، وباعوا ما حملوه معهم للاتجار فيه . ولما جرت الفتنة حصروا عن الرجوع عائدين إلى أوطانهم .. فاتفق أربعة منهم على الرجوع بحيلة احتالوها مشت على العرب وقطاع الطريق بأن شروا حميراً وجعلوا عليها أخراجاً بما كان معهم من المال النقد ، وعمدوا إلى عبي عتيقة فجعلوها أغطية على الأخراج ، وأنهم أخذوا

الطحال من الغنم فجففوه ودقوه وحملوه معهم مع شيء من الغراء وخرجوا. وكانوا إذا قربوا من طائفة من العربان أو نجع أذابوا الغراء الذي معهم ، وجعلوا يلطخون مواضع من أبدانهم على رقابهم ووجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى نصف الساق ، ثم يذرون مما معهم من الطحال المدقوق المجفف ، ويمشون باسكانهم يوهمون بأنهم مجاذيم من أهل البلاء ، وأنهم يجولون بحميرهم عليها زادهم وأثاثهم .. فكانوا إذا اجتازوا على العرب ورأوهم على تلك الحالة هربوا فارّين منهم وأبعدوا يخشون العدوى حتى كانوا يجعلون لهم من أنواع المآكل على ممرهم بالطريق ، ويشيرون اليهم من البعد بأن يأخذوا ذلك ويدعون لهم من غير أن يقربوا منهم ولا يصلوا اليهم . ومنهم من كان يجعل الفضة على رأس رمحه ، فيناوله إياهم .. ولم يزالوا على ذلك حتى وصلوا إلى بلادهم ولم يروا إلا الخير والسلامة ، وكان يكاد أن لا يطير الطير من شرور من اجتازوا بهم من العربان .. وعدّ ذلك من غريب الحيل والنوادر .

رحلة الملك قايتباي

هي رحلة عسكرية رسمية قام بها أحد مماليك البرجيني (الملك الأشرف قايتباي ، (الذي ملك مصر من سنة ١٤٦٨ ــ١٤٩٦م) وقصد إلى سورية ليفتش قلاعها وحصونها وجسورها وسائر مراكز الدفاع والثغور فيها . وقد أثمرت رحلته كتاباً صاغه له أحد كتّابه الذي رافقه فيها وسماه « القول المستظرف في رحلة مولانا الملك الأشرف » . وقد اخترنا لك نصين منه يطلعانك على ما لفت نظره

في هذه الرحلة من العجائب والغرائب : النص الأول يتحدث فيه عن طاحونة الهواء في اللاذقية ، والثاني يخبر فيه عن أشجار سورية وفواكهها وأثمارها :

طاحونة اللاذقية

ومما سمعنا عنه في اللاذقية طاحونة تديرها الريح ، سواء أكان هبوبها من الشمال أو الشرق أو الغرب على نحو ما هو معروف عند الافرنج ، وإذا دارت يوماً كاملاً ، ليلاً ونهاراً طحنت ١٢ اردباً (مكيال) بالكيل المصري .

وقد أقام هذه الطاحونة رجل من اللاذقية كان الافرنج قد أسروه ، فلما عاد أنشأ هذا الشيء العجيب في بلده .

سورية

والمواد الغذائية هناك وفيرة .. فهناك القنبريس والقرنبيط ، وثمة معاصر تصنع الدبس (من العنب) وفيها تصنع الحلاوة الجوزية واللبن . ومما يتقن صنعه هناك حلاوة الارز مع الزيت .

وتكثر هناك الأشجار والفواكه ، ومجاري المياه تقوم عليها النواعير . وتقام يوم السبت سوق حمل الينا منها رمانات بلغت زنة الواحدة منها رطلين مصريين ، وجيء بباذنجان تزن الواحدة مثل ذلك . وقد بلغني أنه يصل وزن الرمانة الواحدة خمسة أرطال ، لكنني لم أر ذلك بنفسي .

رحلة يوحنا يونس الافريقي

هي ثاني رحلة عربية إلى السودان الغربي قام بها فتى من الأندلس عرف أول أمره باسم الحسن بن محمد الوزان واشتهر في التاريخ باسم يوحنا يونس الافريقي . وسبب الرحلة ان الفتى رحل مع عمه . وله من العمر سبع عشرة سنة ، في وفد ديبلوماسي وجهه سلطان المغرب إلى بلاط محمد اسقيا ملك امبراطورية جاوو الذي كان عندئذ قد احتل مكانة مالي كدولة تهيمن على السودان الغربي . ثم أعقب رحلته هذه برحلة ثانية عبر افريقية جنوبي الصحراء . وفي سنة ١٥١٨ وقع حسن أسيراً على يد أحد القراصنة الصقليين وسُلّم إلى البابا ليون العاشر الذي عمّده وسماه باسمه يوحنا يونس دميدسي . وعلى أثر ذلك أخذ يوحنا يونس الافريقي يكتب وصفه الشهير لأفريقية الذي ظهر بالايطالية سنة ١٥٥٠ والذي ظل ، على حد قول توماس هوديكين ، هو المرجع العمدة طيلة قرنين من الزمن في شؤون دول شعوب السودان الغربي وإن كان الزمن « يسبقه » على أن ما قاله عن ازدهار التجارة والحياة العلمية في تمبوكتو وغيرها من مراكز امبراطورية جاوو في إبّان عظمتها وبأسها ظل محتفظاً بقيمته التاريخية . يقول ما فحواه في هذا الصدد :

يوجد في تمبوكتو عدد كبير من القضاة ، والفقهاء ورجال

١ توماس هوديكين – راجعه في مقال له بعنوان « في تمبوكتو خلال القرون الوسطى » منشور تعريبه في مجلة « التربية الوطنية » المغربية ابريل العددالسابع السنة ١٩٦٠ .

الدين الذين يعينهم كلهم الملك . وهو يسبغ على رجال العلم النعم ويوليهم مكاناً سامياً . وتروج تجارة عدد كبير من الكتب المخطوطة المجلوبة من بلاد البربر . فسوق تجارة الكتب اوسع الأسواق رواجاً » .

الرّحلات بعد القرن الخامس عشر للميلاد

مني العرب بعد هذا القرن بفترة من التأخر طالت حتى امتدت حوالي ثلاثمئة سنة تقريباً كانت فيها البلاد العربية نهب التردّي وامثولة الانقسام ، يسيطر عليها الجهل ، ويغشى قرائحها الجمود ، فلا أدب ، ولا فكر ، ولا شيء من قبيلهما ، بل استسلام إلى اليأس ، وانصراف عن الدنيا إلى الزهد فيها والقناعة بما قسم الله . و بسبب ذلك عم الضعف سائر ميادين الحياة وشمل أدب الرحلة في طريقه ، فلم يصلنا عن هذه القرون الثلاثة سوى خبر رحلتين أو ثلاث ، رحل فيها أصحابها إلى الاضرحة والأماكن المقدسة ، واتصلوا بأصحاب المقامات من رجال التصوف لتقبل كراماتهم : الرحلة الأولى هي رحلة عبد الله المراكشي العياشي (١٦٢٦ — ١٦٧٩ م) الذي سافر إلى مكة وألّف كتابه « ماء الموائــد » المعروف باسم الرحلة . وفيه لم يعد ذكر المدن والقرن إلاّ أمراً ثانوياً

بالنسبة لموضوع العلماء ورجال التصوف [1] ، والثانية هي رحلة عبد الغني النابلسي (١٦٤١ – ١٧٣١) الرحالة المتصوّف الذي سافر إلى مصر والقدس وبغداد وزار لبنان من أجل الاتصال بالمتصوفين وتقبل كراماتهم [2] والثالثة هي رحلة علي الجبيلي (١٠٤١ هـ) الشيخ اللبناني الذي ساح في الأرض ، على حد قول صاحب السلافة ، وطوى منها الطول والعرض ، فدخل اليمن والحجاز والهند وإيران والعراق ونظم في ذلك رحلة أودعها من بديع نظمه ما رق وراق ، وهذه الرحلة تختلف عن رحلتي الشيخين الأولين بأنها مكتوبة شعراً لا نثراً ، وبأن صاحبها يزودنا ببعض المعارف عن البلدان التي زارها ، إلا أن الذي يؤسف له أن الرحلة قد فقدت حتى عثر عليها بعد حوالى ثلاثمئة سنة من نظمها تقريباً ، ولكن لم يعثر عليها كلها بل عثر على ما لا يتجاوز ألفاً وخمسمئة بيت (من أصل الفين وخمسمئة) . يقول السيد حسن الأمين : « إنها ليست كلها في وصف الرحلة بل تضمنت مواعظ وحكماً وآداباً ثم وصف الرحلة » وقد تخيّر منها هذا الباحث في مقاله المنشور في مجلة « الدراسات الأدبية [3] » الصادرة عن قسم اللغة الفارسية وآدابها في الجامعة اللبنانية أبياتاً نورد بعضها هنا على سبيل المثال . قال الجبيلي يصف رحيله عن « ظفار وتوجهه إلى الهند :

١–راجع دائرة المعارف الاسلامية ١ – ٢٢٣ .

٢–المصدر نفسه ١ – ٣٨ .

٣–السنة الثانية ، العدد الأول ١٩٦٠ .

ثم ركبنا قاصدين السفرا   لما قضينا من ظفار الوطرا
من بعد شهر ونصف شهر   جزنا إلى ذابول وقت العصر
ثم مضيت مسرعاً للجامع   لأدرك الوقت بمن جاء معي
حتى دخلت مسجداً معظما   في صحن تجاهه بركة ما
والناس للوضوء جالسونا   وهم عن اليدين حاسرونا
البعض منهم يغسل الرجلين   وبعضهم يمسح باليدين
ما بينهم من منكر على أحد   وكلهم يفعل ما قد اعتمد [١]
ثم دخلنا لصلاة المغرب   فزاد من فعلهم تعجبي
إذ ذاك في صلاته يؤمّن   وذاك بالقنوت فيها يعلن
فقلت في نفسي هذا أعجب   من كل ما شاهدته وأغرب !

وفي ما عدا هذه الرحلات الثلاث لم يصل إلى علمنا خبر أية رحلة حتى النهضة الحديثة حيث أخذ هذا الفن يرجع من جديد إلى سابق عهده .

١ – إشارة إلى انعدام التعصب المذهبي بين المسلمين هناك .

الرحلات في عصر النهضة الحديثة

ظل أدب الرحلة على هذا النحو الذي أسلفنا ، حتى نهض العرب من جديد نهضتهم الحديثة ، فأنشأوا يرحلون إلى أوروبة ينهلون العلم من ينابيعها ، ويحضرون المؤتمرات فيها ويسافرون للتنزه في ربوعها ، فبدأ بذلك أدب الرحلة يأخذ طريقه إلى التفتح والنمو ، وكان لنا منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم فيض من الادب الرحلي أساطينه في القرن التاسع عشر رفاعه الطهطاوي ، وشهاب الدين الألوسي ، ومحمد بيرم التونسي ، وابراهيم النجار ، ومحمد السنوسي ، وأحمد فارس الشدياق ، وعبد الله فكري ، ومحمد عمر التونسي ، وسليمان البستاني . وفي القرن العشرين محمد

ابن خوجه ، ومحمد الخضر حسين ، وعلي الورداني ، ومحمد مقداد الورتتاني ، والبتانوني ، وأحمد حسنين ، ومحمد حسين هيكل ، وأمين الريحاني ، وعبد الوهاب عزام ، وطه حسين ، ومراد كامل ، ومحمود تيمور ، وعبد السلام العجيلي ، وأمينة السعيد ، وحسين فوزي ، ومحمد ثابت ، ومحسن الأمين وسواهم وسواهم من الكتّاب الذين ألّفوا في الرحلة تصانيف يستحق كل منها أن يوقف عنده وينوّه بخصائصه لولا حجم هذه السلسلة الذي قضى علينا أن نقصر هذا البحث على ثلاثة من أفذاذهم هم : الريحاني والشدياق ومحمد عمر التونسي

رحلة أحمد فارس الشدياق

هي رحلة اتجه فيها الأديب اللبناني إلى مصر ومالطة وتونس ، وطاف أوروبة . وكان من ثمارها كتابان : الأول منهما «كشف المخبا عن فنون اوروبا » وصف فيه رحلته إلى أوروبة ، وتكلم عن عوائد أهلها وعن متاحف لندرة وباريس وآثارهما ، والثاني كتاب «الواسطة في معرفة أحوال مالطة» وصف فيه أحمد فارس جزيرة مالطة من الناحية التاريخية والجغرافية والمدنية ، وتكلم عن عادات أهلها وأخلاقهم ولغاتهم .

وإن الذي تتميز به رحلة أحمد فارس عن سواها من الرحلات التي ألفت يومذاك هو أنها مشبعة بروح صاحبها العابثة ومجونه ودقة ملاحظته ونقده وأوصافه الشيقة ودرسه لأخلاق الناس درساً يتصف بالعمق والنفاذ . وها نحن هنا نتخير منها بعض المشاهد

والأوصاف التي كتبها هذا السائح اللبناني عن أهالي مالطة وبلاد الانكليز ومجتمع فرنسة .

زينة أهل مالطة وملابسهم

أما أهل القرى فان الرجال منهم يثقبون آذانهم ويتقرّطون بأقراط من الذهب ويُرخون سوالف مجعّدة من افوادهم إلى طُلاهم ، وهاتان صفتان من صفات الاناث ، ويلبسون طرابيش مختلفة الالوان مسدلة على أكتافهم وهي شبيهة بالاجربة ، ويمشون حفاة ويتحزمون بأحزمة . ومنهم من يتختّم بعدة خواتم من ذهب ويجعل ازرار صدريته منه أو من الفضة ويحمل سترته على كتفه ويمشي حافياً مشية المفراح البطِر ، وان الجرّار منهم أو الخمّار ليخرج في الاعياد وفي أصابعه عشرة خواتم من الذهب ومثلها في سلسلة ساعته ، وفي صدريته ازرار كثيرة من الذهب أو الفضة .

أما النساء فان من كان لها حذاء لا تلبسه إلا إذا جاءت المدينة ، وهي معجبة به ، حتى إذا خرجت منها تأبّطته .

وجميع الأعيان في مالطة يخرجون في الصيف من دون اردية تستر أدبارهم خلافاً لعادة الافرنج في أوروبا ، والمتكيّس الغيّساني منهم هو الذي يزنّق سراويله على فخذيه وإليتيه حتى لا يعود يمكنه التقاط شيء من الارض ، فإذا صعد في درج ونحوه استعمل الحيلة حتى لا تنقدّ من دُبُر ، وأكثرهم يفخّم فخذيه ومؤخّره بحشوٍ من السراويل ويستر كل عظم ناتئ في بدنه ويبدي ما ينبغي ان يستر ، فاذا مشى أحدهم على هذه

الصفة نظر إلى عِطفيه كالزونّك [1] وإلى سراويله وحذائه معجباً بما لديه .

وللنساء زهو وعُجب إذا مشين أكثر من زهو الرجال ، فترى المرأة تخطو كالعروس المزفوفة إلى بعلها وهي ممسكة بطرف الوشاح باليد اليسرى وبطرف غطاء رأسها باليمنى . فمتى أوَين إلى بيوتهن لبسن أخلق ما عندهن من الثياب . وسواء في ذلك الفقراء والاغنياء والرجال والنساء . وهذا هو أحد الاسباب التي حببت إلى المالطيين تجنب المعاشرة والمخالطة ، وربما عُدت المرأة التي تبقى في منزلها بلباس حسن من المتبرجات . وإذا زرت أحدهم فلا يستحي أن يقول : مهلاً فإن زوجتي تبدل ثيابها لتحضر بين يديك . ومنهن من تبقى في بيتها بغير حذاء ، ثم إذا خرجت في يوم الاحد لبست جوارب من حرير وكفوفاً منه وتبهرجت غاية ما يمكن ، فان المالطيين يتفخّلون في الاعياد كل التفخل [2] بخلاف الانكليز هنا فإنهم يبقون على حالة واحدة . وفي الجملة فان همّ هؤلاء الناس كله مصروف في التفاخر بالرياش وهو شأن حديث النعمة .

البرد في انكلترة

.. وفي الحقيقة فانه عند شدة البرد هنا لا يفكر الانسان إلا في الاصطلاء ، ولا تزال تسمع من كل من تلقاه لفظة البرد ، وإذا تفوّه بها فرك يديه وتأفف ليدل على صدق ما يقول ولا سيما

١–الزونك : الناظر في عطفيه يرى ان عنده خيراً وليس كذلك .
٢–التفخل : لبس أحسن الثياب .

النساء ، حتى انهم ربما قالوا ذلك في يوم لا برد فيه ، فكأن ألسنتهم مرنت على ذلك ، وكثيراً ما ترى أيضاً وصف البرد والنار في كتبهم ، ويسمون المرأة رفيقة الموقد . وقد جرت العادة عندهم بأنه لا يحرك النار إلاّ من كان من أهل البيت أو من طالت ألفته بهم .

وفي الجملة فان النار أليفهم مدة ثمانية أشهر في السنة ، وبهذا تعلم أنهم لا يرون في وصف الجنة نعيماً ، لأن الانسان إذا كان مقروراً لا يشتهي أن يسمع بذكر المياه والظلال والأشجار ، بل كانوا يقولون تلك الجنة نيرانها مضطرمة ، ومواقدها محتدمة ، وخصبها معتد ، وحطبها منضّد ، وفحمها مؤبد ، ومسعرها مخلّد ، فهنيئاً للمصطلين وطوبى للمستدفئين ، أليس ان عبادة النيران في بلاد الفرس نشأت عن البرد ؟!

نساء الافرنج

.. ومما يكره في نساء الافرنج تربية أظفارهن حتى تأخذ حدّها في الطول ، وترك شعورهن في القفا منفشة مشعثة ، فمتى نزعت إحداهن غطاء رأسها رأيت شعرها كشعر المقشعر . وإن إحداهن لتلعب بجرو كلب بحضرة الناس ، وربما نزا عليها ولحس ترائبها ووجهها ، ونساء الأكابر يستصحبن كلابهن في العواجل ، وعندهن صنف من الكلاب يقعدنه في أحضانهن ويسمى كلب الحضن . وإني أحمد من نساء الافرنج عموماً ومن نساءالانكليز خصوصاً أنهن لا يستعملن الصبغ ولا التزجيج ، فكما خلقهن الله

يبدون ، ولا يتباهين بكثرة الحلي والجواهر ، فغاية تصنّعهن إنما هو في تصفيف شعورهن وتغيير ملابسهن بحسب الزي المستعمل ، فأما نساء الفرنسيين فانهن أكثر زهواً وعجباً من جميع نساء الافرنج ..

طبائع الانكليز وعاداتهم

ومن طبعهم انهم لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض ، وكيف يسهرون وهم إنما يرقدون في الساعة التاسعة ويقومون صباحاً في الساعة الرابعة ، كل ذلك حتى يأكلوا الفَقْع أعني البطاطس ويشربوا الفُقّاع [1] ، وربما بقي الرجل سنين ولا يعرف جاره وكذا أهل المدن . وغاية محاورتهم إذا تلاقوا في الطريق ان يقول أحدهم : طيّب بطرس فيقول الآخر : طيب يوحنا . وكنت إذا مررت بأحدهم يقول لي صباح حسن ، فأقول له كالصدى صباح حسن ، وكنت أحسب ذلك تحية لأن تحية الصباح عندهم صباح طيب ، فظننت انهم يتيمون لفظة مقام لفظة حتى سألت الدكطرلي فقال لي: ليس ذلك من التحية في شيء وإنما هو مجرد أخبار عن حسن الصباح .

وإذا اجتمع المتعارفان منهم وتساءلا فلا بد ان يبتدئ احدهما أولاً بوصف الهواء وصحوه أو برده ، ثم يخبره بما عرض له من وجع في كتفه أو ثالول في رجله أو اختلاج في عينه فيقول السامع

١-الفقاع : شراب من الحبوب والاثمار ونحوها سمي بذلك لما يرتفع في رأسه من الزبد كالفقاقيع .

يحزنني ذلك جداً . ومتى اجتمعوا للمنادمة ، وذلك لا يكون إلا في القرى الجامعة ، ملأوا كوباً كبيراً من الجعة وجعل كل منهم يكرع منه كرعة ويدخن في قصبة من الطين ثم يبصق فيملأون المكان بصاقاً وقذراً ، وفي خلال كل محاورة يجددون وصف الهواء وذكر البرد ، ولا يكاد أحدهم يضحك ضحكاً طبيعياً وإنما هو عبارة عن قهقهة ثم يعقبها الكتم والعبوس ، فما كان الضحك منهم إلا قوة من القوى فيهم يكتمونه ما أمكن مخافة ان تخرج معه تلك القوة .

طعام الانكليز

وعامة الانكليز يطبخون طعامهم بلا ملح وإنما يملحونه عند الأكل ويكثرون من الابازير منتهى الاكثار ولا سيما الفلفل والخردل ، فان أحدهم ليضع في صحفته ملعقة من كل منهما . والفلاحون يأكلون الحلواء قبل الطبيخ ، فهم في هذه كالترك ، ويشربون الحليب بالملح والفلفل ، وبعضهم يخلط الدقيق بقليل من السكر ويأكله ، وقد دعاني بعضهم إلى ان أشرب معه القهوة وكان يأكل معها فجلاً ورشاداً فعرض عليّ فأبيت فتعجب من ذلك .

ومع افتقار هؤلاء الفلاحين وشدة احتياجهم إلى أشياء كثيرة للدفء ، مما نستغني نحن عنه في بلادنا ، كايقاد النار للاصطلاء مدة ثمانية أشهر في السنة وكلبس الجوارب والشعار من الصوف ، فقد ألفوا شرب الشاي ألفة شديدة حتى لم يعد ممكناً لهم ان يستغنوا

عنه فيقال ان مصروفهم منه في العام يبلغ نحو ثلاثين مليون رطل، ومصروف جميع الممالك يبلغ نحو اثنين وعشرين مليوناً ، وقد جلب منه في العام الماضي سبعة وثلاثون مليون رطل .

ولا شيء أقرّ لعين صاحبة العيلة من الانكليز من أن تشرب الشاي مع أولادها بقرب الموقد ولا سيما إذا كانت مغلاة الماء تغلي ويسمع لها نشيش والبخار صاعد من بلبلتها وهذا هو أوفر الهناء الذي يعبرون عنه بلفظة كمفورت .

ومن العجيب أنهم لا يعافون من أكل اللحم المنتن وغيره ، فان الأرنب والغزال لا يأكلونهما إلا بعد خنقهما بنحو ثلاثين يوماً . وقد دعيت غير مرة إلى موائد الموسرين وشممت فيها جخر الأرانب (تغير رائحة لحمه) .

وكذلك الفراخ والطيور لا يطبخونها إلا بعد خنقها بأيام ، ويقولون إنها إذا بقيت أياماً كثيرة بعد خنقها يزيد لحمها مراءة وطيباً ، والدليل على ذلك أن الآكل منها يكفيه قليل بخلاف ما لو أكلت وهي طرية . والحق يقال أن لحم البقر عندهم لا يؤكل إلا بعد ذبحه بيوم أو يومين وذلك لكثرة دمه ، ولا حرج على بيع المنتن من اللحم والسمك ، والفج من الأثمار ، والفاسد من كل شيء . وعندهم صنف من الجبن يستطيبونه على غيره لكونه مدوّداً .

نساء الفرنسيس

ولنساء الفرنسيس نظافة زائدة على الملبوس والمفروش ، فكل

ما كان لونه البياض يبقى كذلك إلى ان يبلى ، ولكن ليس لهن من الطهارة نصيب . ولهن أيضاً عناية بليغة بتنضيد أثاث البيت ، وبهن تليق جميع الاعمال ، وفي الواقع فانهن ازكن والقن من سائر نساء الافرنج وما من امرأة في باريس إلا وتعرف شيئاً من المداواة . ومن طبعهن التبكير في القيام وتنظيف مراقدهن بخلاف نساء لندرة فان الغالب عليهن الكسل والتواني والاضحاء في النوم . ولهن أيضاً حرص على تربية أولادهن وتنظيفهن فلا تكاد ترى في أسواق المدينة أطفالاً يمشون وحدهم أو يطوفون في الليل ويعرضون أنفسهم لخطر العجلات وسائر المراكب كما ترى في لندرة ، وهن اللائي يتولين الدخل والخرج فلا يمكن لاحد ان يشتري شيئاً من المأكول والمشروب ما عدا الخمر إلا من أيديهن وان تكن بعولتهن حاضرة .

الخاتون الفرنسية وزوجها

ويحكى عن احدى الخواتين انها استأجرت مقعداً في بعض الملاهي حيث اريد اجراء التمثيلية المعروفة بالبروفت أي النبي ، وكان الناس يتزاحمون إلى رؤيتها لأنها كانت أول ليلة ، فاتفق ان مرض زوجها بغتة فأقبل اليها بعض أصحابها ليبدوا لها التأسف على حرمانها من الذهاب وهي في خلال ذلك تتأوه وتفرك يديها ثم قالت : ان هذا المخلوق لم يأتِ في عمره كله إلا ما يغيظني ، وسترون الآن انه يموت عمداً ليحرمني من الخروج إلى الملهى .

رحلة محمد عمر التونسي

هي رحلة من الرحلات الطريفة النادرة التي رحل فيها محمد بن عمر بن سليمان (١٧٨٩ – ١٨٥٧ م) من القاهرة إلى دارفور وبلاد السودان حيث عاش نحواً من ثماني سنوات ونصف السنة تمكن في أثنائها من الاتصال بالسكان ودرس حياتهم ولغاتهم ولهجاتهم وعوائدهم ونظام الادارة والقضاء ، ودوّن ذلك في كتاب سمّاه « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » ومن المؤسف أن الرحلة لم يطبع منها بالعربية حتى اليوم سوى المئة النسخة التي طبعت على مطبعة الحجر يومذاك (١٨٤٥) وقد قامت دار المعارف المصرية أخيراً بتقديمها ملخصة في مجموعة « قصص الرحالة والمكتشفين » التي ننقل هنا عنها بعض ما اخترناه ، وفيها تظهر لك صورة عن حياة السودانيين وعاداتهم وفولكلورهم الشعبي . قال محمد عمر التونسي يصف دارفور وزيارته لجبل مرة وعادات الفور عند الزواج ورقصة الدلوكة :

وصف دارفور

إن القادم من جهة البحر ، من الشرق ، والمتوجه إلى الغرب في بلاد السودان يمر بمملكة سنار ، ثم كردفان ، ثم دارفور .

وحد دارفور من جهة الشرق كردفان ، ومن الغرب مملكة وادي وسكانها مسلمون يتكلمون العربية المشوبة بالعجمة . وسكانها يسمون أولاد صليح . ومن الجنوب خلاء كبير ينتهي بأرض كلها طين لين مغطى بماء يبلغ إلى منتصف الرجل . ومن لين طينه تسوخ

فيه قوائم الدواب والرجال ، ومغطى بشجر كثير شائك . وهـذا الموضع لا ينقطع عنه المطر إلا شهرين في السنة في فصل الشتاء من ديسمبر إلى مارس .أما من الشمال فيحد أراضي دارفور عن أراضي مصر بئر تسمى المزروب . وهي أول بئر تصل اليها القوافل القادمة من مصر .

وسلطان دارفور هو السيد الأعلى على البلاد ، والسلطنة وراثية يتولاها بعد وفاة السلطان أحد إخوته أو بناته أو أبنائه تبعاً لوصية السلطان . وسلطنة دارفور مقسمة إلى ولايات صغيرة أو ممالكات كل ولاية لها رئيس يسمى الملك – أي الملك – أو السلطان. وهذا الرئيس بالنسبة لسلطان الفور أشبه بقائد من قواده . وفي دارفور من الشمال مملكة الزغاوة . وهي مملكة واسعة بها خلق كثير ، ومملكة الميدوب ، وأهلها بدو يعيشون على الإبل : لبنها ، ولحمها ، وسمنها ، ووبرها ، وجلودها . وفي وسط دارفور مملكة البرقـد والتنجور ، وفي الشرق مملكة البرقووالميمة ، وفي الجنوب الداجو والبيقو . وملوك هذه الجهات – أو سلاطينها – يعينهم سلطـان دارفور .

وينتشر في بلاد دارفور قبائل كالحمر والرزيقات والفلان . وهم أهل بادية ، متاعهم الإبل والبقر والخيل ، يتبعون الكلأ أينما كان ، ولا يألفون المدن أو القرى . وعلى كل من السلاطين الصغار وزعماء القبائل ، ضريبة يأخذها سلطان دارفور من أموالهم في كل سنة ، وهي ضريبة تتفاوت بحسب ثروة كل قبيلة .

وطول دارفور من الشمال إلى الجنوب نحو خمسين يوماً يسير

الإبل . وعرضها ما بين كردفان ودار صليح ثمانية عشر يوماً بسير الإبل . وفي وسطها جبل مرة يشقها من الجنوب إلى الشمال . وفي شرقي هذا الجبل أرض سهل رملي . وعرض هذا الجبل — بغض النظر عن ارتفاعه — مسيرة يومين بسير الإبل . أما من جهة الغرب فسهل رملي أيضاً ، ولكن فيه بعض الواحات التي تنبت فيها أشجار النخل ، والليمون . وأكثر جهات دارفور سكاناً الزغاوة والبرقد في الشمال . وأهل البرقد أرق قلوباً ، وأحسن وجوهاً ، وأجمل نساء . أما أهل الزغاوة فعلى العكس . والداجو والبيقو قبيلتان متجاورتان ولكن بنات البيقو أجمل من بنات الداجو . وأما البرقد والتنجور فيوجد في كل منهما المليح والقبيح ، لكن البرقد خائنون سراق ليلا ونهاراً ، لا يخافون الله ولا الرسول . والتنجور فيهم بعض دين ، وبعض عقل يمنعهم . وأما المساليط فنساؤهم يسبين العقل ويذهبن باللب !

زيارة لجبل مرة

توجهت في صحبة حارسين وعبد لي ورجل من أهل البلدة التي كنت فيها . فسافرنا يومين ، وفي اليوم الثالث أتينا طرف الجبل . فنزلنا في بلدة يقال لها « نملية » . ولها رئيس اسمه الفقيه نمر ، له ولد يسمى الفقيه محمد وآخر اسمه سليمان . وكان نزولنا في بيت هذا الرئيس ، فاستقبلنا هو وأولاده بصدر رحب . فلما أخبرناهم بمقصدنا وأظهرنا لهم أمر السلطان المكتوب اهتموا بشأني ، وأعظموا ضيافتي . فبتنا ليلتنا تلك ، ومن الغد توجهوا بي إلى سوق نملية . وهي سوق يعمر كل يوم اثنين ، يحضره معظم سكان البلاد

المجاورة في الجبل ، رجالاً ونساء ليقضوا مصالحهم . وحين رأوني اجتمعوا حولي متعجبين من احمرار لوني.وأتوا إليّ أفواجاً أفواجاً؟ لأنهم لم يروا من قبل أي عربي . وأرادوا قتلي . وكنت إذ ذاك لا أعرف من لغة الفور شيئاً . فما راعني إلا أني رأيت من معي من الأصحاب قد اختطفوا سلاحهم وحرابهم وجردوها في وجوه من حولي من المتفرجين ، وحالوا بينهم وبيني . فسألت عن السبب ، فقالوا لي : إنهم يريدون الفتك بك.فقلت : لماذا ؟ فقالوا : إنهم يقولون إن هذا الرجل لم ينضج في بطن أمه . وبعضهم يقول : لو نزلت عليه ذبابة رمح لساح دمه ! فقال أحدهم : اصبروا وأنا أطعنه بحربة لتنظروا مقدار ما ينزل منه من الدم . فحين سمعنا منهم ذلك خفنا عليك وأحطنا بك . ثم أخرجني الجماعة من السوق ، فتبعني خلق كثير ، فطردوهم بعيداً عني بكل جهد . وبعد ذلك ذهبوا بي إلى وادٍ هناك فرأيت فيه نخيلاً وأشجار موز ، وبعض أشجار من الليمون . ورأيت أنه قد زرع في ذلك الوادي شيء كثير من البصل والثوم والفلفل الأحمر الذي له قرون صغيرة رفيعة أكبر من حب الشعير ، والكمون ، والكسبرة وغيرها من الخضر ، والبطيخ والقرع . وكان ذلك في أيام الخريف وقد احمر البلح ، فقطعوا لي عرجونين من البلح الأحمر والأصفر . وأهدوا لي قدرة من عسل النحل ، لم أذق مثله من قبل طعماً ونكهة ولذة . وبتنا في أكرم ضيافة .

عادات الفور عند الزواج

من عاداتهم في سن ما قبل الزواج أن الشبان ـ ذكوراً وإناثاً ـ

ينشأون جميعاً ، ويسود بينهم الاختلاط . ففي صغرهم يرعون الأغنام ولا حجاب بينهم أبداً . وربما اصطحب الشاب والصبية من عهد الرعي ، وعقدت بينهما المودة التي لا تبلى على مر السنين ، فمتى أحبها وأحبته ركن اليها ، وصار يغار عليها ، ولا يرضاها تحادث غيره .وحينئذ يرسل أباه وأمه وأحد أقاربه فيخطبها. فإذا تم الاتفاق بين آل الخطيب والخطيبة جُمع الناس لكتابة العقد ، وحضر الشهود . فيطلب أهل الخطيبة أموالاً كثيرة ، وهذه يأخذها الأب والأم ،ولكنهم لا يذكرون في عقد الزواج إلا شيئاً قليلاً منه فإذا تم العقد يترك الأمر نسياً منسياً لمدة طويلة .

ثم يجتمعون بعد ذلك — أهل الزوج والزوجة — ويتشاورون ، فيحددون وقتاً يزفون فيه العروسين .فإن كانوا من ذوي الثراء ابتدأ أهلهما في تهيئة الذبائح والشراب قبل العرس بأيام كثيرة . ثم يرسلون الرسل إلى أصدقائهم وأحبابهم في البلاد يخبرونهم بيوم العرس . ويكونون قد أحضروا أثناء ذلك ما فيه الكفاية من النبيذ الأحمر المسمى عندهم « أم بلبل » والبقر والغنم مما سيذبح . فيأتي الناس في اليوم الموعود أفواجاً أفواجاً .

وفي يوم الزواج يأتي نساء معهن طبول صغار وكبار ، مع كل امرأة ثلاثة طبول : اثنان صغيران والثالث كبير يسمى الدربكة . فتضع كل امرأة الطبل الكبير تحت إبطها اليسرى ، وتضع الصغيرين تحته في وضع محاذ له. وتضرب بيدها على الثلاثة . ومجموعة هذه الطبول تسمى « الدلوكة » .

وكلما جاءت طائفة من الزائرين خرج النساء بالطبول يضربنها

ويغنين كلاماً فيه مدح للفتاة . ويستقبل أهل العرس كل طائفة من الزائرين — رجالاً ونساءً — ثم يضعونهم في مكان خاص ، ويأتون لهم بالأطعمة والأشربة على حسب مقامهم . فمنهم من يقدمون لهم العصيدة واللحم المسلوق والمزر — المسمى في مصر بالبوظة — ومنهم من يأتون لهم بالفطير والنبيذ الأحمر المسمى « أم بلبل » . أما إذا حضر جماعة من العلماء أو الفقهاء فإنهم يقدمون لهم العصيدة واللحم المشوي والسوبيا لأنها لا تسكر .

رقصة الدلوكة

فاذا جاء المساء خرج الشابات من النساء متزينات وخرج الشبان من الرجال في أكمل زينة . ويصطف النساء صفوفاً صفوفاً . وكل صف من الفتيات يقابله صف من الشبان وبينهما مسافة . عند ذلك يتقدم النساء واللاتي معهن الطبول فيضربن عليها بإيقاع منظم ، ويغنين بكلام غرامي جميل . فيمشي الهوينى صف من صفوف النساء ، ويرقصن بأكتافهن ، ويتقاصرن إلى الأرض ، ويتقدمن حتى يصلن إلى صف الرجال . عند ذلك تعمد كل شابة إلى شاب ، حتى تضع وجهها في وجهه ، وتهز رأسها نحوه حتى تضرب بضفائرها في وجهه ، وضفائرها إذ ذاك مدهونة بالطيب ، وأنواع العطر . فيهيج الشاب ويهز حربته على رأسها . ثم تلتفت وترجع بعيدة عنه ، فيتبعها حتى يصل إلى مكانها فيقف فيه ، فتلتفت هي مرة ثانية وتتقدم إلى مكانه فتقف فيه . عند ذلك يحل صف الرجال محل صف النساء والعكس . فإذا كان هناك بعض الشبان الذين لم يجدوا أمامهم الفتيات اللواتي يرغبونهن ، خرجوا من

الصف ، ونظروا حولهم . عندئذ تذهب اليهم فتيات ممن يملن الى هؤلاء الشبان، وتميل كل فتاة بضفائرها على أنف فتى تميل اليه ، فيهيج ويصيح ، ويهز حربته ، ويخرج وراءها. وإن لم يخرج كان ملوماً ، وعليه وليمة لمن خرجت له .

وبعد أن يثبت كل صف في مكان الآخر تتقدم النساء راقصات ، والرجال راقصين .وكل منهم منهم يقابل الآخر حتى يتلاقى الصفان في وسط المسافة . وكل فتاة تكب رأسها في صدر الشاب المقابل لها ووجهه ، والشاب يهز حربته فوق رأسها ، ويصيح صياح الفرح . ويكون كل من الرجال والنساء ثملاً مما شرب.ولا يزالون هكذا حتى يأتي الليل . فترجع كل طائفة إلى مقرها ، فيؤتى لهم بالأطعمة والأشربة. وتسمى هذه الرقصة «بالدلوكة».

هذا ، وبعد أن يأكلوا ويشربوا تزف الفتاة على ضربات الدلوكة ، ويلفون بها حول البلد ، حتى يأتوا بها إلى المحل الذي أعد للدخول بها .

وبعد العشاء يكثر تجمع الشبان ، ويأخذون العريس ، ويزفونه بالغناء والزغردة والصياح ، إلى أن يصلوا إلى محل الدخلة ، فيجلسوا خارجه . وحينئذ يكون جميع الشابات مجتمعات مع العروس ، والشبان مجتمعين مع العريس .

بعد ذلك يختار العريس أعز إخوانه ، ويجعله وزيراً له ، لأنه يعتبر نفسه سلطاناً في تلك الليلة ! أما العروس فتستوزر امرأة يسمونها « ميرم » . فبعد أن يجلس الرجال مع عريسهم يطالبون الميرم . فلا تخرج لهم إلا بعد نحو ساعتين . فمتى خرجت يتقدم

اليها الوزير ، ويسلم عليهـا بلطف ، ويلتمس منها حضور العروس . فتقول لهم : من أنتم ؟ ومن أين جئتم ؟ ومن هي العروس التي تريدون ؟ فيقول الوزير : أما نحن فضيوف ، وقد جئنا من بلاد بعيدة ، ونريد الملكة لتؤانس ضيوفها . فتقول لهم : أمـا الملكة فمشغولة بأمر عظيم : وأنا وكيلتها في ضيافتكم ! فمـاذا يلزم لكم ؟ فيقول الوزير : نحن نعلم أن فيك البركة والكفاية ، ولكن لنا مع الملكة كلام لا يصح إفشاؤه لغيرها ! فتقول له : إذا كان كذلك فماذا تقدمون للملكة ، وماذا تقدمون لي ؟ إن عادتنا أن الملكة لا تبرز من حجابها ، ولا تأتي لطلابها إلا بتقديم جُعْلٍ لها . فيقول الوزير : نقدم المال والأرواح وكل ما تطلبه ! فلا يزال الوزير يحاول الميرم ، وهي تحاوله حتى يتراضيا . ويجري هذا كله والعروس قريبة منهم ، وراء ستارة ، ولكنها لا تتكلم بشيء . والعريس أيضاً ساكت لا يشترك في الحوار .

فإذا وقع التراضي رُفعت الستارة ، فتخرج العروس . فيقول الوزير : أما الملكة فللملك . وماذا لنا نحن؟ فتنادي الميرم البنات التي مع العروس ، فيحضرن ، فتقول لهن : أيتها البنات ! أريد منكن في هذه الليلة أن تؤانسن أضياف الملكة . فيقلن لها : حباً وكرامة ! وهي تعلم كل صبية ومحبوبها . فتقول : يا فلانة كوني مع فلان ! وأنت يا فلانة كوني مع فلان ! وهكذا حتى لا يبقى إلا التي لا محبوب لها والذي لا محبوبة له . فيأخذ كل شاب محبوبته ويجلس الجميع صفوفاً صفوفا : العروس وعريسها والميرم والوزير ، وكل زوجين متآلفين معاً . ويبدأ السمر والمؤانسة

حتى الصباح .

رحلات امين الريحاني

هي رحلات في ربوع البلاد العربية ، قام بها أمين الريحاني مدفوعاً اليها أول أمره بمجرد رغبته في السياحة وفي الاطلاع والتفهم ، ثم انقلب إلى داعية يبشر بالأفكار القومية ، ويدعو إلى تحقيق الوحدة العربية . ذلك أن أمين الريحاني نشأ في صباه بلبنان ، وهو لا يعرف عن العرب وأخبارهم « سوى ما كانت تُسمعه الامهات في لبنان صغارهن ، هس ، جا البدوي ! والبدوي والأعرابي واحد ، إذا رامت الأم « بعبعاً » تخوف بها أولادها [1] » . فلما ارتحل عن بلاده ، ذهب إلى اميركة ، وفيها اطلع بعض الاطلاع على تاريخ العرب وحضارتهم ورسالة نبيهم من خلال كتابين ألّفا باللغة الانكليزية لكاتبين أحدهما انكليزي [2] ، والآخر اميركي [3] ، عرّفاه إلى الحقيقة عن تاريخ هذا الشعب الذي امتلأ صدره بالخوف منه في صباه ، وربّي على كرهه فتحول خوفه منه حينئذ إلى انس، وكراهيته إلى محبة ، واعتزم في صميمه أن يعود إلى وطنه ليأخذ بالمفتاح الذي يلج بوساطته إلى مغاليق الدنيا

١- أمين الريحاني مقدمة « ملوك العرب » .

٢- هو أمرسون كارليل صاحب كتاب « الأبطال » الذي عرف أمين الريحاني بالرسول العربي « محمد » وكان له الفضل الأول في عودته من وراء البحر إلى بلاد العرب .

٣- هو واشنطن أرفين الذي قرأ أمين كتابه عن قصر الحمراء في غرناطة فدله هذا على العرب وتاريخهم وجعله يشعر بالفخار لأنه منهم .

العربية التي ازدهرت في التاريخ ازدهاراً جعل منها مركزاً للاشعاع وعنوان التقدم الحضاري ، فوصل إلى « الفريكة » وأكب فيها على اللغة العربية يدرسها ويفك أغلاقها ويكشف عن كنوزها ونفائسها فوصلته هذه بالتراث ، واطلع من خلالها على تاريخ العرب وآدابهم وأخبارهم اطلاعاً واسعاً زاده بهم افتتاناً وإعجاباً ، ونمى حبهم في فؤاده ، حتى لقد أصبح يراوده الحلم على إثرها بالطواف في بلادهم والتعرّف إلى مواطن نشأتهم . ولكن الحرب العالمية سرعان ما استطار شرها واستفحل أمرها استفحالاً حال بينه وبين التعجّل في تحقيق ما حلم به فانتظر حتى انجلت . فلما انجلت الحرب هذه كان الريحاني قد ألم بشؤون القضية العربية يومذاك إلماماً واسعاً معمقاً ، وكانت هذه القضية قد أخذت تنكشف بعد الحرب عن قضية عربية جديدة ذات حدود ومعالم سياسية وذات أهداف استقلالية تحررية انصرف أمين بتأثيرها إلى التفكير بالسفر من جديد إلى البلاد العربية تفكيراً نقل معنى السفر في نفسه وذهنه من مجرد رغبة في السياحة وفي الاطلاع والتفهم إلى رغبة في العمل لجمع كلمة العرب وتصفية قلوب الملوك والأمراء بعضهم على بعض تمهيداً للطريق الكبير الموصل إلى الهدف الكبير ، إلى الوحدة العربية . وبذلك يقول أمين نفسه في مقدمة كتابه ملوك العرب ص ١٥ : « رافقت العرب في خروجهم على الترك أثناء الحرب ، رافقتهم في المجلات الانكليزية والجرائد العربية ، فكنت أقوم في ما أكتب ببعض الواجب الذي يفرضه الحب والإعجاب ، وتوفقت في تلك الأيام إلى زيارة الأندلس ،

فوقفت في الحمراء في الغرفة التي كتب فيها واشنطن ارفين كتـابه النفيس فسمعت أصواتاً تناديني باسم القومية ومن أجل الوطن ، وتدعوني إلى مهبط الوحي والنبوة » . وهكذا وما إن استهل العـام ۱۹۲۲ م حتى رأينا الريحاني يودّع زوجته ويمضي من نيويورك إلى البلاد العربية واضعاً روحه وحياته في كف القدر ومبتدئاً رحلته الأولى من أميركة إلى شبه الجزيرة العربية .

رحلته الاولى

بدأ أمين أولى رحلاته من أميركة إلى شبه الجزيرة العربيـة ، فوصل اليه عن طريق مصر ،وطوّف في أرجائه مدة عام وشهرين زار في أثنائها كلاً من الحجاز ، واليمن ، وعسير ، ولحج ، والنواحي التسع المحمية ، ونجد ، والكويت ،والبحرين ، والعراق ، وكان يصحبه فيها صديقه السيد قسطنطين يني . وقد أثمرت رحلته هذه كتابه « ملوك العرب » الذي فرغ من تأليفه يوم الرابع عشر من ايلول عام ١٩٢٤ . وهو كتاب يقع في جزئين ، يتحدث أمين الريحاني في الجزء الأول منه عن الملوك والحكام الذين اتصل بهم ، والغاية التي سعى من أجلهافي البلاد العربية ،فيذكر دور الانكليز في التفرقة بين الحاكمين العرب وتحريض بعضهم على بعضهم الآخر ، ويبين كذلك الصعوبات والمشقات التي عاناها في سبيل الوصول إلى هذه البلاد والاتصال بشخصياتها ، كما يتحدث عن سكانها حياتهم وعاداتهم وأحوالهم المختلفة وتاريخهم القديم والحديث وفي ختام الجزء الثاني يتناول الوضع السياسي في العراق والثورة

والمعاهدة وبعض النواحي الأدبية ، ويختم حديثه بالكلام عن الوحدة العربية وإمكانية تحقيقها ، مقدماً لكل فصل من فصوله ، بلمحة جغرافية عن البلد الذي يتحدث عنه ، ذاكراً حدوده ، وعدد سكانه ، ومساحته وأهم القبائل والبلدان فيه والمذهب المتبع .

رحلاته الباقية

رحل أمين الريحاني غير هذه الرحلة عدة رحلات زار في خلالها العراق أكثر من مرة ، وطوّف في لبنان ، ورحل إلى المغرب الأقصى وكان من ثمارها عدة كتب أشهرها : قلب العراق ، وقلب لبنان ، والمغرب الأقصى .

في كتابه « قلب العراق » يتحدث أمين الريحاني عما شاهده في زيارتين إلى هذا القطر حديثاً يختلف في الزيارة الأولى عنه في الزيارة الثانية . ففي الزيارة الأولى يتحدث عن شوارع بغداد وقذارتها وجوها القديم وعدم إعجابه الكلي بها ، إذ انها لا تزال كما وصفها ابن جبير في رحلته في القرون الوسطى من حيث الصناعة والبناء وعدد السكان . وأما في الزيارة الثانية (بعد عشر سنوات) فيتحدث أمين عن الأمور المستحدثة في العراق ، وعن التطور الذي حصل فيها بين هاتين الزيارتين من حيث التقدم العمراني ، كما يبحث عن المزارات وعادات السكان في الزيارة والازياء ، ويتبع ذلك بفصول مستقلة يتناول فيها موقف المعارضة والسياسة الداخلية ويتكلم عن الحركة الشعرية ، ويخص بالذكر أربعة من أعلامها هم الزهاوي والرصافي والشبيبي والنجفي ، ويعرض لميزة

كل منهم وشاعريته. ويعقد أخيراً فصلاً خاصاً بالألعاب الرياضية الدارجة في العراق كلعبة الصوبجان والرمح والعصا .

وفي كتابه عن « المغرب الأقصى » يتحدث أمين الريحاني في الفصل الأول منه عن تطاحن الدول في المغرب الأقصى ، ويتعرض لسياسة القروض ، ويعبر عن الاستغلال والانتهازية وسائر ضروب الاستعباد التي سلكها هناك الاستعمار الأجنبي . ثم ينتقل إلى وصف بلاد المغرب الأقصى وبلاد الأندلس (اسبانية) من جميع النواحي الجغرافية والسياسية والتاريخية والاجتماعية وصفاً يقرّبك من هذه الأقطار ويقف بك على أهم المظاهر في حياة أهلها ومعيشتهم وعاداتهم .

أما في كتابه « قلب لبنان » فالريحاني يصف لك مناطق تسعاً من لبنان زارها بنفسه وكتب عنها عارضاً منها أهم المشاهد والمناظر التي تقع عليها عين المسافر أو الرحالة ، مستطرداً فيها إلى ذكر عادات وتقاليد أهل الجبل اللبناني ، ومتحدثاً عن بساطة عيشهم وضيافتهم ورقصهم وأزيائهم وغيرها من الأمور التي لمسها وعاشها الرحالة عن كثب مع الفلاحين الفقراء في حياتهم، الطيبين في نفوسهم .

هذه هي الرحلات الثلاث الباقية التي رحل فيها أمين الريحاني إلى مناطق أخرى من البلاد العربية غير الجزيرة لخصناها لك ونحن شاعرون بأن كل رحلة من رحلاته جديرة بأن يفرد لها بحث خاص يحللها ويدرس خصائصها .. غير أن ضرورة الاختصار التي يفرضها علينا حجم هذه السلسلة اقتضتنا أن نقف عند هذا

الحد ونتجاوزها إلى خصائص أدب الرحلة عامة عند أمين الريحاني مختتمين بهـا كتابنا عـن الرحلات وتطورهـا في الأدب العربي .

خصائص أدب الرحلة عند أمين الريحاني

لأدب الرحلة في كتب أمين الريحاني خصائص ومميزات ، نوجزها لك في النقاط التالية :

أولاً : صفة التنوع والشمول .

ثانياً : الوصف الدقيق المستند إلى الاختبار الشخصي ، والمشاهد الواقعية والرأي الممحص الناقد .

ثالثاً : الاتجاه نحو تحري الحقيقة مجردة عن الميل والغرض .

رابعاً : الالتزام بتجلية فكرة واحدة رافقت الكاتب في جميع رحلاته وهي فكرة النهوض بالشعب العربي وتوحيـده ونفض غبار الكسل والقناعة عنه ، والسعي لتحقيق ذاته كشعب له حق الوجود والحياة الحرة الكريمة .

خامساً : الاسلوب الحي المتحرك الذي قوامه جمال السرد وحبكة القصص وطرافة الحديث ولذعة السخر وعمق التهكم .

وهذه الخصائص بمجموعها هي لعمري خصائص وميزات قـد اغتنى بها أمين الريحاني ليس بسبب من موهبته الشخصية فقط ولكن بتأثير ثقافته العريضة كذلك واطلاعه على مشاكل عصره اطلاعاً واسعاً جعل ابحـاثه أعمق وأدق من أبحاث أي رحّـالة

عربي . وها اننا هنا نضع هذه النقاط على حروفهافنفصل الذي أوجزنا :

أما التنوع والشمول فهما الصفتان اللتان قد تميز بهما بعض ما كتبه الرحالون العرب قديماً ، إلا أنهما لم يأتيا على نطاق واسع كما هو شأنهما عند أمين الريحاني . فالريحاني اتسعت موضوعاته ، فشملت التاريخ القديم والحديث والجغرافية بنواحيها المختلفة ، والدين والاجتماع والسياسة وعلم الآثار حتى الأبحاث العلمية . أما الأقدمون فقد كادت موضوعاتهم تقتصر على التاريخ والجغرافية والدين وأحياناً الاجتماع الأمر الذي جعل لأمين الريحاني هذا الفضل عليهم جميعاً .

وأما دقته بالتصوير وأمانته في النقل فهما أمانة ودقة استطاع الريحاني أن ينفذ بهما إلى جوهر القضايا التي تناولها نفاذاً مكّنه من إلقاء الضوء على كثير من المظاهر الاجتماعية في البلاد العربية وتفسيرها التفسير الذي ليس يكتفي بالنظر اليهامن الخارج نظرة السائح المتفرج كما كان يفعل الرحالة الأقدمون بل التفسير الذي يراقبها ويحللها ويتغلغل في صميمها رابطاً الأسباب بالمسببات ومستقرئاً الحوادث (تصويره مثلاً الوضع المتأخر في البلاد العربية وردّه ذلك إلى الجهل والكسل والجمود وداء التعصب وروح الاستسلام والتخاذل وفقدان الجرأة على الثورة على النفس أو على الحاكم أو على المستعبد) .

وأما اتجاهه إلى تحرّي الحقيقة والواقع تحرياً علمياً مجرداً عن الميل والغرض فهو الاتجاه الذي قد أملته عليه نزعة علمية تمرس بها

أمين الريحاني في كل ما كتب، فقادته إلى عدم تقبل الأخبار من غير غربلة حوادثها أو التأكد من صحتها ، وانتهت به إلى نوع من الموضوعية لاحظناه حتى في حديثه عن العرب فهو على الرغم من حبه لهم لا يحجم عن أن يذكر مساوئهم في الأندلس مثلا كواقع أدى إلى ضعفهم وخسرانهم .

وأما التزامه بتوضيح الفكرة العربية التي ما فتئ الريحاني يجهر بها في كل مناسبة وموقف ، والتي كانت وراء كل كلمة قالها أو صورة لونها فهو التزام قد أملاه عليه شعوره بأن العرب أمة ذات حضارة إنسانية عالمية ينبغي لها أن تعود اليها مكانتها، وأن هذه المكانة لن تعود إلا بتوحيد العرب وخروج الأجانب والمستعمرين من بلادهم . من هنا كانت نقطة انطلاق الريحاني وحولها قد دار معظم أحاديثه ، فكانت له بمثابة الهدف الذي يصنع كاتب القصة قصته من أجله فيرتب على أساسه الحوادث ويحرك الشخصيات .

بقي الاسلوب الذي كتب به أمين الريحاني رحلاته فانه ، وايم الله ، لأسلوب تطالعك من خلاله شخصية أميننا بمختلف جوانبها المتمثلة بدماثة هذا الكاتب وخفة روحه ، وحرارة طبعه ، وسخريته واندفاعه وسعة عقله وغنى ثقافته وحلاوة قصه وغير ذلك مما تنطبع به نفسه وتزدحم معانيه .

وإننا هنا في ما اخترنا لك من كتب أمين الريحاني لمجتهدون أن نمثل بها سائر خصائص أدب هذا الكاتب الرحالة وأهم مميزاته .

١ ـ الريحاني في نجد

في حضرة السلطان عبد العزيز

... ولكن التعب والألم لا يدومان طويلاً في فُسَح الرمال وسكينة النفود . فبعد ان نصبنا الخيمة وشببنا النار وتقهونا ، تهافتت حسنات المكان علي . فملكني من السرور ما كان قد هجرني راكباً ، ورحت أتغنى بمدح ارضٍ يحلو هواؤها ، يحلو شكلها وفسحاتها ، يحلو لونها وسكونها ، يحلو وطؤها ، تحلو مجسّتها . وبعد العشاء تبارينا برمي الجريد ، وتسابقنا حفاةً في العدو ، ووقف ماجد على يديه ليبرهن لرجحان [1] ان رجليه ارفع من رأسه (أي رأس رجحان) وانه مستقيم وان كان « ابدُوي » ـ بدوياً ـ كيفما وقف أو مشى ، وانه قوي يغلبه بكل شيء : بالصراع ، بالعدو ، بالقنص ، بالركوب ... اوقفناهما عند هذا الحد في المفاخرة ، فاستعاضوا عنها بالغناء و «اللعب» ، أي الرقص.

دخلتُ الخيمة والخدم لا يزالون في السمر ، فاستلقيت على السرير وأنا في بهجة مَنْ حققت الأيام حلماً من أحلامه . فها هي الصحراء ، وهو ذا الهجين ، وهؤلاء العبيد عبيدي ، وها أنا ذا جارٌ لأمير من امراء العرب ، لسلطان نجد . ما كاد هذا الحلم الذهبي يغمض جفني حتى سمعت صوتاً يسأل : مَنْ الربع ؟ ثم أناخ عند نارنا رجلان عرفهما السيد هاشم [2] . رجلان من رجال

١ ـ ماجد ورجحان : رجلان كانا في القافلة مع الريحاني .
٢ ـ السيد هاشم : رفيق الريحاني في تلك الرحلة إلى نجد .

السلطان ، جاءآ ينبئاننا بأن رسولنا وصل ،وان سموه — نهض السيد هاشم مدهوشاً وبادر إليّ يقول : قم يا أستاذ ، قم حالاً . السلطان قادم الينا .

نهضت مسرعاً فلبست ثيابي . وما أحسن الثياب العربية خصوصاً في مثل هذه الحال . حسبك عباءة تغطي بها قميص النوم ،ثم كوفية وعقال ، ثم — حيّا الله الجاي القادم، مرحباً بالضيف .

راح الربع يجمعون الحطب للنار . وفرشنا أنا والسيد هاشم البيت : مددنا السجادة ، ثم وضعنا الكور في الصدر مسنداً على عادة العرب . وهذا كل ما هنالك ، تأهباً لاستقبال مليك من ملوك العرب .

وكان الليل صافي الجبين ، رقيق الجلباب ، شأنه في البادية تدنو النجوم في سمائه من الأرض بريقاً ، وتُسمع فيه الأصوات . كأنها على طول المسافات ، الابواقُ في الغابات ، لها دوي لطيف يُنْجِد (يرتفع) ويغور ، وصدى يتموج كالنور . وما ارهب ، وما أجمل ، صوتاً سمعناه آنئذ وراء الآكام في مروج الليل ينادي : يا سُعَيّد — يَسْعَايِّد ! مبشراً بقدوم السطان أو بمروره في ذاك المكان . ان المنادي ليتقدم الموكب السلطاني حتى إذا سمعه أحد من البادية أو الحضر يروم من سيد البلاد أمراً ، أو يحمل اليه شكاية ، أو يبغي الركوب في موكبه ، فهو يقصد مسرعاً إلى مكان الصوت فيفوز ببغيته — يا سُعَيّد — يسْعايد !

وبعد هنيهة ضج المكان بموكب السلطان ، فأناخ عندنا ،

على اكمتنا ، حول شراعنا الصغير ، مئتان من الركائب ، وهي تزبد وترغي . إخْ – إخْ – وصوت الخيزران على رقاب (الجمال) كصوت المطر على النخيل . ثم نُصبت الخيام ، وشُبت عشرات من النيران ، وسُمعت على الفور المداقّ في الاجران .

خرجنا نبادر إلى استقبال الزائر الكبير ، فاذا هو قد خفّ الينا ، وفي معيته اثنان فقط من حاشيته . قلت : الزائر ، وهو الذي شاء تلطفاً وتنازلاً ان يعكس الآية . وكانت المشاهدة الأولى على الرمل ، تحت السماء والنجوم ، وفي نور النيران المتقدة حولنا . ألفيته رجلاً لا يمتاز ظاهراً بغير طوله ، وكان يلبس ثوباً أبيض ، وعباءة بنية ، وعقالاً مقصباً فوق كوفية من القطن حمراء .

أين أبّهة الملك وفخفخة السلاطين ؟ إنك لا تجدها في نجد وسلطانها . وان أول ما يملكك منه ابتسامة هي مغناطيس القلوب . لست أدري كيف حييته وانا في دهش وابتهاج من تلك المفاجأة الكبيرة . ولكني أذكر انه حياني ، باسماً ، بالسلام عليكم ، وظل قابضاً على يدي حتى دخلنا الخيمة ، فجلس والكور إلى يمينه يستند اليه ، والنار قبالته تنير وجهه . ثم عرّفني بمن كان في معيته وهما الدكتور عبدالله الموصلي ، وعبد اللطيف باشا المنديل ، فجلسنا كلنا في صف أمامه .

وما اضعنا وقتاً في تبادل المبتذل من السلام والتحية . اعتذرت عن الابطاء في الوصول اليه ، وقلت أنْ ساطلعه على حقيقة الأمر ، فيعلم ان الذنب ليس ذنبي ، فقال : علمنا بذلك واستغربناه ، أما نحن فما ترددنا ولا أبطأنا في الجواب . وكيف نردّ من يبغي

زيارتنا وهو من صميم العرب ؟ قالوا لنا انك اميركي جئت تنشر الدين المسيحي في البلاد العربية . وقالوا انك تمثل بعض الشركات وجئت تبغي الامتيازات . وقالوا انك قادم من الحجاز وانك شريفي تسعى لتحقيق دعوة الشريف . وقالوا غير ذلك . فقلنا إذا كان في الرجل ما يضر ، فنحن نعرف كيف نتقيه . وإذا كان فيه ما ينفع ، فنعرف أيضاً كيف ننتفع . ونحن أعلم يا حضرة الاستاذ بمهمتك ، بارك الله فيك .

فاستأذنته إذ ذاك أن أخبره بالمقاصد الثلاثةفي رحلتي ، فقلت : وقد تم الاول بمشاهدتكم ، وسيتم الثاني بما سأكتب إن شاء الله في ما شاهدت ، أما الثالث فلا يتم إلاّ بمساعدة ابن سعود ، وإني متيقن يا مولاي أن الوحدة العربية لا تتحقق إلا باجتماع أمراء العرب كلهم للتعارف أولاً والتفاهم ، فهم اليوم في معزلٍ بعضهم عن بعض إذا لم نقل في احتراب دائم ، ولا يعرف الواحد منهم الآخر معرفة حقيقية .

فأجابني بكلمة صريحة رددتها بمثلها دون أن أدرك أنها تلمس فيه وتراً حساساً . فقد تكلمت في حضرته عن امراء العرب كما تكلمت في حضرة سواه . ولكنه ، وهو يعرف انه كبيرهم ويظن انهم في غير بلادهم لا يُعتدّ كثيراً بهم ، لم يسكت عما قلت . فما كدت انتهي من كلمتي ان امراء العرب في عزلةٍ بعضهم عن بعض حتى قال : ومن هم العرب ، حِنّا العرب . قال ذلك وضرب السجادة بقضيب يحمله من الخيزران .

من غريب الامور اننا في الجلسة الاولى تناقشنا في الموضوع .

وما كان ذلك نقصاً في تأدبي . فلم أكن لاقدم على مساجلته في تلك الساعة لو لم يتقدمني بصراحة علمت بعدئذ انها من سجاياه الكبيرة ، وانه قلما يقف فيها عند حد من حدود التحفظ . أجل ، قد هدم السلطان بكلمة من كلماته حواجز الرسميات ، فجعل نفسه ، تنازلاً ، في مقام الصنو والرفيق .

– لك الحرية ، يا حضرة الاستاذ ، ان تتكلم معي بكل حرية . ولا أقبل منك غير ذلك . وأنا أكلمك بكل حرية . ولا تتوقع مني غير ذلك ...

٢ – الريحاني في اليمن

عدن أمس واليوم

قلت إن عدن تلك الأيام كانت عدن العرب والتوحيد . ولا أريد بالتوحيد الدين فقط ، بل الجنس واللغة .. أما عدن اليوم فمدينة الشِرْك هي . مدينة عمومية ، لا أوروبية ولا شرقية ولا عربية . مدينة التجارة والفحم والمضارب العسكرية . هي من الوجهة الحربية جبل طارق الشرق ، ومن الوجهة التجارية مركز توريد وتوزيع مهمّ في البحر العربي ، ومن الجهة البحرية العمومية هي مستودع فحم لبواخر العالم التي تجري بين الشرق والغرب .. وهي فوق ذلك ، وقبل كل ذلك المستودع الثالث للبواخر الانكليزية في الطريق بين الجزائر البريطانية والهند . أما المستودعان الأول والثاني ففي جبل طارق والسويس .

إن المدينة تقسم قسمين : عدن الفحم والحصون والسياسة

وتدعى الشواهي ، وعدن التجارة والموبقات وتدعى كمب أي المعسكر . في الأولى ، وهي على الشاطئ ، دار الاعتماد (مكتب المعتمد البريطاني) والقنصليات وبيوت الضباط والمتوظفين والأنزال (الفنادق) وبعض المخازن التي تباع فيها بضائع الشرق والغرب الرديئة بأسعار غالية . وفي الثانية ، وهي وراء الجبل على مسافة خمسة أميال ، في فم البركان ، أو ما كان بركاناً في قديم الزمان ، وفيها اربعون الفاً من السكان من كل شعوب الأرض والأديان . فيها المسلم الذي يصلي إلى الله ، والفارسي الذي يصلي إلى الشمس ، والبنْيا الذي يصلي إلى الأوثان ، والمسيحي مكرم الصور والصلبان ، والاسماعيلي صاحب « صاحب الزمان » واليهودي مسبّح الذهب الرنان . وفيها من يغسلون ويكفنون أمواتهم ، ومن يحرقونهم ، ومن يحملونهم إلى برج السكينة لتأكلهم النسور والعقبان .

كل هؤلاء يتاجرون ولا يتنافرون ، ويربحون ولا يفاخرون . أما بيوتهم فواحدة لا تُعرف أعربية هي أم هندية أم اوروبية . وأما أديانهم فهي كالأشجار والأدغال في الغاب ، وهم في ظلالها لا يتغيرون ولا يتطورون .

ضيافة السلطان الحوشبي

ودعنا السلطان (علي بن مانع رئيس قبيلة الحواشب) تلك الليلة شاكرين له حسن الحفاوة والضيافة ، وأعلمناه أننا سننهض باكراً للرحيل ، فلا نكلفه مشقة القيام مثلنا ليودعنا ثانياً . وفهمنا منه انه قبل بذلك . إلا اننا في صباح اليوم التالي ، بينا كان

المكارون والخدم يحمّلون ، دهشنا بل ذعرنا لحادث فيه منتهى الغرابة . كنا مقيمين في جناح من القصر قبالة الجناح الذي يسكنه الحريم ، وبيننا الحوش الذي كانت فيه الركائب والخدم ، فسمعنا بغتة ان اناءً من الفخار تكسّر فيه ، فظننا انه وقع من السطح . ولكن اناء آخر تبعه ، رأيناه يرمى من النافذة ولم نرَ الرامي ، فأصاب أحد العساكر فرفع صوته شاكياً ، ثم جفنة[1] ثم قطعة أخرى من الفخّار تحطمت بين أقدام البغال ، فعلت الضجة في الحوش وسمعنا رجالنا يصيحون : هم يطردوننا ، عجلوا يا ناس ، هذه ضيافة ابن مانع ، عجلوا بالرحيل .

خرجت وقسطنطين مسرعين فركبنا وسرنا نتقدم الحملة . نزلنا من الجبل إلى السهل فالنهر وقلبُنا ، أقول : قلبي ولاأتهم رفيقي ، يختلج حنقاً ورعباً . ظننا اننا بعدنا عن الخطر ، وعن ضيافة صاحب السمو الحوشبي ، عندما وصلنا إلى النهر . ولكننا قبل ان اجتزناه سمعنا أصواتاً تنادي : قفوا ، قفوا . فلم نقف ، فأطلقوا إذ ذاك البنادق طلقات متعددة ، فقلت لرفيقي : هو ذا الخطر الذي نتوقعه . دنت الساعة يا قسطنطين ، قف واشهر سلاحك .

بعد قليل قرب القوم منا ، فاذا هم خدم السلطان يحملون على رؤوسهم الاطباق ومعهم بضعة عساكر . جاؤونا بالفطور ! أي بالله . كيف نسافر قبل أن نُفطر ؟ وكيف نسافر قبل ان نودع السلطان الذي نهض باكراً للوداع ؟

سألناهم عن الفخّار الذي رمونا به ، فأخبرونا ان السلطانة ،

---

[1] الجفنة : اناء من الخزف .

وهي في خدرها ، رأتنا من على السطح في أهبة الرحيل ، فنهضت كذلك باكراً من أجلنا . فأرادت تنبيه الخدم النائمين في الطابق الاسفل ولم تشأ أن تُسمعنا صوتها ، أو تُرينا ، من النافذة ، وجهها ، فرمتهم بالفخّار تستفيقهم لينهضوا ، ويهيئوا لنا الطعام : الضيوف ، انهضوا للضيوف ، والحقوهم بالفطور ، واطلقوا الرصاص إذا كانوا لا يقفون .

أكثر الله ، ايتها السلطانة ، من فخّارك ، وجعلنا ألسنة فخارِك . انك ، في الضيافة ، شاعرة الأقران ، وفي البلاد العربية فريدة الزمان . كيف لا ، وانت السيف في اكرام الضيف تضربين من أجلنا الكسل ، وتُلحقيننا بالعسل .

تروّعين ، ايتها الحوشبية الألمعية ، ولا تُجزّعين . قد كنت حديثنا وموضوع اعجابنا حتّى في بلاد الزيود[1] ، التي تنسي المرء الحبيب والمعبود .

٣ — في بلدان الزيود

بعد ان سلمنا على الامير قدمنا له كتاباً من القاضي عبد الله العرشي وفيه يعرّفه ، إما خطأ وإما تلطفاً ، إلى « السيد »[2] امين الريحاني ، فظنني حضرته مسلماً من اشراف المسلمين ، وأراد ان يعرف إلى أي الفرعين أنتسب ، فسألني قائلاً : هل انت حسني

١ — الزيود فرقة من المسلمين تنتسب إلى زيد بن علي بن الحسين ولد الامام علي ابن ابي طالب . والزيود هم أهل اليمن اليوم .

٢ — وضع الريحاني هذه الكلمة بين اهلة لأن « السيد » لا تستعمل في اليمن إلا لمن كان من السلالة النبوية .

أو حسيني ؟

وقع السؤال عليّ كالصاعقة ، فبلبل الخاطر مني لأول وهلة وعقل اللسان ، فجالت في ذهني بل جرت كمجرى البرق صورَ كلها سوداء تنذر بالبلاء . أفلم ينذرنا الانكليز بالخطر على المسيحيين ؟ أفلم يحذرنا عرب عدن ولحج من الزيود المتعصبين ؟ وها نحن في مجلس أميرهم وعلمائهم ، وفي قلعة ظلماتها كظلمات السجن أو أشد ، وروائحها مثل نظرات أصحاب العمائم بل أحدّ ، ولا نزال والحمد لله في بداية الرحلة ، وهل أنت حسني أو حسيني ؟

– جاوب يا فتى ! هل تكذب على الامير فتنتسب ؟ وما الحسن وما الحسين في مثل تلك الساعة ؟ اذكر اني في خمس لحظات غيّرت ديني خمس مرات ، فكنت انتقل كالبرق من الحسن ، إلى مارون ، إلى الحسين ، إلى دروين . أما إذا اكتشف الامير بعدئذ حقيقة دينك ! أصدقه الخبر يا رجل ، ولكن ، ولكن – هل تعلن أمام هذا الجمع الزيدي الرهيب مارونيتك أو مسيحيتك أو دروينيتك ؟ قد يوقفونك فيأسرونك ، ويرجعونك إلى حيث جئت . هذا اخف ما في البلية ومن جهة أخرى أشدها .

جالت هذه الصور والسؤالات في نفسي . جرت مجرى الكهرباء . وأنا أثناء ذلك أسير خوفٍ اشد من خوفي ساعة أطلق الحواشب الرصاص ليوقفونا للفطور . وما خفت على حياتي خوفي من تعرقل مسعاي – من الفشل ، من الرجوع إلى عدن مدحوراً مذموماً . ولكنه سبحانه ، بعد أن غيّرت فكري خمس مرات في خمس لحظات ، فتح عليّ فقلت مجيباً : أنا عربي يا حضرة

الامير ، أحترم كل المذاهب الاسلامية ، وأحب كل العرب ، وأتمثل دائماً في مثل هذا الموقف بقول الشاعر :

ولكلّ رَبعٍ من ربوعكِ حرمةٌ

وهوىً تغلغل في صميم فؤادي

أظن ان الامير استحسن الجواب أو انه احسن امام العلماء المداراة . وكان من رجاله الذين استقبلونا خارج القصر رجل بشّ لقدومنا بشاشة الصديق ، فلمسنا القلب منه في سلامه وتبادلنا وإياه الثقة والولاء . فقال يُعقّب على جوابي مخاطباً الامير : حضرته من سادات لبنان .

٤ ـ الريحاني في تهامة

نساء تهامة

الجمال الأسمر نشدناه في كل مكان ، فما لقيناه حتى وصلنا إلى تهامة . والرعابيب ، ها هن أولاء في عبال . وسيبهجك منهن ما ستراه غداً في باجل . نزلنا في بيت أخلته لنا احدى النساء بأمر من الشيخ ، ثم جاءت تخدمنا . فسألنا مستطلعين حالها ، فقيل لنا انها مزوّجة مطلّقة ، وتكره الرجال . نعم تكره الرجال . فهل تختلف المرأة يا ترى في عبال عن أختها في عواصم التمدن والجهال ؟

اجتمع في الباب وخارجه الأولاد والرجال متفرجين مدهوشين . فجاءت العساكر تبددهم لتفتح الطريق لشيخ القرية الذي بادر إلى زيارتنا . وهو رجل طويل القامة ، مَهيب الطلعة ، فخم

اللباس ، متطيب متكحل حافٍ ، إلا أن رجليه المخضبتين تلمعان بالحنّاء . دخل يحمل بيده السيّف وبالأخرى أغصاناً من الحبق قدّمها لنا وهو يسلم ويتأهل بنا . هنأنا بوصولنا إلى بلاد السيد سالمين ، ثم قال معتذراً : لا يمكننا ، ونحن في رمضان ، ان نقوم بما يوجبه علينا الشرف والناموس . انتم الآن في بيتكم وان كان لا يليق بكم . ولكنكم ستنامون والبال مطمئن . عندنا سلام وأمان . ولكنا نرجو أن لا تحكموا علينا بما يظهر . نحن نفتخر والله بضيوفنا ونود أن ننزلهم في بيوت من الرّخام والمرمر . فاحمونا ، وأنتم أهل الفضل ، من العين واللسان .

وبعد هذه الخطبة استأذن الشيخ وودع ولم نُسعد برؤيته مرة أخرى ، لأن سفرنا من عبال كان ليلاً . ولكنه ارسل الينا ابنه قائد الجيش فأسمعنا خطبة شبيهة بخطبة أبيه وأعطانا ريالين قائلاً : رمضان يُسوّد الوجه . أنتم ضيوفنا اشتروا ما تشتهون . فقبلنا المال منه شاكرين ، لأن في رفضه رفضَ الضيافة وأكبرَ الاهانات . وشربنا اللبن الرائب تلك الليلة في ضوء النجوم ، فما رأيناه في غير كأس من اللجين ، وما رأينا فيه غير اللبن الرائب . ولكننا ، على شدة شوقنا اليه ، لم نسرّ به سرورنا بلطف هؤلاء العرب وسذاجتهم الطيبة . إن أهل عبال من عرب المسارحة المشهورين في تهامة بشدة بأسهم ومحاربتهم الأتراك في مواقع متعددة .

* * *

بعد ان اجتزنا قاع عبال وصلنا في الساعة الأولى من النهار إلى البِحاح ، وهي قرية فيها مقهاية رحبة نظيفة ، فدخلنا وكنا أول

الزائرين ، فخرجت من البيت عربية حسناء ، ممشوقة القوام ، في جلباب أنيق الشكل فوق دِثَار أزرق طويل الذيل ، كأنها من بنات المدن ، وقد تدثرت عند نهوضها فوق قميص النوم . هشّت لنا وبشّت ، وأسرعت في عمل القهوة التي لا تزال حتى في تهامة من القشر ، إلاّ أنهم يُضيفون اليها بعض الأبازير كالزنجبيل والهال ، كثيراً من الأبازير يسمونها حوائج . وكان حسن العربية يتجاوز قوامها ووجهها إلى الذوق والخلق ، فسألت وهي تشب النار : تبغونها بحوائج ؟ فأجاب العبيد، صوتاً واحداً ، بالايجاب. وشربوا هنيئاً وثلّثوا . أما نحن ،أنا والرفيق قسطنطين ،فكنا نشتهي قهوة البن ...

ومما زاد في كربة الرجال ، صباح ذاك اليوم ، أن لاحت لنا ، ونحن سائرون في القرية ، حسناء أخرى ، رُعبوبة في شِعار شفّاف ، تنشر للشمس شعرها ، كأنها خرجت من الحمّام ، أو من مسرح الأحلام . فحثثنا المطايا مسرعين إلى القاع ، إلى الفلاة ، معتصمين بحديث الشيخ علي ابن شيخ عبال . قال وهو يحدثنا عن العرب والترك : ابن اليمن مثل الحجر صُلب يابس ، لا الشمس تحرق رأسه ، ولا الرمل يحرق رجليه . والترك ، ما الترك ؟ هناك — اشار بيده وهو يُنقض [1] أصابعه — هناك ، عند تلك القرية ، تحت ذاك الجبل ، حفرنا الخنادق ، كنا تسعين ، تسعين فقط ، وأطلقنا البنادق على عساكر الدولة ، على النِظام [2] ، وهم

١ — ينقض : يضرب أصابعه لتصوت .
٢ — النظام : أي العسكر النظامي .

خمسة آلاف ومعهم الأطواب [1] ، من الفجر إلى أن صارت الشمس فوق رؤوسنا مثل « كلّة » مدفع مشتعلة ، كلّة نار ، ونحن نطعمهم الرصاص . وعند الظهر ، والله ونور هذا النهار ، خرجنا من الخنادق تسعين لا ننقص واحداً ، ومشينا إلى القاع . كانت الأرض مغطاة بالقتلى . مئات من الترك أكلوا رصاصنا وسكتوا ، سكتوا إلى آخر الدهر . والباقي تشتتوا ، هربوا ، فما لقيناهم .

سرنا ساعة في قاع المطحلة فخرجنا من ظل الجبال ، ولاحت لنا على الأفق غيمة سوداء هي باجل . كنا نمر في طريقنا بنساء لابسات « البرانيط » وهن يشتغلن مع الرجال في الحقول . ان البرنيطة أو « الشبقة » لقديمة العهد في تهامة وبعض نواحي اليمن الأخرى ، وهي صنع أهلها ، يلبسها الرجال والنساء ، وكلهم عرب وكلهم مسلمون . لكن الشمس لا تعرف حدوداً في الجنس والدين ، والانسان في مقاومته العناصر الطبيعية لا يراعي التقاليد . هو ينبذها أو ينساها أو يغيّر فيها ، لتمكنه من دفع العذو الصائل بل من الدفاع عن الحياة .

قد برهن اليماني التهامي في لبسه الشبقة على أن الغريزة في الانسان ، شرقياً كان أو غربياً ، مثلها في الحيوان واحدة لا تتغير . ومن عواملها الأولى حفظ الحياة والدفاع عنها . وقد أحسن أيما إحسان في صنع شبقة من القش متراخية النسج فلا تمنع الهواء ، واسعة الأطراف تظلل الوجه والقذال ، عالية « القُبع » تحفظ

---

[1] — الأطواب : جمع طوب ، أي المدفع ، لفظة تركية .

الرأس من سهام الشمس .

ويا لها من شمس لا تحجب ظُلْمها ساعة من النهار ! كانت لا تزال في صهوة الأفق ، عندما دخلنا باجل ، فعرفناها من ساعتها وما وددنا الاقامة في بلد هي وحدها الحاكمة بأمرها فيه . ولكن باجل تنسي السائح لأول وهلة حتى الشمس ، خصوصاً إذا دخلها مثلنا يوم سوقها. هي قرية كبيرة ، بيوتها من القش وبعضها من الآجرّ الأحمر ، يقام فيها سوقان في الأسبوع ، فيؤمها العرب من كل القرى والمضارب المجاورة لها وينزلون ومواشيهم ودوابهم في الساحة العمومية فيبيعون ويشترون طوال ذاك النهار .

مشينا بين صناديق من الغار وأثواب من الخام ، بين المواعين المصفوفة على الأرض والأكياس ، بين الأبازير والحبوب ، وإلى جنب كل « فرش » رجل أو ولد أو امرأة . والناس في الساحة رائحون جاؤون ، والنساء ، وبأيديهن السلال ، أظهرُ ما هناك ، يكثرن البيع والشراء . أدهشنا من هذا المشهد مظهره النسائي لأننا لم نرَ في بلاد اليمن ، بل في البلاد العربية كلها خلا العراق ، من النساء بقدر ما كان في ساحة باجل ساعة دخولنا اليها .

وكلهن سافرات ، يلبسن الشبقات ، وأكثرهن حسان الوجوه والقدود . أما البنات فما رأيت فيهن غير الممشوقة الهيفاء ، وهي ، لولا لونها ، أشبه بالانكليزية قواماً ونحولاً ، وخفةً ومشياً . لكن لبسها قد ينسب ، لولا السذاجة والفقر ، إلى التهتك . هي تلفّ ذراعاً من القماش حول وسطها ، فيصل إلى الخلخال ولا يخفيه ، وتلبس فوقه صدرية ضيقة قصيرة لا يتصل طرفها بطرفه ، فيبدو

شيء من الكشح بينهما . ولها مشية تُكشَف بها الساق ، وإذا ساعدها الهواء ، تنكشف الركبة كذلك . ولها لسان ، لا أثرَ فيه لما في قدّها ومشيها من حسن وبراعة . سمعناها تشتم الصبيان فاستعذنا بالله . ورأيناها تمشي إلى السوق والسلة بيدها ، فأسفنا لبذاءةِ تشينها .

٥ ـ الريحاني في العراق

خزف الرقة

ما رأيت في جمال بغداد ، وما أقله بعد نهر دجلة وضفتيه ، مثل ذاك الجمال الفني في قباب جوامعها ، ومثل هذا الجمال الروحي تحت القباب . وليس الذهب في حاجة إلى التذهيب . سأمسك اليراع عن الافاضة إذن ، وأكشف لك ناحية مجهولة من نواحي الفن في صناعة تكاد تضمحل . أنت تسمع ، وقد تكون عالماً ، بما يسمونه خزف الرقة . وقد لا تحتاج إلى من يزيدك علماً بما كان للعرب في الأندلس من المهارة والذوق في صناعة الآجرّ الملوّن المصقول ، الذي كان يدعى الزّلاج (زلج ـ زلق) إنما المدهش أن لا يزال في بغداد لهذه الصناعة أثر يذكر .

تعال ندخل المعمل في جامع الحيدرخانه ، وذلك الجمال في القباب والمآذن إنما هو منه . هاهنا المدهشات ، وخصوصاً لمن كان منذ ساعة في سوق النحاسين . وأول المدهشات النظافة التي لا نتوقعها في من يلعب بالتراب والأصباغ . النظافة ثم الترتيب ثم الاتقان . وربّ المكان هو رب هذه الفضائل كلها ، التي ورثها

كما ورث الصناعة ، من أبيه . وما يدريك قد يكون الاستاذ من سلالة أحد أرباب هذه الصناعة في الرقة أو في الأندلس .

هو شيخ في العقد السادس ، ومعه ابنه يتعلم ويساعده ليحسن استخدام الارث السمين . وانه على سنه يعمل مجدّاً فيشرف على كل فرع من فروع هذه الصناعة التي تبدأ بخلط التراب والرمل ، وتنتهي بالاشتواء . وهو نفسه يصنع الأصباغ ، وجلّها من الأزرق اللازوردي والأصفر العصفري ، وليس فيها شيء مجاوب ، ليس فيها أصباغ كيماوية غير التي يصنعها من التنك والزجاج ، إذا صحّ أن يدعى هذا المزيج مزيجاً كيماوياً .

أذن لنا بالدخول إلى غرفة الأصباغ ، وفيها ركام من صناديق التنك ، والقناني المكسرة ، والرصاص . وفيها آلة كالجاروش من حجر ، وأخرى من حديد . فبعد أن تجرش المواد وتطحن ، تذاب بالماء ، وتوضع في مواعين فوق النار لتغلي . ثم تنقل إلى الشمس لتجف ، فتفتت بعد ذلك بالزيت فتغدو صباغاً .

ومن مدهشات هذا الصنع أن رجلاً واحداً يعمل فيه الأعمال الأساسية كلها . فهو الطيان ، وهو الصباغ . وهو الرسام الفنان . ولا بأس برسومه التي تشتمل على أشكال هندسية ، وأمثلة من الزهور والنبات . وهاك السلّم في عمله . فبعد ان تصنع الأجر وتشوى ، يصبغها ، ويرسم عليها الرسوم . ثم يعيدها إلى النار ، فيعمل اللهب بالألوان عمل الشمس بالغيوم المفضضة والمذهبة . فيذيب اللون الواحد فتبدو في حواشيه ألوان منه فرعية ناعمة ناعسة . وبكلمة أخرى تتشح الألوان فترق ، فتظن وأنت تعجب بها ، أنها

دهنت بريشة فنان ماهر ..

في سوق بعقوبة

بعد أن عبرنا الجسر (جسر ديالي) سرنا في جادّة ضيقة ، مضيئة بأنوار ضئيلة من الغاز ، أدت بنا إلى السوق ، سوق بعقوبة المسقوف ، الحافل بالقهاوي ، وقد اكتظت بالناس . وكان السائق فرحاً فخوراً ببراعته ، وسرعة سيره ، كأنه لا يزال في الفلاة. وكنا نحن بشجاعته معجبين ، وبجنونه راضين . وليس في السوق شرطي يعيده إلى رشده ، ويذكرنا بأننا في قلب بعقوبة ، لا في البادية .

وما بعقوبة ، وما قلب بعقوبة بلا رمانها ؟ كنت أتوقع أن نصطدم بطبق من الرمان ، بدل كرسي وخوان . زمّر يا رجل زمّر . ما جئنا بعقوبة غازين ، ولا نحن من المحتلين .هؤلاء السمّار إخواننا ، ولهذه الأراكيل حق في السوق مثلنا . فقال السائق : « إذا زمرنا يا باك يجي البوليس » .

وما كاد يفصح عن خوفه حتى بدا أمامنا الشرطي ، والعين منه جاحظة ، واليد مرفوعة آمرة : ممنوع السير ، ممنوعة السيارات .. وكيف يمكننا أن ندور لنرجع أدراجنا ، إلا إذا دخلت السيارة إحدى القهاوي ؟ كلّم السائق الشرطي ملاطفاً ، مجاملاً ،وصلّى على النبي . فصلّى الشرطي كذلك على النبي ، ومالان . فهمس السائق إذ ذاك قائلاً : السيد حسين باك أفتان الخ فحوقل الشرطي وأشار بيده أن سيروا بأمان الله !

وكان السوق يزيد ضيقاً ويقل نوراً . وكنا نسمع الناس يستعيذون بالله ، ويصلون على رسوله ، ويحوقلون . وكنا نراهم يقفون واثبين ، والاراكيل أو الكراسي بأيديهم فيلصقون بالجدران ، أو يدخلون الخان أو الدكان ، لنسير نحن بأمان . يا للفضيحة ويا للعار ! إن جملاً هائجاً في قهوة ، أو ثوراً ثائراً في مطعم ، لأقل فظاعة منه في سوق بعقوبة . ولكننا نحن والسوق ومن فيه خرجنا من القمرة ساعين كلنا ولله الحمد . وما كان من ذنبنا إلا أننا روّعنا البعاقبة ، وكدّرنا جوّ سوقهم ساعة السمر .

٦ ــ الريحاني في لبنان

رحلة إلى الأرز

اعتزمت الرحيل إلى الشمال لأزور الأرز ، وشرعت أوَطّئ للأمر وأتخذ له الأهبة . فما كانت الأسفار في تلك الأيام كما هي اليوم ، فهي أسهل من نظم القصائد ، وأسلم من الجلوس في دور السينما . بل كانت ، والحقّ يقال ، من الأمور المهمّة الخطرة ، تصدق فيها السجعتان وتترادفان : الأسفار ، الأخطار .

أما العقبات ، حرفاً ومعنى ، والمشقات التي تذهب بالقوة والعزم ولا تُبقي على غير الروح فيك ، فحدّث عنها ولا حرج . وقد كانت تكثر حتى بين وادٍ ووادٍ ، فكيف بين أودية متعددة ، سحيقة شاسعة ، مختبئة بعضُها وراء بعض ، أولها يتصل بنهر الكلب ، وآخرها بنهر قاديشا .

وما كان من أسباب الاسفار للركوب في تلك الأيام غير

العربات في أماكن محدودة ، جلّها في السواحل ، والدواب في مسالك الجبال وأوعارها . أما العربات فقد كانت آية في الاتقان الشرقي ، فلا يسلم فيها من الراكب غيرُ الصبر والايمان . ومـا كانت طرق « الكرّوسة » والطرق « السلطانية » أقل من العربات حسناً واتقاناً .

بقيت الدواب لمن كان يأمُل أن يسلم فيه غير الصبر والايمان. والدواب أربعة : حمار وبغل وكديش وفرس . اما الجمل فليس منه في لبنان للاسفار ، لأن ذا السّنام لا يفلح ولا يصلح في الجبال وليس في الجبل افراس للأجرة .

والكديش مثل الجمل في الوعار الجبلية . فما هو ابن بجلدتهـا (أهل لها) فما بقي إذن غير البغال أختار منها بغلة أو بغلا .

إذن ، على ظهر البغلة إلى الارز .

من حسنات هذا الطريق إلى الأرز انه طريق جبليّ يمر بك على ثلاثة انهر تاريخية ، هي نهر الكلب ، ونهر ابراهيم ، ونهر قاديشا ، وثلاث مغاور اثرية عجيبة هي مغارة جعيتا ، ومغارة أفقا ، ومغارة بشري .

ومن صفات هذه الانهر والمغاور صفة قُدسيّة زرع بزورَها الكهّان ، وأنماها ذوو الورع والايمان ، وضمّخها ببَخُوره الزمان . وقد غرست الأمم الشرقية والغربية على ضفاف تلك الانهر أغراسَ الاساطير والخرافات ، ووسمتها بالمِيسَم الديني الوطني ، فكانت يوماً فينيقية ، ويوماً يونانية رومانية ، ويوماً سريانية أو آرامية أو عربية .

لقد مررنا بآثار اليونان والرومان في نهر الكلب ، ونحن الآن مشرفون على فينيقية المتجسّدة في هذا النهر الحامل اليوم رسماً سامياً ولكنه غير فينيقي . وللانسان وآثاره في الاسماء شؤون .

أما المغارة فهي في اسمها أقرب إلى مصدر قداستها من النهر . ولولا جبانة المكاري محبوب لكنّا واصلنا السير في الطريق العالي اليها . فالفرق في المسافة إلى محجّتنا بالمغيرة لا يربو على العشرة الكيلومترات .

انما أقول الآن جبانة محبوب لم تخلُ من فائدة . فلولاها لكنا حُرِمنا رؤية بلدة في هذا الوادي الفينيقي المقدّس ، هي غريبة في اسمها ، وفي أهلها ، وفي أوضاعها الدينية .

هي قرية صغيرة كامنة آمنة في منعطف الوادي الذي ينبُع في رأسه نبع الحديد ، ويجري عند قدميه نهر ادونيس . وانّ في هذه القرية ثلاثاً من متناقضات الحياة ، هي في أهل القرية ، واسمها ، في كرسي اسقفها ، في أهلها المسلمين والشيعيين ، وفي اسمها الهندي الطيبي ، وفي كرسيها الاسقفي المسيحي الكاثوليكي الماروني . فأين ادونيس وعشتروت ، وأين عبّادهما من هذه الشطائب (الفرق المختلفة) والشواذات ؟

لا أظن ان المطران يوحنا مراد ، رئيس اساقفة بعلبكّ ، يستطيع أن يخبرنا ما الأصل والسبب في اسم القرية التي هي مقرّه الصيفي : لا سا . من أين جاء هذا الاسم إلى لبنان ؟

إن في بلاد المغول بـ « طيبت » مدينة لاسا المشهورة بأديرتها ورهابينها وبوذيتها الكثيرة الطقوس والخرافات . لاسا : عرش

الآلهة في لغة اهل الهند الاقدمين . لاسا : المدينة المقدسة لبوذه والبوذيين . ما الصلة ياترى بينها وبين هذهالـ«لاسا » اللبنانيةالتي تحتوي على بضع عائلات مارونية شركاء السدّة البطريركية ، وما لا يربو عليهم من الشيعة ؟

الضيافة اللبنانية

لا يزال في بلاد جبيل رجال ونسوةٌ هنّ اخوات الرجال في المُلِمّات ، وفي المسرّات . ولا تزال الضيافة اللبنانية المتصفة بالكَرم والمعروف ، المزدانة باللطف والبساطة ، من العادات المرعية هناك ، كما هي في الأماكن اللبنانية الأخرى ، البعيدة عن لألأة الاصطياف وضوضائه .

وفي جاج المِضياف ، بيت وارف الظل ، رحب الذّرا [1] ، كسنديانة الكنيسة هناك . ولسنديانة الكنيسة ، بارك الله فيها وفيك ، شهرة جبلية بعيدة الآفاق وظِلالٌ ترحّب بمؤتمرات الأهالي السياسية ، كما ترحب بمدرسة الأولاد الأبجدية .

نزلنا في البيت الذي يشرف على السنديانة ، ويتصل في وشائجه [2] بما وراء الأفق الجبلي شرقاً بشمال ، أي بتنورين . ربما لا تُدرك ما هناك من هذا الوصف الجغرافي . فاعلم ان بين تنورين وجاج الجبال والصخور ، و وكورَ الحجال والنسور ، وغاباتِ ارزٍ تحضنها الدهور . وبالرغم من ذلك قد غزاها الدكتور ، وغنم

١ الذرا : الجانب .

٢ الوشائج : اشتباك الاشياء ، واحدتها وشيجة .

احدى بناتها ، فصار يونس المغوار ، نسيباً لفرحات الجبّار ، وعُقد بين البلدين معاهدة ولاء وحسنِ جوار .

وكانت بنت فرحات شقيقة الدكتور يوسف ، وبنت يونس شقيقة الدرويش اسعد وزوجة الدكتور ، كَوكَبي تلك الليلة ، ومحوَري الحياة فيها . فأضرَمتا نيرانالضيافة ، وأشعلتا أنوار المسرّة والأنس .

وجاء شباب القرية بما وُهبوا واكتَسبوا من علمٍ وفنّ ومعرفة ، فكان بينهم القوّال والرقّاص والنافخ بالقصب . وجاءت البنات ذوات الجمال القروي الوديع ، يساعدن ربة البيت ، فكانت احداهن تقدّم الشراب ، والأخرى القهوة ، وتجيئ الثالثة بالماء من العين إلى المطبخ ، والرابعة تهيئ الأراكيل ، وكلهن يعملن فَرِحات جَذِلات ، كأنهن في عرسِ أخٍ لهن . هي المروءة يتغذى القروي والقروية صغيرين بلبنها .

وكنا كأننا في عرس . وعندما جلسنا إلى المائدة ، شاء رب البيت أن يكون العشاء مصحوباً بشيء من الموسيقى والغناء ، كما لو كنا في لوكندة باريسية ، فأرسلت شقيقته صوتها الشجي ببيتٍ من « العتابا » ، ونفخ القصّاب بقصبه مرافقاً لها . وكان أحد الشبّان يباريها ، فيبدأ حيثماتقف ، دونأن يبعد عن النغم والمعنى .

إني ممن يُعجَبون بهذا العربي البدوي ، الذي تصفو فيه عواطف الحب وتشتد لواعجه . واني ممن يُطربهم صوتالقصَب ، ذلك الصوت العريض الأجشّ ، الذي تتمثل فيه خشونة البادية ، ونغمها الوحيد ، نغم الوَحشة والقسوة والأمل . أما الرقصة البدوية

الشهيرة التي تدعى « الدبكة »فهي من الفن العالي بمكان . ان في خطواتها همسَ المرأة ، ونبرة الرجل . وان فيها الحركات الهادئة المترددة ، تقطعها وتصِلها الحركات الآمرة المهدّدة .

يا حلوه بحيـاة قدّكْ

والحلوة تميل بقدّها ، وتغنج برجلها ، فيضرب الشاب الأرضَ برجله ويكمل البيت :

بَدْنا بوسه من خدّكْ

وعُقدت السلسلة تلك الليلة من الشباب والبنات ، وكانت على رأسها ربة البيت وهي تلوّح بالمنديل . فنفخ القصّاب بقصبه وصفّق أحد اخوانه بيديه هاتفاً : « زقفة » يا شباب ! فلعب الطرب في النفوس ،وخفّت الأيدي والرؤوس . فكنا كلنا مسوقين بالنَغَم الوحيد ، والنَظْم الفريد ، نغم القصب العميق ، ونظم الأرجل الرشيق . وكان القصّاب وهو في وسط السلسلة المستديرة التي تكاد تصير حَلْقة ، يحنو [1] رأسه حيناً وحيناً يرفعه فيذوب هياماً ، ويزيد بنار « الدبكة » إضراماً .

يا حلوه بحياة قدّكْ
بدنا بوسه من خدّكْ

حَيّهَلا — حيّهَلا !

وبعد « الدبكة » أخليت الساحة لاحدى البنات اللواتي يُحسنّ الرقص وحيدات ، فغيّر النافخ بالقصب نغمه ، فوقفت صاحبة القدّ الأهيف ، والوجه المليح ، وقد غضّت من طرفها ، ومالت

---

١ يحنو : يلوي .

إلى الكتف برأسها ، ثم بسطت يديها ، وطفقت تُقدّم الرجل اليمنى ، وتجرّ رأس اليسرى وراءَها فتمدّ الخطوات وتُدوّرها ، كأنها تكتب برجليها أحرف الحب . ثم تثني منها الزند ، وتهزّ الكتف هزّة لطيفة ، فيغار العنق مما انثنى إلى جنبيه ، فيعطف ويميل ، ويُرسل إلى الصدر ، في هزّات أماميّة ، رسائل غرامية فيهيجُ الطرب في حمامتيه الرابضتين ، فتنتفضان وتتذبذبان ، والمليحة واقفةٌ هنيهة مفروشة الذراعين ، ولا أثر في وجهها من الادراك أو الاشارة لما في تلك الهزهزات ،، من المُغريات .

هنيهةً ، في ذلك الأوج من سذاجة فنها ، ثم تدرج واليد على خصرها ، والأخرى أمامها ، فتثني منها العطفين ، وتعيد الكتابة برجليها لرسالة الحب ، مسرعة حيناً ، وحيناً متمهلة ، ثم تقف فجأةً ، وتنحني للسلام ، كتلميذة مدرسة مثّلت دورها .

وما عاب رقصها هذا غيرُ المفاجأة في الختام . فلو أنها عندما تتمهل في خطواتها تستمرّ متمهلة ، وهي تبعد من وسط الساحة ، فتتوارى كالطيف ، لكلّلت فنها بالذوبان ، عكس الراقصة الأوروبية التي تختمه بالعنف والهياج . وعندي ان الحالة الأولى هي أقرب إلى الحقيقة وأشد وقعاً في النفوس المهذبة .

٧ — الريحاني في الاندلس

فبعد ان جلنا في المدينة كلها ، أو ما تلألأ بالأنوار منها ، واجرة العربة تصعد كالزئبق في تموز ، والدليل ترجماني يحرك يديه ، ويهز كتفيه ، شاكياً اسفاً ، بل خجلاً من ضيق بلده في

وجه الزائر الكريم ، وقفنا عند بوابة كبيرة إلى جانبهامصباح صغير ضئيل . فترجل الدليل وقال كمن أنزل عليه الوحي : « انزل (سنيور) ، انزل ، سآخذك إلى بيت عمي وهو بيت يليق بك .

فنزلت والحقيبة بيدي ، وكذلك قلبي . فمشيت وراءه ، وكان المصباح ، عند الباب ، آخرَ عهدي آنئذٍ بالنور . مشينا في زقاق ضيق لا يمكن ان يقع السائر فيه لقرب حائطيه الواحد من الآخر ، إلاّ إذا وقع على وجهه أو ظهره ، ومنه إلى ساحة منّ عليها ببعض النور مصباحٌ في شبّاك مفتوح . فتنفست الصعداء . ولكننا لم ندخل الساحة إلا لنخرج منها إلى شبه جادّة ، فيها شبه قنديل ، ظننته لبعده بصيص الحُبَاحِب[1] ، ولم نصلْ اليه لأتحقق ظني ، بل سرنا يميناً ثم شمالاً إلى زقاق آخر مظلم ، وقف الدليل فيه وهلة وقال : اعطني يدك . فأنزلني درجاً ، درجاته مثل دكّات[2] لبنان متهدمة ، وهو يقول : لا تخف وصلنا . وأنا أقول في نفسي : ان رأيه غريب ، في ما يليق بالغريب ، أيقيم عمّه تحت الأرض يا ترى ؟

نزلنا الدرج ، دون حادث يستوجب عناية طبيب ، فانبسطت أمامنا طريق أشعّ فيها ماكنا نسيناه من حقيقة النور . فمشينا توّاً مسرعين ، فإذا هناك مصباح لا ريب فيه فوق باب مفتوح ، دخلناه كأنه باب الجنة . وسرنا إلى فِناء الدار[3] ، وهي عامرة

---

١ - الحباحب : ذباب يعرف بسراج الليل .

٢ - الدكات : جمع دكة ، بناء يسطح اعلاه للجلوس عليه .

٣ - فناء الدار : ما اتسع من أمامه .

بالأنوار ، وفيها اقفاص تغرّد فيها الطيور ، ومُستنبتات نَوّرت فيها أنواع الزهور ، ولكن الدار خالية من الأنس . وقد كـان أهلها في المدينة يعيّدون ، ما سوى رب البيت ،وهوشيخ جليل ، جاء يتأهل بالغريب وبالدليل .

تكلم الدليل ، فابتسم الشيخ نسيبه ، وسار وهو يشير إليّ أن أتبعه ، فأدخلني غرفة صغيرة ، لا نافذة فيها ولا شباك ، إلا ان في بابها ، وهو قُبالة الحوض في الفناء ، ثقوباً تؤذن بتجديـد الهواء ، وبصوت خرير الماء . وبعد المساومة ، (لا ضيافـة في الاندلس اليوم) سألني الشيخ عن أصلي ، فقلت عربـي . فهش وبش ، ونادى نسيبه ، وهو يشير إلى قلبه ويقول : كلنا هنـا عرب . الا انه تقاضاني اجرة ثلاثة أضعاف اكراماً للعيد . وقبض القيمة سلفاً اكراماً ، على ما أظن ، للعرب .

وبعد حديث كان الترجمان صلتَه ، علمت ان الشيخ ممن يُعجبون جداً بعرب الاندلس ، وان كان لا يعرف للضيافة معنى ، ويعرف للمال الذ معنى . فهو في هذا مثل كل الاسبان بل مثل أكثر الاوروبيين اليوم . وهو من القليلين في الأندلس الذين يفرقون بين العرب والمغاربة ، أو بين من جاء من بر الشام ومن جاء من افريقية ، فلا يقول : « مورو » إذا أراد ان يقـول عربي : والعكس بالعكس . وهو يفضل الأمويين على سواهم ، ويعجب بمـا كان لقرطبة في عهدهم من الشهرة والمنزلة في العلوم والفنون . وقد أخبرني أيضاً ان له ولعاً في درس الآثار ،وبالأخص آثار قرطبة العربية . ودلني على بيوت في المدينة ، لاذكر لها في

كتاب الدليل ، حيث تُشاهد أمثالٌ نادرة من البلاط الزَليجي [1] اي المُزجّج المذهّب .

ويخطر في بال الشيخ ، وكان قد أطلق للسان العنان ، ان قد اكون تَعباً ، ناعساً ، من السفر والضجر . فقد سرّ ، ولا شك ، بغريب المصادفة ، فاسترسل في سروره ، ودعاني إلى رَدهة الاستقبال ، ليريني فيها أثراً جميلاً ، أثراً مدهشاً .. وحقاً ، اني انتعشت حالاً بما شاهدت ، فتجددت فيّ الرَغبة بالسهر والحديث . كيف لا ، والأثر عربي ، ذكرني بما قرأته مرة عن احد الأولياء ، وكان قد مرّ بالزهراء ، قصر المنصور الذي :

« نُسي الصبيحُ مع الفصيح بذكره
وسما ففاق خَوَرْنقاً وسَدِيرا »

فقال الولي : « يا دار فيك من كل دار ، فجعل الله منك في كل دار ! » ولم يكن بعد عودته الا أيام يسيرة حتى « نُهِبت ذخائرها ، وعم الخراب سائرها » .

وهاك أثراً جميلاً من ذاك الخراب . في تلك الردهة الاوروبية الفَرشِ والبناءِ ، على حيطانها الأربعة ، زنّار من البَلاط الزليجي منقوش فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله على نعمة الاسلام . » وكذلك نتف من الشعر مفككة الألفاظ ، مقطعة المعنى .

سألني الشيخ قراءتها وترجمتها ، ففعلت طاقتي ، فهز رأسه

---

[1] الزليجي : أي الاملس .

أن قال : تمام . وسُرّ جداً . ثم قال : وعندي أثر آخر يدهشك . وحمل القنديل الذي كان على الرف ، وخرج من البيت يتقدمنا إلى زقاق خارج الدار . وهناك ، في حائط ، ظاهره قديم ، حجر منقوش فيه « رُشْد » وقد كاد يمحو تلك الأحرف الزمان . فقرأتها مدهوشاً . فهز الشيخ رأسه وقال : لا شك عندي ان هذا بيت آفِروس (أي ابن رشد) الذي كان يعلّم الفلسفة في كلية قرطبة .

والأغلب ان بيت الفيلسوف ، مثل سائر بيوت كبار المسلمين قديماً ، أصيب بما أصيبت به قصور السلاطين ، فتبعثرت حجارته . ورسا ، في ذا الجدار ، بعضها . ولكني لم أحاول أن ازعزع رأي سيدي الشيخ ، أو أفسد ظناً له ، فيه فخر وسرور . فقلت : وهل هذه الدار قديمة ؟ فقال : الغرفة التي تنام فيها هي أقدم ما في الدار بناءً ، وهذا الحائط من حيطانها .

عدت إلى غرفتي ، وأنا لا أدري اني درت مع الشيخ حولها ، فدخلتها والدهشة تملك نفسي ، والهواجس تتجاذب الفكر مني والخيال . نعم ، ان ما شاهدته لتافه جداً بالنسبة إلى الفخامة والعظمة في قصر إشبيلية وغَرناطة ، ولكن العين لا ترى ما تراه النفس، وقلّما تحسب للرؤيا حساباً . ان حجراً منقوشاً فيه ثلاثة أحرف عربية ، لشبه نافذة ، في غرفة صغيرة ، أرتني بل قرّبت مني العهد القديم المجيد .

المصادر والمراجع

•

المصادر :

ابن خرداذبة	كتاب « المسالك والممالك » ليدن ١٨٨٩
ابن واضح اليعقوبي	كتاب « البلدان » ليدن ١٨٨٥
« « «	تاريخ اليعقوبي
ابن فضلان	رسالة ابن فضلان – دمشق ١٩٦٠
المسعودي	مروج الذهب ومعادن الجوهر
بزرك بن شهريار	عجائب الهند بره وبحره وجزائره ، ليدن ١٨٨٦
ابن حوقل	المسالك والممالك ، ليدن ١٨٧٠
المقدسي البشاري	أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦
البيروني	تحقيق ما للهند من مقولة ، لندره ١٩١٠

الادريسي | نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، روما ١٥٩٢

ابن جبير | الرحلة

ياقوت الحموي | معجم البلدان ــ بيروت

؟ ؟ | ألف ليلة وليلة

ابن بطوطة | الرحلة

أحمد فارس الشدياق | كشف المخبا عن فنون اوروبا

» » » | الواسطة في معرفة أحوال مالطة

أمين الريحاني | ملوك العرب ، بيروت ، ١٩٥١

» » | قلب العراق ، بيروت ١٩٣٥

» » | قلب لبنان ، بيروت ، ١٩٤٧

» » | المغرب الاقصى ، مصر ، دار المعارف ١٩٥٢

المراجع :

حسين فوزي | حديث السندباد القديم

نقولا زيادة | الرحالة العرب

زكي حسن | الرحالة المسلمون في العصور الوسطى

شوقي ضيف | الرحلات ــ سلسلة فنون الأدب العربي ــ القاهرة

جورج فضلو حوراني | العرب والملاحة في المحيط الهندي

المقري | نفح الطيب

بروكلمان | تاريخ الشعوب الاسلامية

حكمت صباغ أدب الرحلة عند الريحاني اطروحة ١٩٥٨

محمد علي موسى امين الريحاني – سلسلة أعلام الفكر العربي ، ١٩٦١

آنخل جنثالث بالنثيا تاريخ الفكر الأندلسي

دائرة المعارف الاسلامية

جواد علي تاريخ العرب قبل الاسلام

محمد الفاضل بن عاشور الحركة الأدبية والفكرية في تونس

المجلات :

المكشوف – الأديب – الهلال – الدراسات الأدبية – العربي – التربية المغربية .

مكتبة لسان العرب

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com

فهرست

صفحة

٤٠٢ – ٢ – ١٩٦٢


أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

الفنون الأدبية عند العرب

سلسلة جديدة تتناول الأدب العربي ، وتقسمه بحسب فنونه ، مستوفية الكلام في كل فن على حدة من نشأته حتى اليوم .

وهي طريقة استقرائية حديثة اتبعت في البيئات الجامعية أولاً ، ثم شاعت بين الدارسين ، واصبحت داخلة في صلب المنهج المدرسي في لبنان مثلاً . وانّ دراسة الفنون وفق هذه الطريقة تفيد أكبر الفائدة إذ تتيح لنا أن نتتبع ظواهر نشأة كل فنّ ومراحل تطوّره بحسب تسلسله في الزمان وتنقله في المكان ، كما تمكننا بطريقة جمعها للنماذج التي دارت حول فنّ ما من فنون الأدب أن نتصل بالنصوص ونتعرف طريقة معاناتها فندرك نقط الالتقاء ونقط التباعد بين أديب وأديب وشاعر وشاعر . فضلاً عن فوائد أخرى كثيرة أهمها معرفة ما إذا كان الأدب العربي قد استوفى الفنون الادبية المعروفة عند الغربيين أم قصر عنها ...

منشورات دار الشرق الجديد - بيروت

الثمن ٣٠٠ ق.ل
٣٥٠ ق.س